

موضوعات
فج
الاشتراكية العلمية



سلسلة الدراسات الثقيفية
الجهة الشعبية لتحرير فلسطين

موضوعات

في الفلسفة

الكتاب الأول



قائمة المشاركين

قائمة الموضوعات

أولاً: الفقه في العلم والحرية

ثانياً: حرية الفكر والضمير والعقيدة الدينية

ثالثاً: اللاعنونية

رابعاً: الحوار بين الأديان والثقافات

خامساً: الديمقراطية والتنمية

دائرة الاعلام المركزي

طبعة اولى ١٩٨٥

شكر وتقدير

تقديم

مقدمة



دائرة الاعلام المركزي — طبعة اولى ١٩٨٥

أولاً: الفلسفة وتحويل العالم تحويلاً ثورياً

ثانياً: مادية العالم بوصفها مبدأ التعليل العالمي للممارسة

ثالثاً: المادة والوعي

رابعاً: قوانين تطور المجتمع بوصفه نظاماً اجتماعياً

خامساً: الطبقات والنضال الطبقي

الفصل الأول

الفلسفة وتحويل العالم نحو ثوريا مكان الفلسفة في عقيدة الثورين

ان العهد المعاصر ، الذي برز ، بالمعنى التاريخي العالمي ، بمثابة ربيع التجديد الثوري للعالم القديم ، قد دشّن تاريخ البشرية الحقيقي ووطده ولا يزال يوطده . وان عظمة العمليات الاجتماعية المعاصرة وتنوعها وتعقدها تثير حتما المسائل عن امكانية رسم السبيل الصحيح في خضم الاحداث الجارية ، وتحديد اسبابها ، وطابعها واتجاهها ونتائجها ، وكذلك المسائل من مكان ودور نشاط الناس في هذه العمليات . ان وضع المرحلة الثورية الانتقالية التاريخي نفسه يفرض على الناس فرضا ضرورة امتلاك مبادئ عملية للنشاط ونظام دقيق من النظرات الى العالم والى قوانين تطوره والى امكانيات وسبل المعرفة والتحويل .
العقيدة والفلسفة :

ان الناس يسترشدون بنظرات ومعتقدات معينة في علاقتهم بالعالم المحيط بهم ، في هذا اوزاك من وجوه النشاط ، في مسلكهم وفي نمط حياتهم . وهذه النظرات والمعتقدات تتكون بمقدار ما يستوعب كل امرؤ التجربة الاجتماعية الانتاجية للاجيال السابقة ، بمقدار ما يستوعب مهارات وعادات واساليب النشاط ، وعناصر المعرفة العلمية . ان العناصر الاساسية التي تتكون منها نظرة الانسان العامة الى العالم تضطلع بدور معين في حياته ثم ان مع عناصر المعارف العلمية توجه مهارات واساليب الانتاج المستوعبة الانسان علميا في اختيار واستعمال وسائل النشاط البشري . والمعتقدات والمبادئ والقواعد الاخلاقية تنظم سلوك الناس والعلاقات فيما بينهم ، وتشتترط من العوامل النفسانية والانفعالية مزايا الانسان وسهات طبعه

ونشاطه الاجتماعي . وعليه :

يمكن تعريف العقيدة بأنها مجمل المبادئ والنظرات والمعتقدات لدى الافراد والفتات الاجتماعية والطبقات ، الذي يحدد موقفهم من النشاط ، واتجاه النشاط ، والنشاط الاجتماعي .

قد ينشأ انطباع مفاده ان العقيدة هي دائما وفقط مزيج صرف من معتقدات الناس ومثلهم العليا الفلسفية والعلمية والسياسية والاخلاقية والدينية والجمالية . ان هذا التصور او الانطباع خاطئ ، لان عقيدة الناس ينطوي دائما ، رغم كل غنى الفوارق الفردية والعناصر المكونة الجزئية ، وحدة معينة بين المضمون الاجتماعي والدور الاجتماعي . وهذه الوحدة بالذات بين المضمون الاجتماعي والدور الاجتماعي هي التي تتيح جمع وتصنيف جميع العقائد الفردية الموجودة باستغلال مختلف معايير الوحدة . ومن هذه المعايير ، الوحدة الطبقية التي تتيح التمييز بين العقيدة البرجوازية والعقيدة البروليتارية ، وكذلك مجمل نظرات الطبقات الاخرى والفتات الاجتماعية الاخرى . وفيها يتعلق بالاديان ودرجة تأثيرها ، يمكن التمييز بين العقائد الالحادية والدينية . ومن حيث الدور الاجتماعي السياسي في التطور الاجتماعي ، تنقسم العقائد الى عقائد تقدمية وعقائد رجعية .

ان تحليل العقائد حسب المعايير المذكورة آنفا يتسم باهمية كبيرة ، ويستعمل على نطاق واسع في الصراع الايديولوجي . ولكنه يمكن في الوقت نفسه تحليل العقائد على صعيد اوسع ينجم من الدور العقائدي الخاص الذي تضطلع به النظرات والمعتقدات الفلسفية . فان الفلسفة تقوم بدور خاص مفاده ، اولاً ، انها تنظم مختلف عناصر العقيدة في نظام واحد ؛ وثانياً ، انها تحلل نظرياً وتعمم مجمل معطيات الممارسة والعلم ؛ وثالثاً ، انها تحجب عن مسألة الهدف من الوجود البشري ، وعن مسألة مكان ودور الانسان والبشرية ، وافقهما التاريخي .

ان هذا اوداك من اوجه نشاط الناس من اوجه العلاقات فيما بينهم ، من اوجه سلوكهم ، هو في آخر المطاف صورة مجسدة لمبادئ فلسفية معينة . ان الفلسفة ، اذ تصف التصورات عن الوجود الطبيعي والاجتماعي وعن مكان الانسان ودوره ، انها تضع الاساس لكل نظام نظرات الانسان وتحدد نوعين اساسيين من العقائد : المادي والمثالي . وفي الحالة المعينة ، يشكل الاساس الفلسفي التي تتصنف حوله

مختلف عناصر العقيدة - ، ونعني به المادية الفلسفية او المثالية الفلسفية - اساس التقسيم . ان الوظيفة العقائدية للفلسفة وتأثير الفلسفة في توحيد الناس العملي لا يمكن تقييمهما بصورة صحيحة الا في حال توضيح مضمون ودور الاتجاهات الفلسفية الاساسية توضيحاً عميقاً .

ان الانظمة والمدراس الفلسفية العديدة تتضمن دائماً ، رغم كل تنوعها واختلافها ، جواباً عن مسألة مكان الانسان في العالم ، مسألة العلاقة المتبادلة بين الوعي الذاتي ، والتفكير ، والعقل وبين العالم الخارجي الموضوعي ، الوجود ، المادة . ان حل هذه المسألة الاساسية ، الاعم ، يحدد سلفاً طابع كل نظام العقيدة ، ويقسم الفلاسفة الى معسكرين كبيرين : الماديين والمثاليين . ان المادية تنطلق من اولية المادة ، من اسبقيتها ، من تبعية مشاعر الانسان وتصورات ووعيه للعالم الخارجي المعاصر . ان المادية التاريخية ، اذ تعتبر الوعي بالمكانية المبدئية لمعرفة الظواهرات والعمليات الموضوعية . فان السعي الى تفسير العالم كما هو عليه في الواقع ، الى تفسير النشاط العملي تفسيراً علمياً ، والصلة الوثيقة مع العلوم الطبيعية قد كانا على الدوام خاصتين مميزتين من خواص المادية .

وبديهي ان حجج المادية الفلسفية ونظراتها الملموسة تتغير مع مر التاريخ . ففي مختلف مراحل التاريخ البشري ، في المجتمعات الطبقية ، كانت الفلسفة تضم كل مجمل المعارف عن العالم والانسان . ان مادية العالم القديم ، - وهي اشهر مادية من حيث المصادر المتبقية ، - قد كانت ساذجة ، وكانت تعتبر اكثر الاجسام الطبيعية الملموسة انتشاراً (النار ، الماء ، الهواء ، الارض) المبدأ الاول المادي . وباسم احد مؤسسي فلسفة الذرة الاغريقية ، سمي لينين الاتجاه المادي في تاريخ الفلسفة « بخط ديموكرتيس » .

ان مثل هذه الاشكال للمادية الساذجة قد تجلت بهذا القدر اوداك في تاريخ العديد من الشعوب وحتى في تاريخ حضارات مندثرة ، كانت قائمة في درجات التطور البشرية الطبقية الاولى . وهذا العامل الاخير مهم من ناحيتين . اولاً ، انه يبين الشرطية الاجتماعية التاريخية لنشوء الفلسفات وتطورها بوصفها اشكالاً للوعي الاجتماعي ، ولنشوء وتطور التقاليد الفلسفية لدى كل شعب وقسطه الوافي في الثقافة الروحية العالمية . ثانياً ، انه يكشف البطلان العلمي للنظرات بشأن المركز

العالمي الوحيد الواحد للفلسفة والثقافة الروحية الذي يحاولون احيانا تصوير اوروبا والشرق الادنى والصين والهند وغيرها من البلدان والمناطق بصورته .

ان تقييم دور المادية القديمة العقائدي والاجتماعي لا ينطوي على توضيح طابعه وحسب ، بل ايضا على توضيح انسجامه في دراسة الطبيعة والمجتمع ، ودرجة الفعالية ، والصلة بالممارسة ، وكذلك في التعبير عن مصالح فئات اجتماعية معينة . وبموجب هذه الطريقة ، لا تتكشف المحدودية التاريخية للبراهين على مادية العالم وحسب ، بل يتكشف كذلك انعدام انسجام المادية القديمة التي صارت مثالية في حال تفسير المجتمع والانسان . ان الماديين القدماء ، الذين كانوا يعربون على العموم عن مصالح الفئات الاجتماعية الديمقراطية الطبيعية المرتبطة بالتجارة والحرية كاموا يمثلون الطبقات السائدة ولا سيما طبقة مالكي العبيد . ولهذا كان الماديون القدماء يعتبرون الانقسام الى عبيد ومالكي عبيد امرا خالدا وطبيعيا متطابقا مع جوهرهم الطبيعي المحتم . ومن الواضح ان الموضوعات الاجتماعية للمادية القديمة كانت تقدمية نسبيا من حيث التأثير في تحطيم العلاقات القبلية العشائرية الشائخة ، ولكنه لم يكن بوسعها ان تعكس تطلعات المظلومين الثورية . ثم ان العقيدة المادية الواعية قد اصبحت هي نفسها ، في ظل التضاد بين العمل الفكري والعمل الجسدي ، امتيازاً لقسم ضئيل من ديمقراطية مالكي العبيد التي كانت تعتبر العبيد ، من ذلك ، اشياء ، « ادوات ناطقة » . ينجم من هنا ان عاقبة التفسير المثالي لتاريخ المادية القديمة وطابعها التأملي وطبيعتها الطبقية لم يكن من الممكن ان تكون اداة روحية في يد المظلومين والمستثمرين ، وراية لثورة العبيد ؛ ولم يكن من الممكن بالاحرى ان تكون المثالية الفلسفية القديمة هذه الراية .

ان المذاهب الفلسفية قد انبثقت عن ظروف اولى المجتمعات الطبقية وبرزت كمقابل لاقتناع الناس المادي العضوي في الوجود الموضوعي للعالم الخارجي ، لهذا الاقتناع الذي واصلته وعمقته المادية الساذجة . وانطلاقاً من اسبقية المبدأ الروحي (الفكر الهيوولي ، العقل العالمي ، الوعي) واصلت المثالية بشكل نظري علمي المظهر الاوهام الميثولوجية الدينية القديمة ولا سيما منها مذهب الخلق الرباني للعالم . ولقد كانت الصلة مع الدين على الدوام خاصة مميزة من خصائص المثالية الفلسفية . « ان جميع المثاليين ، سواء منهم الفلاسفيون ام الدينيون ، الشيوخ ام

الشباب ، يؤمنون بالوحي ، والالهام ، والمخلصين ، وصانعي المعجائب ، وعلى درجة تحصيلهم فقط يتوقف ما اذا كان هذا الايمان سيرتدي شكلا فظ ، دينيا ، ام شكلا مستترا ، فلسفيا . . . »^(١) . واكثر ما يميز الفلسفة القديمة ، انها هونوع منها يسمى بالمثالية الموضوعية . فخلافا للمثالية الذاتية التي تعتبر العالم ومعرفته تابعين للوعي الفردي ، للذات (للفاعل) ، تنطلق المثالية الموضوعية من اولية (اسبقية) مبدأ روحي غير مادي من طراز الروح العامة ، والفكر المطلق ، وما الى ذلك .

ومن الامثلة على المثالية الموضوعية القديمة ، مدرسة الفيلسوف والفلكي وعالم الرياضيات الاغريقي فيثاغورس التي اعتبرت الاعداد الرياضية المبدأ الاول (الاسبق) . اما اشهر نظام فلسفي للمثالية الموضوعية فقد وضعه الفيلسوف الاغريقي افلاطون الذي سمى لينين باسمه ، كل خط المثالية في تاريخ الفلسفة . ومع انصرافنا الآن عن كل غنى مضمون هذا النظام الفلسفي ، ينبغي لن ان نشير الى موضوعيته المركزية القائلة باولية الاشكال الهيولية للاشياء او « المثل » كما سماها افلاطون .

على الصعيد الاجتماعي والسياسي ، كانت مدرستا فيثاغورس وافلاطون الفلسفتان تعبران عن مصالح اريستقراطية مالكي العبيد الرجعية . ان هذين المثاليين يبينان ان المثالية تصوغ نظريا ، على العموم ، عقائد الطبقات والفئات الاجتماعية المحافظة والرجعية التي تعارض تحويل الحياة الاجتماعية ، والتي لها مصلحة لها في اعطاء صورة علمية عن وجود الطبيعة والمجتمع . ولقد كشفت المثالية ، حتى في اشكالها الاولى ، ازراءها او انكارها للعمل الجسدي ، للنشاط الانتاجي ، لمعرفة العالم المحيط معرفة علمية ولتحويله .

ان الاستنتاجات الانتقادية بصدد دور المادية القديمة والمثالية القديمة العقائدي والاجتماعي لا ينبغي البتة اهميتها الاجتماعية التاريخية . واذا سكبنا بصيغة جديدة جملة انجلس المشهورة « لولا العبودية القديمة ، لما كانت الحضارة العصرية » ، امكننا ان نقول انه لولا الفلسفة القديمة ، لما كان التفكير النظري العصري . فان

(١) ماركس وانجلس . الايديولوجية الالمانية . الطبعة الروسية . المجلد ٣ ، ص ٥٣٦ .

فلسفة العالم القديم كانت تتضمن أجنة الكثير من الانظمة والمدارس الفلسفية اللاحقة ولذا لاتزال دراستها عنصرا هاما من عناصر ثقافة الثوري الفلسفية .

ان التضاد بين المقدمات الاسمية والوظائف العقائدية والاجتماعية لكل من المثالية والمادية قد ادى الى قيام صراع فكري لم يتوقف حتى في ايامنا بين معسكرين ، بين حزبين في الفلسفة ، الى قيام صراع بين « خطى ديموكرييتس وافلاطون » . وعليه نفهم بحزبية الفلسفة الانتساب الى احد المعسكرين ، الى احد الحزبين في الفلسفة ، علما بان هذا الانتساب ينجم في آخر المطاف عن اسباب اجتماعية طبقية ويعبر عن وظيفة اجتماعية محددة تاريخيا . وهذا المعنى بالذات قال لينين ان الفلسفة الحديثة حزبية كما منذ ٢٠٠٠ سنة .

وقد استمر الصراع بين المادية والمثالية في جوار القرون الوسطى الروحي الخارق الوطأة والمشقة . ولكن السيطرة الاقطاعية الاكليريكية ، وانفلات الظلامية الدينية ، ومطاردات محاكم التفتيش الكاثوليكية ، وتحويل الفلسفة الى « خادمة للدين » ، عجزت عن تحطيم انصار ومريدي الحقيقة العلمية وقوة العقل البشري . وهذان الاتجاهان في الفلسفة انعكسا في ذلك الزمن في الصراع بين الاسمية (او المذهب الاسمي الذي يؤكد اولية الاشياء وثانوية المفاهيم) والواقعية (المذهب الواقعي الذي يؤكد اولية المفاهيم الواقعية ، اسماء الاشياء) ، ان النظام السكولاستي (الكلامي) للمثالية الموضوعية الذي وضعه توما الاكوييني - او التومية - (والذي اعلن منذ عام ١٨٧٩ « الفلسفة الحقيقية الوحيدة للكاثوليكية ») هو اشهر انظمة المثالية الموضوعية . وقد تجلى تطرف الكنيسة الكاثوليكية في نزعتها المحافظة في اعترافها بمذهب توما الاكوييني مذهبها الفلسفي الرسمي بعد مرور ستة قرون على وفاة توما الاكوييني تم رسمه قديسا في عام ١٣٢٣ .

اما فيما يتعلق بالعقائد الثورية الى هذا الحد اوداك في مرحلة القرون الوسطى ، فقد كانوا يقتلون ويبيدون ممثلها بلا رحمة ولاشفقة . وفي تلك الاحوال ، لم تحصل عقيدة الثوريين على اساس وتعليل نظري فلسفي ، وكان الانكار الاتقادي للاشكال الايديولوجية الدينية السائدة هو العنصر المهيمن عندهم . وبالفعل كانت عقائد المصلحين والثوريين العمليين طوبوية ومحافظه وكانت المبرطقات الدينية لاتستهدف القضاء على الدين بوجه عام ، بل كانت تستهدف مجرد اصلاحه ،

تحسينه ؛ وكان النضال ضد الظلم الاجتماعي يدور ، على العموم تحت راية العودة الى المجتمع القديم الى « حالة الناس الطبيعية » ، التي انتهكتها وشوهتها ، حسب زعم ، الانظمة الاجتماعية القائمة . وكانت المبرطقات الفلاحية الشعبية في القرون الوسطى غلafa اجتماعيا وراية فكرية للحروب الفلاحية ضد الاقطاعية ، وقد كانت البرامج السياسية لبعض من هذه الحركات الفلاحية قريبة من الشيوعية الطوبوية السوائية . اما في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، اي عندما تكون الشكل الثاني تاريخيا للمادية ، فان الفلسفة قد اضطلعت بدور عقائدي واجتماعي آخر . فان مقتضيات تطوير القوى المنتجة قد دفعت المعرفة العلمية للطبيعة دفعة قوية ، واسهمت في نشوء العلوم الملموسة عن الطبيعة وفي نموها السريع : الميكانيك ، الفيزياء ، الكيمياء . كذلك اقتضى قيام وتطور اسلوب الانتاج الاشتراكي في احشاء الاقطاعية التحليل والتعليل النظري . ان البرجوازية الناهضة الفتية ، بوصفها حاملة اسلوب الانتاج الرأسمالي ، قد سارت في طليعة الحركة الشعبية المعادية للاقطاعية وبرزت كزعيمة للشورات البرجوازية والثورات البرجوازية الديمقراطية . وقد غدا تغيير شكل المادية ومضمون قضايا الفلسفة المثالية جوابا عن هذه المقتضيات الاجتماعية الجديدة . كانت مادية القرنين السابع عشر والثامن عشر مادية ميكانيكية تفسر العالم والانسان بالمقارنة مع قوانين ونظريات الميكانيك الكلاسيكي . ان اللوحة الميكانيكية عن العالم كانت تتطابق ، رغم طابها الوحيد الجانب ، مع المستوى التاريخي للمعرفة العلمية ، وكانت سلاحا ماضيا في النضال ضد السيادة الاقطاعية الاكليريكية . وكانت المادية الميكانيكية وثيقة الارتباط بالعلوم الطبيعية ، وكانت تعتمد على التجربة العلمية ، على تعليم الشعب وتنويره . وهذا المعنى ، كانت اكثر فعالية من المادية القديمة رغم انها كانت تتميز هي ايضا على العموم بالطابع التأملی .

ان الماديين الاوروبيين من القرنين السابع عشر والثامن عشر قد فسروا العالم الطبيعي تفسيرا ماديا على درجة كافية من الانسجام ، ولكن مفهومهم عن العمليات التاريخية والمجتمع والانسان بقي مثاليا . فان المنورين الموسوعيين الفرنسيين الذين ظفروا بشهرة عالمية ، مثلا ، كانوا يعتقدون ان « الآراء تحكم العالم » ؛ ولهذا ربطوا التقدم التاريخي بتنوير الشعب ، ولم يربطوه بتحويل المجتمع

تحويلاً ثورياً . وكانت مادية القرن السابع عشر والثامن عشر تشكل ، من حيث دورها الاجتماعي ، تعليلاً فلسفياً للعقيدة الثورية ، وللطبقة الاستثنائية البرجوازية الصاعدة ، وكانت تتجاذب مع مقتضيات التقدم في زمنها . ولكن برجوازية البلدان الأوروبية ، ما إن أقامت سيادتها السياسية ، حتى تخلت بعد فترة وجيزة نسبياً عن رايها الفلسفية المادية . واخذت مختلف صيغ العقائد المثالية الدينية تتناسب أكثر فأكثر مع مصالح سيادتها الطبقية في الميدان الاقتصادي والسياسي والروحي .

ومن الطريف أن نشير إلى أن مدارس المثالية الذاتية وما يسمى بالثنائية^(١) قد تطورت أوسع التطور كنقيض للمادية وتبعاً لطابع العلاقات القائمة على الملكية الخاصة . أن نظام هيغل المثالي الموضوعي هو ذروة تطور المثالية البرجوازية في القرن التاسع عشر . وفي الأزمنة الحديثة ، أعرب ممثلو المثالية البرجوازية ، على العموم ، عن مصالح الفئات والطبقات الاجتماعية المحافظة ، أو الرجعية ، أو التي ولي زمانها . ولكنه تنبغي الإشارة في الوقت نفسه إلى أن بعض المثاليين عن طرحو وحلوا المسائل الفلسفية المتعلقة بعملية المعرفة وأشكال المعرفة ونشاط الوعي الإنساني ، قد أسهموا بالتالي في تعميق وتطوير التفكير النظري .

أن الصلة بين الفلسفة وعقيدة الديمقراطية الثورية تتسم بأهمية خاصة . فإن الديمقراطية الثورية بوصفها ظاهرة اجتماعية ، تنبع من الأحوال الخاصة للبلدان التي تخلفت بحكم جملة من الأسباب عن الدرجات المناسبة للتطور التاريخي في القرنين التاسع عشر والقرن العشرين . وبهذا المعنى ، تتسم الديمقراطية الثورية بطابع عالمي رغم أن ظهورها في بعض البلدان لا يتطابق من حيث التسلسل التاريخي مع ظهورها في بلدان أخرى . أن الديمقراطية ، بوصفها تياراً فكرياً سياسياً ، هي حلقة انتقالية خاصة من الحركات الاجتماعية السائرة برئاسة البرجوازية الطامحة إلى السلطة ، إلى الحركة التحريرية الاشتراكية ، البروليتارية .

(١) الثنائية (أو الاثنينية) : مذهب فلسفي يعتبر المبدأ المادي والمبدأ الروحي متساويين في الحقوق . وفلسفة ديكرت وفلسفة كانط هما أبرز مثالين علي الثنائية بوصفهما عاليتين للتوفيق بين المادية والمثالية .

أن الأسس الفلسفية لعقيدة الديمقراطية الثورية تتوقف سواء على ظروف العصور التاريخية المعنية أم على التقاليد الفلسفية والثورية عند هذا الشعب أو ذاك . وفي أغلب الأحوال ، كانت نظرات الديمقراطيين الثوريين الفلسفية غير متجانسة ومنسجمة ، وكانت تجتمع عناصر في منتهى الاختلاف والتناقض . ومع ذلك ، أدى النشاط الثوري ، وحالة النضال الثوري ذاتها إلى ظهور السعي لدى أغلبية الديمقراطيين الثوريين وراء معرفة علمية ، وإلى ظهور الموقف الانتقادي من المفاهيم المثالية والكليركية السائدة . ومن الأمثلة على ذلك ، التطور الفلسفي للديموقراطي الثوري المشهور وزعيم حركة التحرر الوطني في كوبا في القرن التاسع عشر ، خوسيه مارتية .

وفي القرن التاسع عشر ، تجلّى الاتجاه المادي باسطع شكل في فلسفة الديمقراطيين الثوريين الروس ، ابتداء من هرتسين حتى تشيرنيشيفسكي . فإن السمات التي تميزت بها فلسفتهم لم تقتصر على فهم الطبيعة فهماً مادياً ، بل شملت كذلك محاولة النظر نظرة طبقية إلى الظواهر الاجتماعية . وللمرة الأولى ، خضعت الفلسفة المادية في عقيدتهم ، عن وعي وإدراك لمصالح الطبقة المظلومة ، لمصالح الثورة الفلاحية التي كرسوا حياتهم لتعليلها وتطويرها . وقد قدر ماركس وانجلز ولينين رفيع التقدير آراء الديمقراطيين الثوريين الروس النظرية ونشاطهم ، علماً بأن هؤلاء تركوا أثراً ملحوظاً في تطوير الفكر النظري وفي التقاليد الفلسفية للمادة وفي الممارسة الثورية . ولكن الديمقراطيين الثوريين الروس لم يتغلبوا على الفهم المثالي للتطور الاجتماعي ، ولهذا كانت نظراتهم وآمالهم في ثورة فلاحية في روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث كانت الرأسمالية قد تطورت ، عبارة عن أحد أشكال الطوبوية الاجتماعية .

أن استعراضاً موجزاً للأشكال التاريخية للمادية والمثالية على الصعيد الذي يهمنا ، أي صعيد الصلة بين الفلسفة والممارسة الثورية ، يتيح استخلاص بعض الاستنتاجات الهامة . أولاً ، أن المادية الفلسفية بجميع أشكالها قد أسهمت دائماً ، رغم المحدودية التاريخية للمعارف الملموسة عن العالم الخارجي والإنسان ، في معرفة العالم معرفة علمية وفي رسم لوحة علمية عن العالم . فإن العناصر العرفانية العلمية التي تنطوي عليها المادية قد اتاحت بها أن يبرز بوصفها أساس عقيدة أكثر الطبقات

والفئات الاجتماعية تقدما بالنسبة لزمناها . ولكن المادية السابقة لما ركس لم تستطع ، بحكم عدم انسجامها وتماسكها الفلسفي ، وبحكم مثاليتها التاريخية وبحكم طابعها التأملي ، وكذلك بحكم الظروف التاريخية ، ان تكون تعليلا علميا فلسفيا لثورة الجماهير المظلومة والمستثمرة .

نانيا . كشفت المثالية الفلسفية فساد اتجاهها العقائدي والاجتماعي . فان الصور المثالية الدينية عن العالم قد اسهمت في توطيد الضلالات المزمنة ، واعاقت تطور عناصر المعرفة العلمية ، وعززت السيطرة الفكرية والسياسية للقوى الرجعية من الطبقات الاستثمارية . وقد برز تأثير المثالية على الاخص في مذاهب ومفاهيم التطور الاجتماعي التاريخي ، وطور تقاليد الفهم المثالي للتاريخ ، لاعند المثاليين انفسهم وعند ايدولوجيي الطبقات السائدة انفسهم وحسب ، بل ايضا عند مثلي المادية السابقة لما ركس . ان سيطرة المثالية التاريخية قد استتبع عيوباً جذرية في الاتجاه الاجتماعي - الطوبوية ، القضاء والقدر ، الارادية ، التأملية . وفي اواسط القرن التاسع عشر ، اصبحت هذه المحدوديات والقيود التاريخية للفلسفة السابقة ، وتختلف وظيفتها العقائدية والاجتماعية عن المقتضيات الاجتماعية واضحة واولية الى حد انها تطلبت انقلابا جذريا في التصورات السابقة . كذلك احتاجت الوظيفة المنهجية للفلسفة الى تغييرات جذرية .

دور الفلسفة العرفاني والمنهجي في نشاط الناس

ان توضيح المفاهيم والمبادئ الفلسفية هو خطوة هامة تعمق فهم وظائف الفلسفة ومكانها ودورها في عقيدة الثوريين ونشاطهم . وفي هذه المفاهيم الخاصة المسماة بالمقولات الفلسفية ، يتركز المضمون النظري الاساس للانظمة الفلسفية ايا كانت .

كذلك ينبغي التمييز بين مقولات الفلاسفة وبين المفاهيم العادية ومقولات العلوم الخاصة على السواء ، رغم انها احيانا بالكلمات ذاتها . ففي المفاهيم العادية ، يعمم الناس بعض خواص مجموعة معينة من الاشياء او الظواهر التي يستوعبونها ويعرفونها . ومن الامثلة على هذا الضرب من المفاهيم ، مفاهيم « الشجرة » ،

« البيت » ، « الطاولة » وغيرها . وبفضل دراسة العلوم الملموسة للخواص والصلات الهامة لاشياء معينة ، ولهذا اوتلك من ميادين النشاط ، دراسة اكثر تعمقا ، دراسة مختصة ، تتكون المفاهيم العلمية . وهذه المفاهيم الاساسية ، العامة بالنسبة للعلم معنى تسمى مقولات هذا العلم .

لكل علم مقولاته . وفي مقولات العلوم الملموسة تنعكس بصورة معمة خصائص التنظيم والحالة والصلة والتغير الملازمة لمختلف ميادين او مجموعات اشياء الطبيعة والمجتمع . مثلا . مقولات الميكانيك - الكتلة والطاقة ؛ مقولات البيولوجيا - الخلية ، العضوية ، الوراثة ؛ مقولات السبيرنتيك - الاعلام ، البرمجة ، الصلة العكسية ؛ مقولات الاقتصاد السياسي - القيمة ، التبادل ، تجديد الانتاج .

ان كلا من المقولات الفلسفية - خلافا لمقولات العلوم الملموسة - هي واسعة الى اقصى حد من حيث حجم المفهوم العلمي الذي تنعجم فيه الجوانب والصلات الجوهرية الملازمة لكل شيء ولكل عملية من عمليات الواقع . مثلا ، يمكننا ان نتصور كل شيء وكل ظاهرة وكل عملية بصورة مجموعة معينة من اقسام مكونة تشكل مضمونها ، وان نعطيها وصفا كميا معيناً . وهذا يعني ان المقولتين الفلسفتين « المضمون » و « الكمية » تعكسان امرا مشتركا موجودا فعلا وملازما لجميع اشياء وظواهرات الواقع الموضوعي .

ان الفلسفة المادية قد اعطت حلا علميا لقضية اصل المقولات . فكما كتب لينين ، « يواجه الانسان شبكة ظاهرات الطبيعة . الانسان الغريزي ، المتوحش ، لا يفرز نفسه عن الطبيعة . الانسان الواعي يفرز مقولات ، وهر ، درجات الفرز ، ان درجات معرفة العالم ، العقد في الشبكة ، التي تساعد في معرفتها وفي امتلاكها » (١) . في هذا الرأي ، اشار لينين الى الاساس الموضوعي لنشوء وتطور وتكون المقولات ، والى طابعها التاريخي والى دورها في عملية المعرفة ، واعرب عن الفكرة القائلة ان المقولات تنبثق وتتطور على اساس تعميم تجزئة معرفة وتحويل العالم ، على اساس الممارسة الاجتماعية التاريخية ، على اساس تطور الانتاج والعلوم الخاصة والفلسفة .

(١) لينين . الدفاتير الفلسفية . المؤلفات . الطبعة الرابعة . المجلد ٣٨ . ص ٨١ - ٨٢ .

ان المادية والمثالية تفسران بصورة متضادة منشأ ومضمون المقولات . فان المثالية تتسم بسمة عامة قوامها الزعم ان المقولات لاتعكس العالم الموضوعي . فان هيجل ، مثلاً ، قد فهم المقولات على انها تجل للفكرة المطلقة ، للعقل العام . والمثاليون الذاتيون يرون في المقولات نتاج نشاط التفكير البشري بدون اي صلة مع العالم الفعلي . فان البرغماتيين (العمليين) ، مثلاً ، يعتبرون جميع المفاهيم مفاهيم ذاتية وغير محددة ، يصنعها الانسان ويستغلها لاجل بلوغ اهدافه . وهناك عدد لا بأس به من المثاليين يعتقدون ان المقولات هي نتيجة اتفاق ، نتيجة اتفاق اعتباطي بين الناس بصدد مضمونها ومغزاها . ان المفهوم المثالي للمقولات يركز على واقع انها موجودة في رأس الانسان فقط .

ان كل مقولة موضوعية من حيث مضمونها بوصفها انعكاسا للعالم الخارجي ، وذاتية من حيث شكلها . ان مضمون المقولات - جوانب وصلات عامة معينة موجودة في العلم الموضوعي ، خارج الوعي الاجتماعي . ان ذاتية المقولات تفهم بمعنى الشكل المنطقي ، المجرد ، لعكس الواقع ، الملازم فقط للذات (الفاعل) ، وللانسان ، وللانسانية . وكل تعميم هو تجريد عن جوانب وخواص ما ، جزئية . ولكن التجريد العلمي لاي يعني الانفصال عن الواقع ، بل على العكس ؛ فان التجريد العلمي ، المعبر عنه بالمقولات ، يكشف بمزيد من العمق الواقع وجوانبه الداخلية ، الجوهرية ، الاكثر تخفياً .

ومن هنا ينجم ان اهم السمات التي تميز المقولات الفلسفية هي شمولية وموضوعية مضمونها . ان قضايا منشأ المقولات الفلسفية ومضمونها وشموليتها تشغل مكان الصدارة في الصراع بين المادية والمثالية منذ قرون وقرون . ان سبب هذا الصراع يكمن في الوظيفة الخاصة للمقولات الفلسفية . ان مقولات العلوم الخاصة تدرس الصلات الملموسة في ميدان معين من ميادين النشاط ، وتتسم بجانب من الاهمية ، بصورة رئيسية ، لاجل معرفة الميدان المعنى الضيق نسبياً . اما المقولات الفلسفية ، فانها تشكل ، بفضل عموميتهما ، المقدمات المنطقية لاجل دراسة وتفسير جميع ميادين النشاط . وبدون استعمال المقولات الفلسفية ، يستحيل البحث العلمي المعاصر . ذلك ان مقولات المنطق الديالكتيكي الفلسفية ، كما بين لينين ، مترابطة فيما بينها بصورة لا انفصام لعراها ، متحركة ، تنتقل احداها الى الاخرى ،

وتتحلى بمرونة عامة شاملة . « ان هذه المرونة ، المطبقة بصورة ذاتية ، تعنى الاختيارية والسفسطائية . والمرونة ، المطبقة بصورة موضوعية ، انها تعكس جميع الجوانب العملية المادية ووحدة هذه العملية ، هي انعكاس صحيح لتطور العالم تطوراً ابدياً » (١) .

ان كل معرفة علمية للفرد ، وكل عمل اجتماعي له ، وحتى سلوكه الاجتماعي انما تضبطها بصورة عفوية او واعية هذه او تلك من المبادئ العقائدية . ونحن نفهم بمبادئ العلم او بمقتضياته الاساسية موضوعات منطقية ومحددة تنعكس وتعمم فيها اهم وابرز جوانب نشاط الناس العرفاني والعملي في ميدان معين من ميادين العالم الموضوعي . وقد اشار انجلز الى ان المبادئ هي نتيجة البحث النهائية وانها لاتكون صحيحة الا بقدر ما تتطابق مع الطبيعة والتاريخ . وهذا يعني ان المبادئ ليست مجمل قواعد اعتباطية ، بل انعكاس للموضوعي في المعرفة والتفكير ، وحاصل واستنتاج من نشاط البشرية العرفاني والعملي .

ان المبادئ الفلسفية هي مجمل اعم المقدمات المنطقية والافكار الهادية الاساسية التي تصف فهم العالم وموقف الانسان منه في المستوى المعنى للمعرفة والممارسة التاريخية . وفي عداد هذه المبادئ الفلسفية ، ترد المبادئ المدروسة سابقاً - مبدأ اولية المادي ، ومبدأ حزية الفلسفية ، وجملة اخرى من المبادئ . ان حل المسألة الاساسية في الفلسفة حلاً متضاداً يحدد سلفاً تضاد المبادئ الفلسفية للمادية والمثالية كما يحدد سلفاً تضاد وظيفتها العرفانية والمنهجية . ان المبادئ والمقولات الفلسفية المصنفة تمارس تأثيراً متنوعاً الوجه على نشاط الناس . ففي وحدة النظرة الفلسفية الى العالم والطبيعة والمجتمع والتفكير والمعرفة ، كما سبق وقلنا ، تتجلى الوظيفة العقائدية للفلسفة وفي الاسباب الطبيعية الاجتماعية لهذا الضرب اوداك من الفلسفة ، وفي تغيرات مضمونها التاريخية ، ولاسيما في تأثيرها على التطور الاجتماعي ، تتجلى الوظيفة الاجتماعية للفلسفة . وفي المذهب الفلسفي . بصدد التفكير والمعرفة ، وفي قوانينها واشكالها ، تتجلى

(١) لينين . الدفاتير الفلسفية . المؤلفات . الطبعة الرابعة . المجلد ٣٨ . ص ٩٩ .

ان قضايا عملية المعرفة تشغل في نشاط الناس درجة من الاهمية بحيث ان تفسيرها الفلسفي بصور مختلفة يؤثر كذلك في جميع الوظائف الاخرى للفلسفة . فضلا عن ذلك ، يتيح الفهم العلمي لعملية المعرفة كشف اسباب النظرات المشوهة الى العالم ، بما فيها الجذور العرفانية للمثالية ذاتها . ونلاحظ انه مامن انسان مصون عن الضلالات وحتى عن الاخطاء المثالية . فان تعقد عملية المعرفة ، ونقص معارفنا التاريخي ومحدوديتها التاريخية ، واجتماع الضلالات والتصورات الخاطئة الى الحقائق العلمية ، - كل هذا يجعل من الممكن فهم العالم فهما مشوها . ولكنه لايجوز الخلط بين الضلالات الجزئية وحتى الاخطاء المثالية التي يقترفها انسان بمفرده وبين نظام موضوع من الفلسفة المثالية » ان المثالية الفلسفية هي وحيدة الجانب ، مضخمة تطوير (نفخ ، تضخيم) احد خطوط جوانب ، حدود المعرفة الى مطلق مفصول عن المادة ، عن الطبيعة ، مؤله « (١) . ان الامكانيات العرفانية لتطوير مثل هذه النظرات الوحيدة الجانب الى نظام من الفلسفة المثالية تتحول الى واقع حين تتطابق مع المصالح الطبقية الانسانية لفئات اجتماعية معينة وتحظى بدعمها ومساندتها . ومن هنا تنبع ضرورة التحليل الملموس لهذه اوتلك من انواع واشكال المثالية التي يلازمها اجتماع من الجذور الطبقية الاجتماعية والجذور العرفانية .

ان فعالية وتأثير المقولات الفلسفية في نشاط الناس العرفاني والعمل يتوقفان سواء على تفسير مضمونها ام على جمعها في منهج فلسفي معين . ونحن نفهم بالمنهج الفلسفي اسلوبا خاصا وطرائق للمعرفة تتيح لنا ان نكشف عمليات الطبيعة والمجتمع والتفكير والنشاط الاجتماعي باكثر ما يكون من الكمال والشمول والعمق ، وان نحدد بالتالي الاعمال الضرورية لاجل بلوغ الاهداف المنشودة .

لقد قال الفيلسوف المادي البريطاني الكبير فرنسيس باكون في حينه ان المنهج (او الطريقة) انما هو مشعل ينير السبيل امام السائر في الظلمة . واذا واصلنا هذا التشبيه ، امكننا ان نؤكد ان المنهج الفلسفي العلمي في الظروف المعاصرة هو

مصباح كشاف لا ينضب معين نوره وانبشاقه جبارة لاجل البحوث العلمية ولاجل النشاط التحويلي الثوري . ولكن انبشاقه سبقه طريق تاريخي طويل من البحوث والضلالات الفلسفية .

فحتى في الفلسفة القديمة ، نجد اجنة المنهجين المتضادين : الدياليكتيك (الجدلية) والميتافيزياء . فجوابا عن مسألة حالة العالم المحيط ، اكد الدياليكتيك العفوي ان كل شيء يجري وكل شيء يتغير . اما الميتافيزيائيون الاقدمون ، فانهم ، على العكس ، قد استعظموا سكون الوجود وعدم تغيره وانعدام حركته . وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر ، انبثقت الميتافيزياء كطريقة (او منهج) للمعرفة في العلوم الطبيعية ، عندما كانت المادية العلمية تتراكم ، كانت الدراسة تتناول مختلف الاشياء والوقائع . ان الطريقة الميتافيزيائية مشروعة ، ومشروطة تاريخيا بالنسبة لمرحلة التجميع هذه في تطوير العلوم الطبيعية . ولكن سرعان ماشرح ما يلازمها من محدودية وطابع وحيد الجانب يحولان دون تطور المعرفة العلمية لاحقا . فان الميتافيزياء تعجز عن تفسير الواقع تفسيرا علميا لانها تعزل الاشياء والظواهرات بعضها عن بعض ، وتدرسها في معزل عن الصلة المشتركة والحركة المشتركة والتطور المشترك ، وتحصر التغيرات في مجرد الزيادة الكمية وفي مجرد النقص الكمي .

اما الدياليكتيك (الجدلية) ، بوصفه طريقة (او منهجا) فلسفية ، فقد تطور بالارتباط مع مقتضيات التقدم الاجتماعي ، بوصفه مذهباً عن الصلة المشتركة والتطور المشترك للعالم الموضوعي والتفكير فليس هناك بالنسبة للفلسفة الدياليكتيكية ، شيء نهائي ، مطلق ، مقدس . انها ترى حتمية الانهيار في كل شيء ، ولا يوجد شيء يستطيع الصمود في وجهها الا المجرى المستمر للنشوء والزوال ، للصعود اللامتناهي من ادنى الى اعلى « (١) .

ان الفكرة المركزية في الدياليكتيك - فكرة التغير اللامتناهي والتطور اللامتناهي - قد شقت الطريق لنفسها مجتمعة الى مختلف الانظمة الفلسفية المادية والمثالية .

ولهذا نجد في تاريخ التفكير النظري تركيبات مختلفة للنظرية الفلسفية والطريقة الفلسفية : المادية الميتافيزيقائية والمثالية الميتافيزيقائية ، الديالكتيك المثالي والديالكتيك المادي^(١) . مثلاً : ان مادية القرنين السابع عشر والثامن عشر لم تكن ميكانيكية وحسب ، بل ايضا ميتافيزيقائية من حيث طريقتهما . فان نظام هيغل الفلسفي يتميز بجمع المثالية الى الطريقة الديالكتيكية اوفي واوسع نحو .

ولاريب في ان فكرة الديالكتيك المركزية - فكرة التغير اللامتناهي والتطور اللامتناهي - هي الانجع من حيث المبدأ لاجل توجيه نشاط الناس العملي ؛ ولكن هذه الفكرة في اطار نظام هيغل الفلسفي المثالي الناجز قد اقتصرت على تحرك المفاهيم الذاتي ، ولم يكن بوسعها ان تكون دليلاً في الممارسة الاجتماعية التاريخية وبالاحرى في تحويل العالم تحويلاً ثورياً . اما الطريقة الديالكتيكية ، فانها لم تصبح اداة جبارة لمعرفة العالم معرفة علمية ولتحويله تحويلاً ثورياً الا بجمعها مع المادية الفلسفية المنسجمة المتأسكة . ان هذا الجمع بين المادية والديالكتيك - ، وبالتالي تغيير وظيفتهما العرفانية والمنهجية تغييراً جذرياً - ، قد تحقق بنشوء الفلسفة الماركسية - اللينينية .

* * *

الفلسفة الماركسية - اللينينية - الاساس النظري للنشاط التحويلي الثوري

المقدمات التاريخية لنشوء الفلسفة الماركسية - اللينينية

ان دراسة المقدمات التاريخية ، ونعني بها المقدمات الاجتماعية والاقتصادية والنظرية والعلوم الطبيعية - لنشوء الفلسفة الماركسية - اللينينية ودراسة مراحل تطورها تكشف نظريتها الاجتماعية ، واهم خصائص مضمونها ووظيفتها ؛ وتتيح ، فضلاً عن ذلك ، تقديم البرهان على وهن وبطلان الذرائع والحجج المستعملة لنقد وانكار وتشويه الفلسفة الماركسية - اللينينية سواء في الصراع الايديولوجي الماضي ام الحاضر . وبين العديد من التزييفات تبرز المحاولات لاعتبار الفلسفة الماركسية - اللينينية «الفلسفة الهغلية او «المادية الاقتصادية» شيئاً واحداً ، او يبرز ، على العكس ، الزعم القائل بوجود انتهاك للتتابع في التفكير النظري ، بوجود انقطاع من ثقافة الغرب الروحية . وهناك صيغة مضادة شكلاً للتزييف المعاصر تعبر عنها الموضوعية القائلة ان الماركسية - اللينينية وفلسفتها - ظاهرة «اوروبية» صرف ، «المانية» صرف او ظاهرة «روسية» صرف ، ان المحاولات التي يبذلها الانتهازيون واعداء الشيوعية في الظرف الراهن لتشويه المضمون الاممي للمذهب الماركسي - اللينيني هي اعتراف اضطراري بقوة جاذبيته وبتعاظم تأثيره في العملية الثورية العالمية .

وبالفعل ، كان نشوء وتطور الفلسفة الماركسية - اللينينية جواباً عن مقتضيات الاجتماعية الفعلية لمجهود ملموسة من التاريخ العالمي ، وتحليلاً جديداً وتعميماً لتجربة النضال الطبقي ولاسمى المنجزات التي حققتها البشرية في ميدان المعرفة العلمية والتفكير الفلسفي .

(١) تجدر الاشارة الى ان المقصود بالميتافيزياء حتى اواخر القرن الثامن عشر ، واحياناً في الفلسفة المعاصرة غير الماركسية ، المذاهب الفلسفية التي تدرس على العموم قضايا المبدأ غير المادي ، قضايا ما يزعم انه موجود خارج حدود العالم الفيزيائي (الطبيعي) . وفي الفلسفة المعاصرة ، توصف الميتافيزياء بانها طريقة منافية للديالكتيك .

المقدمات الاجتماعية والاقتصادية . ان تولد الرأسمالية قد دفع البلدان الاوروبية في النصف الاول من القرن التاسع الى الخطوط الامامية من التقدم التاريخي . ثم ان نمو الصناعة الكبيرة قد رافقه تحطيم العلاقات الاجتماعية الشائخة تحطيمها ثوريا ، وتحول الطبقات القديمة ، وظهور طبقتين جديدتين هما البرجوازية والبروليتاريا . وحتى في اولى الازمات الاقتصادية ولاسيما في النضالات السياسية التي قامت بها البروليتاريا في بريطانيا وفرنسا والمانيا في العقدين الرابع والخامس من القرن التاسع عشر ، تبدى التناحر بين البرجوازية والبروليتاريا ، والتضاد المستحكم بين مصالحهما وحاجتهما . وبفضل الانتقال من اشكال النضال الطبقي العفوية والفجة (غير الناضجة) الى تقديم المطالب الطبقة السياسية ، وتحولت البروليتاريا الى قوة ثورية متميزة ، مستقلة . وظهرت اولى الاجنة المادية والاجتماعية والسياسية للشروط والظروف اللازمة من اجل الاطاحة بالمجتمع القائم على تناحر الطبقات . وتبدت في الوقت نفسه ضرورة ادراك دور البروليتاريا العالمي التاريخي وضرورة اعطاء تحليل فلسفي واقتصادي لرسالتها الاشتراكية .

ان الحاجة التاريخية الى تحليل نظري لمكان ودور البروليتاريا بوصفها طبقة مظلومة مضطهدة كانت مقدمة جوهرية لنشوء الفلسفة الماركسية - اللينينية ، ولكنها لم تكن المقدمة الوحيدة ، ذلك ان حاجات الطبقات المظلومة واحلامها وبحوثها عن نظام اجتماعي مثالي قد انعكست فيما مضى في طوبويات اجتماعية مختلفة . ان العقابة المباشرة لتأثير المشالية التاريخية في النظريات الاجتماعية الطوبوية لم تنحصر في فهم التطور الاجتماعي فهما مشوها ، بل قامت كذلك في فهم سبل وأفاق التحولات الاجتماعية فهما غير صحيح ، وخلافا لهذا الضرب من الطوبويات الاجتماعية ، تكونت الاسس النظرية لعقيدة البروليتاريا من اسمى منجزات المعرفة العلمية والفلسفية .

مقدمات العلوم الطبيعية . قبل القرن التاسع عشر ، كان تطور العلوم الطبيعية الملموسة يتجلى على الاغلب في جمع ووصف وتصنيف العديد من وقائع وظواهرات الطبيعة وخواصها . ومن جراء دراسة الوقائع العلمية دراسة منعزلة ، نشأت في العلوم الطبيعية ميكانيكية ومتافيزيائية للعالم الموضوعي بمجمله . فهكذا ، نشأت

نظرة تزعم ان العالم يتألف من اجزاء مستقلة ، معزول بعضها عن بعض - « مملكة المعادن » ، « مملكة النباتات » ، « مملكة الحيوانات » ، « مملكة الانسان » . ان هذا الاستعظام لانعزال اقسام الطبيعة وسكونها وعدم تغيرها لم يعد يتطابق سواء مع المادة العلمية المكدسة من الوقائع ، ام مع ممارسة الانسان الاجتماعية والانتاجية . ان النظرة الميتافيزيائية الى العالم قد قوضتها على الاخص الاكتشافات العظيمة في ميدان العلوم الطبيعية في القرن التاسع عشر . نفس العقد الرابع من القرن التاسع عشر ، قادت بحوث العلماء في عدد من البلدان الاوروبية الى اكتشاف الخلية التي تشكل اساس بنية العضويات النباتية والحيوانية على السواء ، الامر الذي اثبت وحدة العالم العضوي وقوانين تطوره المشتركة ، العامة . وفي مستهل العقد الخامس من القرن التاسع عشر ، تم تحليل القانون الاساس الذي يقول بدوام وتحول الطاقة ، والذي يؤكد استحالة القضاء على المادة وانتقال مختلف اشكال حركتها بعضها الى بعض . واخيرا ، نشر العالم البريطاني شارل داروين في عام ١٩٥٨ نظريته القائلة بتطور العضويات التدريجي والتي ختمت بحوث سابقيه العديد من العلماء . ان نظرية التطور التدريجي قد كشفت الصفة الطبيعية لاصل جميع العضويات النباتية والحيوانية الموجودة وتغيرها الدائم وتطورها الدائم ، كما كشفت الاصل الطبيعي للانسان ، نشؤه الطبيعي من عالم الحيوانات . ومن هنا ينجم ان الاكتشافات العظيمة في ميادين العلوم الطبيعية ، بكشفها الطابع الدياليكتيكي لعمليات الطبيعة الحية والطبيعة الجامدة ، والقوانين الطبيعية لوجودها وتطورها ، انبها قضت على اللوحة الميتافيزيائية القديمة المرسومة عن العالم ، وعلمت طابعه المادي والدياليكتيكي . ولذا تطلبت منجزات العلوم الطبيعية تحويل العلوم الطبيعية وتحويل الآراء النظرية والفلسفية السائدة وتغييرها بصورة جذرية .

المقدمات الفلسفية النظرية . ان مقدمات الاسس النظرية للعقيدة الثورية للبروليتاريا . هياهد نل انريخ العالمي للمعرفة الاجتماعية والفلسفية ولمعرفة العلوم الطبيعية . وبهذا المعنى ، تشبعت العقيدة البروليتارية باسمى منجزات الثقافة الروحية العالمية ، وانبثقت بوصفها تنمة فورية ومباشرة لمذاهب اعظم ممثلي الفلسفة

والاقتصاد السياسي والاشتراكية . وقد برز نظامي هيغل وفورباخ للفلسفان كمحصلة وذروة ونهاية للفلسفة في المجتمعات الطبقة التناحرية .

لقد قام هيغل في نظامه الفلسفي بمحاولة عبقرية لكشف الطابع الديالكتيكي المشترك العام للطبقة والمجتمع والتفكير . ومن وجهة النظر هذه ، ليس العالم والانسان مع وعيه غير اطوار مختلفة من تطور وشكل وجود الفكر المطلق الموضوعي . فان المبدأ الاولى الخالد للعالم ، حسب هيغل ، ويمثله طور وجود الفكر المطلق قبل الطبيعة ، يمثله شكله « الصافي » ، المنطقي . وفي طور معين من التطور ، يتحول الفكر المطلق الى ضده ، الى نقيضه ، الى « وجود آخر » ، الى طبيعة . ثم ان الحركة حركة الطبيعة وتطورها يؤديان بدورها الى نشوء الانسان والى نشوء شكل جديد « للوجود الآخر » - هو الوعي ، الروح البشرية . ان تطور الوعي يبلغ اعلى الدرجات في نظام هيغل على وجه الضبط ، لانه حسبما يزعم ، يعبر عن الوعي الذاتي للفكر المطلق .

في هذا العرض الموجز ، تبرز السات الاساسية لفلسفة هيغل . ان اهم مزايا هذه الفلسفة انها هي فكرتها الخصبة المركزية بشأن التطور الديالكتيكي بوصفه حركة تلقائية تشكل التناقضات الداخلية اساسها ، جذر كل حركة وقابلية للحياة . ان هذه الفكرة قد عممت النتائج التقدمية للمعرفة السابقة في ميدان العلوم الطبيعية وميدان الفلسفة . وهي تنطوي على حدس عبقرى بديالكتيك الاشياء ، رغم ان التعبير عن هذا الديالكتيك ارتدى شكل ديالكتيك المفاهيم . وفي الوقت نفسه ادى خصب فكرة التطور ، الذاتي بالنسبة للعلم والممارسة الى تقويض نظام فلسفة هيغل المثالي ، المحافظ ، تقويزا شديدا . فان هيغل لم يستطع ان يتغلب على التناقض المستعصى الناشئ بين كل نظام متكامل للمثالية الفلسفية وبين فكرة التطور اللامتناهي . وهذا التناقض انما يعبر عنه ، اولاً ، ما يتطور (الفكر « الخاص » ام المادة) ، وثانياً ، نتيجة التطور ، لان التطور عند هيغل ينتهي بصورة منطقية بالمعرفة الذاتية للفكر المطلق ، بتأكيد اكتمال وثبات (عدم تغير) كل ما هو موجود سواء في الطبيعة ام في المجتمع والتفكير . ومن الواضح ان ديالكتيك هيغل الذي ينحصر في شكل الحركة الداخلية للفكر المطلق ، لم يكن بوسعه ان يكون طريقة ديالكتيكية حقيقية للمعرفة العلمية ولنشاط الناس التحويلي .

ان تناقض فلسفة هيغل الداخلي ، الذي يفصح عن ازمة التفكير النظري في المجتمع البرجوازي في تلك المرحلة ، قد حدد سلفا الصراع المديد بين التيارات المادية والمثالية حول نظرات هيغل .

وقد كان الفيلسوف المادي الالماني فورباخ من اوائل الذين انتقدوا مثالية هيغل الموضوعية انتقادا اساسيا مفصلاً . فقد اوضح عن حق وصواب ان نظام هيغل هو دين معبر عنه في تجرييدات فلسفية ، وان الفكر المطلق هو تعبير آخر عن الاله ، الذي هو جزء من الطبيعة ذاتها . وقد عارض فورباخ هيغل بموضوعات مادية عن اولية الوجود المادي ودوره المحدد ، ودرس وحل مسألة الوعي بوصفه انعكاسا للعالم المادي ومن المواقع المادي انتقد فورباخ عن حق وصواب المثالية والعجزية (اللا أدرية) على الحد من امكانيات الانسان العرفانية او على انكارها ، كما انتقد المادية المبتذلة التي حصرت تفكير الانسان ونفسيته في الظواهرات البدنية . وعليه تقوم مأثرة فورباخ التاريخية في بعث مبادئ المادية في النضال ضد الهيغلية وسائر اشكال المثالية .

الا ان فورباخ ، رغم بعثه هذه المبادئ ، كرر المحدودية التاريخية للمادية السابقة . فان ماديته كانت من حيث الطريقة ميتافيزيائية وتأملية ، وكانت تأتلف من الفهم المثالي للعملية التاريخية التي كان فورباخ يعتبر العقل قوتها المحركة . وبما ان فورباخ رأى الى الانسان خارج علاقاته الاجتماعية ، خارج التطور التاريخي ، ولم يفهم دور النشاط العملي الاجتماعي التاريخي ، فقد اضفى على المثالية طابعا انتروبولوجيا (متعلقا بعلم السلالات البشرية) . ان اهم خطأ اقترفه فورباخ ، هو الطابع الوحيد الجانب لانتقاده فلسفة هيغل ، التي لم ير جانبها الايجابي ، ديالكتيكها ونبذها كشيء لا يصلح للاستعمال . ان محدودية فلسفة فورباخ المادية وطابعها الوحيد الجانب انما تغلب عليها مؤسسا المادية الديالكتيكية والتاريخية .



نشؤ الفلسفة الماركسية - اللينينية واهم خصائصها

ان كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) وفريدريك انجلز (١٨٢٠ - ١٨٩٥) هما اللذان نفذوا استجابة لتطلبات التاريخ العالمي الاجتماعية القائلة بوضع عقيدة ثورية علمية حقاً . فان ماركس وانجلز قد عارضوا النظم القائمة منذ اولى خطواتها في حلبة الحياة المستقلة ، وقطعوا كل صلة بتقاليد عائلتيهما البرجوازيين الدينية المحافظة . وكان اشتراكهما العملي في الحركات الثورية في الاربعينيات اهم سبب لتطور نظراتهما السياسية والفلسفية . . ومنذ بداية نشاطهما تغلبا من مواقع الديمقراطية الثورية على ليبرالية الديمقراطيين البرجوازيين الصغار (وفي ذلك الوقت كانوا يسمون في ألمانيا بالهغليين الشباب) . كان الهغليون الشباب ثوريي الجمل والتعبير ، وكانوا يعتبرون تغيرات الوعي اساساً لتغيرات الواقع . وكانت مثالياتهم التاريخية في ظروف الوضع الثوري في الاربعينات عقبة في النضال العملي ضد النظام القائم . كانت الممارسة الثورية تتطلب بقوة خاصة جواباً نظرياً عن المسائل المتعلقة بكنة الانسان على العموم وبكنة الانسان في المجتمع البرجوازي على الخصوص ، وبمكانة ودوره في العملية التاريخية . وقد تطلب اعداد الجواب عن هذه المسائل من ماركس وانجلز اعادة النظر بعين نقدية الى المثالية والميتافيزياء السائدتين في النظرات الى المجتمع والانسان ووعيه ، والتغلب عليهما ، ولهذا يشكل وضع الديالكتيك المادي والفهم المادي للتاريخ اهم مضمون في مؤلفات ماركس وانجلز الاولى . ففي كتاب « العائلة المقدسة » (عام ١٨٤٥) ، انتقدا بالتفصيل طوبوية الهغليين الشباب ومحافظتهم ومثالياتهم التاريخية ، وكشفا جذور المثالية ، واعطيا تقييماً موجزاً لمختلف النظم المثالية والمادية والصراع فيما بينها في تاريخ الفلسفة . وفي الوقت احتوى هذا الكتاب استنتاجاً مادياً عن دور الجماهير الشعبية الحاسم في التاريخ ، ويوصفها المنتجة المباشرة للخيرات المادية . وفي كتاب « الايديولوجية الألمانية » (١٨٤٥ - ١٨٤٦) كشفوا الاسس المادية العلمية التاريخية ، ونشؤ وتطور مختلف اشكال الايديولوجية . ان تكوين الاسس المبدئية للعقيدة الجديدة ينتهي بتأليف « بيان الحزب الشيوعي » (١٨٤٨) الذي يعرض في وحدة لا انفصام لعراها الاقسام المكونة الثلاثة للماركسية : الفلسفة الألمانية

الديالكتيكية والتاريخية) ، والاقتصاد السياسي ، ونظرية الشيوعية العلمية . ان الاقسام المكونة الرئيسية للعقيدة الثورية الماركسية لم تكن البتة مواصلة للأفكار الفلسفية والاقتصادية والاشتراكية السابقة . وقد اشار لينين في مؤلفه « مصادر الماركسية الثلاثة واقسامها المكونة الثلاثة » الى الفرق الجذري بين مذهب ماركس ونظرات الاقتصاديين البرجوازيين والاشتراكيين البارزين في تلك الزمن فان الاقتصاديين البرجوازيين بذلوا جهدهم لكي يفسروا طبيعة العمل والطبقات الاجتماعية ، ولكنهم لم يمكنوا من تبيان شرطية وجودها الاقتصادية الفعلية ، وآفاق النضال الطبقي ومكانه في التاريخ . واحتج الاشتراكيون عن حق وصواب على المظالم الاجتماعية ، وانتقدوا الرأسمالية انتقاداً حاداً ، وتقدموا بمشاريع مجتمع اشتراكي عادل . ولكن مشاريعهم الاشتراكية بقيت طوبويات اجتماعية ، احلاماً مثالية ، لانها كانت منفصلة عن الضرورة الاقتصادية وعن نضال البروليتاريا الطبقي .

خلافاً لوجود المصادر النظرية منعزلة بعضها عن بعض ، تقوم الاقسام المكونة للماركسية في وحدة لا انفصام لعراها ، وتشكل المعتقدات والمثل الاشتراكية والنشاط الثوري التحويلي . ان الصلة المتبادلة والوحدة الداخلية العميقة بين الاقسام المكونة الرئيسية للعقيدة الثورية الماركسية تشرطها اهم خصائص اساسها الفلسفي النظري .

وحدة المادية والديالكتيك : ان التفاعل المتبادل والوحدة التي لا تنفصم عراها بين النظرات المادية والنظرات الديالكتيكية هما من اهم خصائص مذهب ماركس الفلسفي . ان المادية الفلسفية المنسجمة ، المتناسكة ، والاعتراف باولية المادة وبالشرطية المادية لجميع الظواهر الموجودة ، ينطويان ختماً على النظرة الديالكتيكية الى الصلة المتبادلة بينها ، والي التغير والتطور . وان الديالكتيك الماركسي بوصفه علماً فلسفياً ينطلق من الاعتراف بوحدة العالم المادية ، وبموضوعية اشكال الوجود وخصائص المادة وقوانين حركتها وتطورها . ثم ان الاعتراف بالتطور الديالكتيكي الموضوعي للعالم المادي والمعرفة والتفكير ، بهذا التطور المستقل عن ارادة الناس ووعيمهم يشترط في الوقت نفسه انسجامية وعلمية مادية ماركس الفلسفية .

ان ظهور المادية الديالكتيكية كان بمثابة انتصار مفعم بروح النقد على المحدودية الميتافيزيائية التي كانت تلازم المذاهب المادية الماضية والديالكتيك المثالي . ثم ان الوحدة التي لا تنفصم عراها بين المادية والديالكتيك تشكل كذلك احد التناقضات الجذرية بين الفلسفة الماركسية - اللينينية والفلسفة البرجوازية المعاصرة . وتحتوي المطبوعات الفلسفية غير الماركسية كثرة من الاشكال لتفسير الديالكتيك . وبينها يغدو الانكار السافر للديالكتيك على العموم ظاهرة نادرة . والاعتراف او شبه الاعتراف بالديالكتيك قولاً وتشويه فعلاً بمختلف الاساليب هما اوسع انتشاراً في ايماننا . وفي هذا المجال ، كانت تعاريف الديالكتيك في الموسوعات والقواميس الفلسفية الواسعة الانتشار في العالم غير الاشتراكي هي الابرز . فان هذه المطبوعات تفسر الديالكتيك على العموم بأنه « فن المحاكمة » ، « علم المنطق » ، « علم يدرس المحاكمات وقوانينها ، وما الى ذلك (١) »

ان بطلان هذه التعاريف يتلخص في الانكار الاعتباضي لديالكتيك العالم الموضوعي وفي اصفاء صفة الاطلاق على منطق التفكير . ان التفسير المثالي للديالكتيك لا يؤثر في مضمونه وحسب ، بل ايضاً في طرائق تدريس مناهج الفلسفة في البلدان غير الاشتراكية . وماله دلالة ان مناهج الفلسفة تقسم اعتباراً الى تعاليم معزولة بعضها عن بعض عن قضايا الوجود وقوانينه (الاونتولوجيا - علم الوجود) وعن قضايا المعرفة « العرفانية » ، وعن قوانين واشكال التفكير (المنطق ، والمنطق الشكلي بصورة رئيسية) . وتعتبر التعاليم عن القيم (الاكسولوجيا - علم القيم - ويشمل الاخلاق والدين وعلم الجمال) منهاجاً خاصاً مستقلاً ، الامر الذي ينعكس في الوسائل التعليمية الفلسفية الصادرة في بلدان العالم غير الاشتراكي .

ان اغلبية التفسيرات المثالية المعاصرة للديالكتيك موجهة بنحو آخر ضد المادية الديالكتيكية . وظهور كثرة من هذه المفاهيم التي لا يشاطرها احياناً غير احلقة من مؤيدي هذا المؤلف او ذاك ، يبين بطلانها العلمي وعقمها . ان

(١) راجعوا ، مثلاً ، الموسوعة العالمية « نوكوس » ، برشلونة . عام ١٩٦٥ . المجلد ٢ ، ص ٢٢٠٤ .

القاموس الموسوعي « يليه » . باريس . عام ١٩٦٩ ، المجلد ٣ ، ص ١٨٢١ وغيرها .

اغلبية هؤلاء المؤلفين ، اذ ينكرون الديالكتيك المستقل عن الوجود البشري ، يحصرونه في التجربة الفكرية والثورية - في الصلة المتبادلة العقلانية او النفسانية بين المعرفة والفعل . ذلك هو المعنى المثالي لما يسمى « بالديالكتيك التاريخي » للوجودي الفرنسي الشهير جان بول سارتر ، و« الديالكتيك الذاتي الوسطي » لموريس مرلو بوني ، و« الديالكتيك ما فوق التجريبي » لجورج غورفيتش ، و« الديالكتيك الفاجع » لفال وايبوليت .

وفضلاً عن التفسيرات المثالية الذاتية للديالكتيك ، نجد كذلك في المطبوعات البرجوازية المعاصرة مفاهيم مثالية موضوعية . فان الفلاسفة الكلاسيكيين المعاصرين ، ومنهم ، مثلاً التومسي (نسبة الى القدس توما الاكويني) الجديد الفرنسي اندري ماركس ، ينشرون مفهوم « الديالكتيك الانتولوجي » (« الامتولوجيا - علم الكائنات وحقيقتها ») . ان مغزى هذا المفهوم يتلخص في كون جميع علاقات وتغيرات الوجود والانسان (اللذين هما من منح الرب ، بالطبع) تخضع لقانون التناسق وتسلسل المقامات ، ولهذا لا يمكن تركيبها الا في الرب . وفضلاً عن عرض مفاهيم المثالية عن الديالكتيك ، يلجأون كذلك في الصراع الايديولوجي الى تزييف المادية الديالكتيكية على المكشوف ، ولا سيما الى تشبيهها كلياً بالهغلية واعتبارها شيئاً واحداً . ولكن ماركس وانجلس ، خلافاً لهيغل ، قد استخلصا المفاهيم والقوانين الديالكتيكية ، لا من المجال المجرد ، المثالي ، بل من تحليل ظاهرات وعمليات العالم المادي . وقد صاغوا الديالكتيك المادي ، بتعميم تاريخ تطور النشاط العملي البشري والمعرفة العلمية . ثم اكد لينين ان ماركس وانجلس قد قاما بخطوة عبقرية الى الامام في تاريخ الفكر الثوري ، قوامها تطبيق الديالكتيك المادي على الاقتصاد السياسي والتاريخ والعلوم الطبيعية والفلسفة ، وعلى سياسة وستراتيجية الطبقة العاملة .

ويتحليل الواقع تحليلاً عميقاً ، يبين الديالكتيك الماركسي الطابع العابر ، الزائل لكل ما هو موجود ، بما في ذلك اشكال الحياة . وقد كتب ماركس يقول ، : « ان الديالكتيك لا يثير ، بصورته العقلانية ، في البرجوازية ومذهبيها - الايديولوجيين غير الحق والرعب ، لانه ينطوي في الوقت نفسه ، بوصفه فهماً ايجابياً عما هو موجود ، على فهم افكاره ، على فهم هلاكه المحتوم .. وهولا

ينحني امام اي شيء ، وهو من حيث جوهره بالذات نقلي: وثوري (١). وبالديالكتيك المادي الذي يشكل روح الماركسية الثوري ، ترتبط الفلسفة الماركسية - اللينينية مع خصائصها الهامة .

التشاطر المتبادل بين المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية : ان شمول مبادئ المادية الديالكتيكية للعمليات الاجتماعية التاريخية هو خاصة عامة اخرى تميز الفلسفة الماركسية - اللينينية بصورة جذرية عن الانظمة الفلسفية السابقة والحالية . وان اكتشاف الفهم المادي للتاريخ يشكل ، مع غرض سر القيمة الزائدة في ظل الرأسمالية ، ماثرة ماركس العلمية العظيمة . فللمرة الاولى في تاريخ التفكير النظري ، جرى تفسير الحياة الاجتماعية وكل تاريخ البشرية باسباب وعلاقات مادية بيعية . ان حاجات الناس المادية وظروفهم المادية هي التي تحدد وعيهم واتجاه تشابه . وعلى نقض المثالية التاريخية السائدة من قبل ، اقامت مادية ماركس التاريخية للمرة الاولى علم الاجتماع (السوسيولوجيا) على اساس علمي .

ان اهمية المادية التاريخية لاجل معرفة المجتمع معرفة علمية ونحوه ثوري تتسم بدرجة من العظمة بحيث ان موضوعاتها الاساسية وكذلك مكانتها ودورها هي موضع صراع ايديولوجي حاد . ان اعتبار المادية التاريخية وما يسمى « المادة الاقتصادية » شيئاً واحداً هو اقدم الاختلافات المعادية للماركسية واوسعها انتشاراً . ولكن حصر الظواهر الاجتماعية ولا سيما الحياة الروحية بصورة مبتذلة في الانتاج مباشرة ، في الاقتصاد مباشرة ، انما انتقده ماركس وانجلس ولينين على الدوام بلا رحمة ولا هوادة . وهناك ضرب آخر من الاخطاء في تفسير مكان ودور المادية التاريخية في الفلسفة الماركسية - اللينينية . اولاً ، لا يجوز تصوير نشوء وتكون الفلسفة الماركسية على ان المادة الديالكتيكية قد انشئت في البدء ، ثم جرى تطبيقها على التاريخ الاجتماعي . اما في الواقع ، كما سبق وقلنا ، فان نظرات ماركس وانجلس الفلسفية قد تكونت بتأثير الممارسة الثورية المباشرة ، ولهذا جاء في المرتبة الاولى

(١) كارل ماركس . مقدمة الطبعة الثانية لكتاب « رأس المال » . كارل ماركس وفريدريك انجلس . المؤلفات . الطبعة الروسية . المجلد ٢٣ . ص ٢٢ .

قضايا التطور الاجتماعي ومكان الانسان ودوره فيه . ولهذا صاغ ماركس وانجلس الموضوعات الاساسية في المادية الفلسفية والديالكتيك المادي والفهم المادي للتاريخ على صلة مترابطة بعضها ببعض بصورة لا انفصام لعراسها . وهناك خطأ آخر احدث عهداً تجلّى في المزاغم بشأن « عدم ضرورة » المادية التاريخية نظراً لتطور العلوم الطبيعية الجبار ، ولا سيما منها علم الاجتماع (السوسيولوجيا) الملموس . فان هذا التفسير يحصر الفلسفة الماركسية - اللينينية في المادية الديالكتيكية ، ويضع شتى ضروب النظريات السوسيولوجية مكان المادية التاريخية . ومن الواضح ان هذا البتر لا ينكر دور المادية التاريخية المنهجي لجميع العلوم الاجتماعية وحسب ، بل يؤدي كذلك الى تسويه الخصائص الاخرى للفلسفة الماركسية - اللينينية والى تشويه موضوعها ووظائفها .

وحدة النظرية الفلسفية والممارسة الثورية : ومن اهم خصائص الفلسفة الماركسية - اللينينية ، خاصة اخرى تميزها بصورة جوهرية عن سائر الانظمة الفلسفية ، هي وحدتها المبدئية مع نشاط الناس الثوري . فان المثالية التاريخية التي كانت سائدة عند الماديين السابقين لماركس قد اشترطت تأملية الفلسفة السابقة ، اشترطت القطيعة بين تفسير العالم وتغييره . وبما اسهم في ذلك ، الفهم الضيق للممارسة للنشاط العلمي الذي اقتصر على التجربة الشخصية ، على الاختبار العلمي . ان التأملية والفهم الضيق للنشاط العلمي لم يلاحظهما ماركس (في « موضوعات عن فوريباخ » ، مثلاً) وحسب ، بل تم التغلب عليهما عن طريق النظرية الديالكتيكية المادية بشأن نشاط الناس المادي التحويلي . وقد كان ماركس اول من ادخل مفهوم النشاط العملي الاجتماعي التاريخي بوصفه يجعل نشاط اناس يخضعون للطبيعة ويحولونها ، ويخلقون الثقافة المادية والروحية ، ويغيرون وجودهم الاجتماعي وانفسهم بالذات . وليست الاختلاقات النظرية المجردة ، ولا حركة التفكير ، بل نشاط الناس الثوري التحويلي مع ما يلازمهم من وعي هو الذي اصبح مركز فلسفة ماركس ، ومهمتها الكبرى ، فضلاً عن تفسير العالم تفسيراً علمياً ، تقوم في تحليل السبل لتحويل العلاقات الاجتماعية تحويلاً علمياً ، وللقضاء على اللامساواة الاجتماعية وعلى الاستعباد الاجتماعي .

وان ماركس ، الذي اكد الوحدة التي لا تنقسم عراها بين فلسفته وبين النشاط العملي الثوري (الممارسة الثورية) ، قد سمى الشيوعيين ، حتى في اولى مؤلفاته ، بالماديين العمليين . وغير مرة اشارت وثائق المؤتمرات العالمية للحزب الشيوعية والعمالية الى طابع الفلسفة الماركسية - اللينينية الفعال والهادف والى تقليدها العلمي لستراتيجية الشيوعيين وتكتيكهم . فاذا لم ينطلق الشيوعيون في نشاطهم من الديالكتيك والمادية ، فقد يؤدي ذلك الى نشوء الذاتية ووحدة الجانب ، الى الانفصال عن الواقع ، عن الممارسة ، الى فقدان القدرة على تحليل العمليات الاجتماعية تحليلاً شاملاً وعميقاً ، الى انحرافات تجريدية وعقائدية جامدة ، الى اخطاء في السياسة . وفي الوقت نفسه ، قد تتحول الفلسفة ذاتها ، اذا لم تكن على صلة بالممارسة الثورية والسياسة الثورية ، اذا لم تكن بينها وبين نشاط الناس الاجتماعي التحويلي صلة وثيقة للغاية ، الى تجريد مكتبي لا حياة فيه .

ان الصلة الوثيقة التي لا انفصام لعراها بين الفلسفة والممارسة الثورية لا تضيف على الفلسفة ابعاداً فعالاً وهدافاً وحسب ، بل تضيف عليها كذلك ايضاً خلافاً . وهذه الخاصة الهامة تنبع من جوهر الفلسفة الماركسية - اللينينية ، الدعوة الى تعميم الهم من بين احدث معطيات المعرفة الاجتماعية والعلوم الطبيعية ومعطيات النشاط العملي الاجتماعي التاريخي . وهذا العامل يشترط تطور الفلسفة الماركسية - اللينينية بلا انقطاع ، وتعميق وتوسيع مضمونها وقوانينها ومقولاتها التاريخية ، لينموس . ان نشاط الطبقة العاملة الثوري التحويلي هوينوع هام لتطوير جميع موضوعات المذهب الفلسفي تطوراً خلاقاً ولصياغتها صياغة ملموسة واضحة .

ان نشاط لينين في الحقل النظري ، وكذلك الموضوعات النظرية الجديدة المصاغة في وثائق الاحزاب الشيوعية والعمالية الشقيقة وفي وثائق مؤتمراتها العالمية هي مثال على تطوير المادية الديالكتيكية والتاريخية تطوراً خلاقاً . ان المرحلة اللينينية في تطوير الفلسفة الماركسية قد بدأت تخوم في القرنين التاسع عشر والعشرين . ان دفاع لينين عن المادية الفلسفية والديالكتيك المادي والفهم المادي للتاريخ ، وتعليقه لها وتطويره لها ، هي لعل على درجة من . الأهمية والشمول . وبحيث انها تتجلى عن كامل الحق والجواب في مفهوم الفلسفة الماركسية - اللينينية . وللمناسبة نلاحظ ان قضية المرحلة اللينينية في تطوير فلسفة الماركسية في موضع شتى اصناف الاختلافات

والتشوهات الانتهازية والمعادية للشيوعية : ان بطلان هذه التزييفات يشتهما بأعم لكل عاملان : اولاً ، ان نشوء المرحلة اللينينية في الفلسفة الماركسية كانت له سبابه الموضوعية ، ومجموعته من المقدمات الاجتماعية الاقتصادية والمقدمات النظرية الفلسفية والمقدمات من العلوم الطبيعية ، التي سنعرفها فيما بعد . ثانياً ، تتلخص موضوعة المزيفين الرئيسية في زعم ان اللينينية قد « شاخت » ، وانها انتهت بوفاة لينين . ان هذه الموضوعة باطلة لانها تحصر مرحلة في تطور التفكير النظري في تواريخ حياة ووفاة المفكر نفسه . ولكن ليست المواعيد التاريخية المتسلسلة هي التي تشكل المعيار العملي لتقسيم مراحل نشوء الفلسفة الماركسية - اللينينية وصيرورتها وتطورها ، بل ان جهوداً تاريخية معينة تنعكس قوانينها الموضوعية في التفكير النظري هي التي تشكل هذا المعيار . وبديهي انه يجب ان يؤخذ بالحسبان في هذه الحال استقلال الفلسفة النسبي ، والمنطق الداخلي لتطورها الذاتي .

ومن وجهة النظر هذه ، تتطابق مرحلة نشوء نظرات ماركس وانجلس الفلسفية ، من حيث الاساس ، مع انتهاء عهد البرجوازية الصاعدة التاريخي في التاريخ العالمي ، ويتطابق وضع وتعميق الاقسام المكونة للماركسية مع عهد الطغمة المالية ومع الانتقال الى المرحلة الاحتكارية من تطور الرأسمالية . اما فيما يخص المرحلة اللينينية في الفلسفة الماركسية ، فانها تفصح عن القوانين والميول الاساسية للعمليات التاريخية ولنضال البروليتاريا الطبقي . في عهدين تاريخيين - في عهد الامبريالية وفي العهد التاريخي المعاصر . ومن هنا ينجم عن اللينينية على العموم ، والمرحلة اللينينية في الفلسفة على الخصوص ، هما تطوير خلاق للماركسية في الظروف التاريخية المعاصرة .

الحزبية الشيوعية والموضوعية العلمية للفلسفة الماركسية - اللينينية :

ان طابع الفلسفة الماركسية - اللينينية الفعال والخلاق والثوري النقادي يتجلى في حزبيتها الشيوعية وموضوعيتها العلمية . فان الفهم المادي الديالكتيكي للعمليات الاجتماعية قد اتاح استيضاح قوانينها وميولها كما اتاح استيضاح تلك القوة الاجتماعية المدعوة الى تحرير المجتمع من العبودية والاستثمار . ان الطبقة العاملة ، بفضل مكانها الموضوعي في انتاج الخيرات المادية ، لا تبرز بوصفها القوة المنتجة الرئيسية

وحسب . فان حاجاتها والمصالح الطبقية تتطابق كذلك مع ضرورة التطور التقدمي الاقتصادي وتزداد تطابقاً بقدر ما يكتسب الانتاج طابعاً اجتماعياً . ومن هنا تنبع مصلحة الطبقة العاملة على الدوام في التقدم الاقتصادي والاجتماعي وينبع تحولها الى القوة الاجتماعية الرئيسية القادرة على تحويل المجتمع . ولهذا كان من الطبيعي ان يكون مؤسس الماركسية قد وضعاً مذهبها مباشرة في خدمة الطبقة العاملة واخذاً قصداً وعمداً وعلى المكشوف جانب الدفاع عن مصالحها ، وان يكونا قد اصبحا ، لا نظريي الحركة البروليتارية وحسب ، بل أيضاً من مناضليها العاملين . ان الماركسية ، بقضائها على الروح الارستقراطية للفلسفة السابقة التي لم تكن ، على العموم ، الا في منال النخبة المختارة والمتعلمين ، قد برزت للمرة الاولى في التاريخ بوصفها فلسفة الجماهير الكادحة . « وبما ان الفلسفة تجرد في البروليتاريا سلاحها المادي ، كذلك تجرد البروليتاريا في الفلسفة سلاحها الروحي » . (*) .

ان العملية المنسجمة ، والاعتماد الدائب على منجزات العلم وعلى الدراسات والبحوث ، والتحليل ، والتنبؤ العلمي والتعليل العلمي لستراتيجيات وتكتيك النضال الطبقي - ان كل هذا لا يتناقض مع مبدأ الحزبية الكفاحية . ان حزبية الفلسفة الماركسية - اللينينية والفلسفة على العموم ليست غير تعبيراً مكثفاً عن وظيفتها الايديولوجية . وهي كذلك بالنسبة للفلسفة الماركسية - اللينينية بوصفها الاساس النظري للعقيدة الاشتراكية للطبقة العاملة ، ولهذا ليس عبثاً يتعرض تطابق الحزبية والعلمية في العقيدة الماركسية - اللينينية للبروليتاريا لمثل هذه الحملات الضارية من الانتهازيين ومن اعداء الشيوعية . فهم يحاولون ان يعارضوا هذين الجانبين احدهما عن الآخر وان يفصلوا احدهما عن الآخر بشتى الذرائع .

ان مبدأ الحزبية ، مبدأ الدفاع السافر والواعي عن مصالح الطبقة العاملة ، يتعرض لأكبر الحملات من جانب الانتهازيين واعداء الشيوعية . وفي هذا المجال ، يتقدمون بموضوعة مزيفة مفادها ان الحزبية والنزعة الايديولوجية تعنيان الذاتية الطبقية والاعتباط ، ومعارضة مصالح الطبقة العاملة مصالح « الكل »

(*) كارل ماركس . « مساهمة في نقد فلسفة الحق عند هيجل » . المقدمة . ماركس وانجلز . المؤلفات . الطبعة الروسية . المجلد الاول ، ص ٤٢٨ .

الاجتماعي الموهومة . وهناك بين الانتهازيين واعداء الشيوعية المعاصرين من يزعمون ، على العكس ، ان ما يسمى « بالعلم الصافي » هو لا طبقي ، لا حزبي ، ولهذا فان الفلسفة الماركسية - اللينينية ، انما تدخل في تناقض مع الايديولوجية ، واما تعني خيانتها .

ان مبدأ الحزبين الذي طوره لينين بصورة خاصة يتضمن معنى فلسفياً واسعاً . فهو لا يحدد الموقع في النضال بين الحزبين ، بين الخطين في الفلسفة - المادية والمثالية - وحسب ، ففي كل علم وكل شكل للوعي الاجتماعي ، يتسم بمضمون ملموس خاص . وكل ميل وحيد الجانب نحو العملية « اللاحزبية » او كل فصل للايديولوجية ، للحزبية ، عن العلم ، يؤدي في آخر المطاف الى المثالية والميتافيزياء في العقيدة ، الى الانتهازية اليمينية او اليسارية في السياسة .

وان حدة الصراع الايديولوجي حول اهم خصائص الفلسفة الماركسية - اللينينية ، وكذلك مقتضيات النشاط العملي الثوري المتنامية تؤكد على ضرورة استيعاب النظرية الثورية المعاصرة بصورة عميقة وشاملة . وتبين التجربة انه لا يمكن ان يكون المرء ثورياً واعياً ونشطاً اذا ابدى اي ازدراء بالنظرية الثورية ، واذا ابدى اقل خمول او اقل اهمال حيال المسائل الفكرية النظرية .

ويجب ان لا تنحصر دراسة الفلسفة الماركسية - اللينينية في مجرد الاطلاع على مفاهيمها الاساسية ، على مبادئها وقوانينها النظرية الاساسية ، فان الهدف الرئيسي من هذه الدراسة هو تعلم اداء المهام التي تبرز في سياق ممارسة الاحزاب الثورية ، تعلم ادائها على اساس المبادئ الفلسفية العلمية . ان امكانية حل المسائل التي تنبثق في جميع مجالات النشاط البشري ، وحلها بمساعدة الفلسفة الماركسية - اللينينية ، انما تظهر بفضل خواص موضوع هذه الفلسفة ووظيفتها . ان القوانين العامة لحركة وتطور الطبيعة والمجتمع والمعرفة وعلاقات الوعي بالعالم الخارجي ومكان ودور الانسان فيه ، ان كل هذا هو موضوع دراسة الفلسفة الماركسية - اللينينية . ثم ان خصائص الموضوع تحدد مضمون الفلسفة الماركسية - اللينينية الجديد ومجمل وظائفها . فان الفلسفة السابقة كانت تتميز ببعض المحدودية ، والعزلة ، والتناقض الداخلي بين مختلف الوظائف في الفلسفة ذاتها . ولكن الفلسفة الماركسية - اللينينية تختلف اختلافاً جذرياً عن سائر المذاهب

الفصل الثاني

الفلسفة بامر آخر ايضاً ، هو ان وظائفها الانتولوجية (الانتولوجيا - علم الكائنات وحقيقتها) والعرفانية والعقائدية والمنهجية والاجتماعية هي في وحدة داخلية تامة . وهذه الوحدة هي التي تشترط اهم خصائص الفلسفة الماركسية - اللينينية جميعها ، وتشترط على الاخص اهميتها لا بوصفها منهجية المعرفة العلمية وحسب ، بل ايضاً بوصفها المنهجية العلمية المعاصرة للنشاط التحويلي الثوري .

* * *

مادية العالم بوصفها مبدأ التعليل العلمي للممارسة

ان الوصف الموجز المعروض في الفصل الاول عن التغيرات التاريخية في الاسس النظرية للعقيدة الثورية لا يقتصر على تصور عام عن الفوارق الجذرية بين المادية السديالكتيكية والتاريخية وبين سائر التيارات الفلسفية . بل بالعكس ، فان هذا التصور العام لا يشكل سوى مقدمة لاجل التعمق في دراسة وظائف الفلسفة الماركسية اللينينية ، واهم خصائصها ، مبادئها ، ومقولاتها وقوانينها . فلكل من مبادئ العلم الفلسفي ، خلافا لمبادئ العلوم الطبيعية والاجتماعية الخاصة ، طابع شمولي كما قيل سابقاً . ان شمولية المبادئ الفلسفية لا تفهم فقط بمعنى انها تشمل جميع ميادين النشاط . فهناك ايضاً : هو واقع ان المبادئ الفلسفية التي تعكس شيئاً مشتركاً في العالم المحيط بالانسان ، وتتطلب تطابقاً بين اهداف نشاط الناس التحويلي وبين الحركة الطبيعية للعالم الخارجي . وبهذا المعنى يقوم التعليل الفلسفي الاعمق للممارسة الثورية في مبدأ مادية العالم وقوانينه .

مفهوم المادة

ان مفهوم المادة والموقف منها يشكلان المحك والقاسم بالنسبة للتيارات

الاكتشافات الاساسية في العلوم الطبيعية على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين.

التعريف اللينيني للمادة واهميته

خلافا للتصورات السابقة، ابان مؤسسو الفلسفة الماركسية - اللينينية، في المقام الاول، مفهوم « المادية » باوسع معاني الكلمة، اي بصورة تشمل الكثرة اللامتناهية من الاشياء والظواهرات والعمليات الموجودة موضوعيا. ومن هنا ينجم ان المادة ليست هذا الشيء او ذاك، هذا الجسم الفيزيائي او ذاك، بل كل تنوع التشكلات المادية الملموسة التي تتغير وتتفاعل.

ان المفهوم المادي الدياليكتيكي للمادة قد جمع التعاليم الفلسفية عن الوجود (الانتولوجيا) والتعاليم عن المعرفة (العرفانية او المعرفية). ثم ان الضرورة التاريخية القاضية بتغيير شكل المادية العلمية الطبيعية، والحاجة في المقام الاول الى تعريف اكثر عمقا وسعة للمادة قد اشتدتا كثيرا بالارتباط مع ازمة الاسس الفلسفية للعلوم الطبيعية ومع نشوء المثالية « الفيزيائية ».

ذلك ان العوامل العلمية الجديدة (اكتشاف اشعة رنتغن، النشاط الاشعاعي وانسطار العناصر الثقيلة من طراز الاورانيوم، واكتشاف الالكترونات الداخلة في قوام الذرة، وتبعية كتلة الالكترون لسرعة حركته) قد دمرت اللوحة الفلسفية والميكانيكية والعلمية الطبيعية السابقة عن العالم. ان الفيزيائيين الذين كانوا يقضون من قبل في مواقف المادية العفوية، العلمية الطبيعية، قد خلصوا الى استنتاج فلسفي خاطيء يزعم ان « المادة قد زالت ». وبرأيهم ان مكان الاساس الاول المادي للعالم، كما كان من المعتقد سابقا، تشغله الحركة، الطاقة الصافية، لان الانسطار الاشعاعي للاورانيوم، حسب زعمهم يدل على تحول الشيء الى طاقة. ومن هنا نبع على الاثر بالطبع، استنتاج خاطيء آخر بافلاس المادية عموما.

الفلسفية العديدة، الماضية منها والمعاصرة. فان مختلف التيارات المثالية تعكس او تشوه في آخر المطاف وجود المادة. فان المثاليين الموضوعيين، مثلا، يعتبرون المادة نتيجة لتطور الفكر (افلاطون، هيغل)، او نتيجة لخلق رباني (التومية وسائر الانظمة الفلسفية الدينية). والمثاليون الآخرون، اما ينكرون صراحة وجود المادة (الفيلسوف الانجليزي بركلي)، واما يصورونها بصورة مجمل من الاحساسات البشرية (فلسفة ماخ الوضيعة).

اما الماديون السابقون لماركس، فقد كانوا يعترفون بالمادة كواقع موضوعي، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يصورونها عن خطأ بصورة اشكال او خصائص مادية ملموسة ما. كان الماديون القدماء يحصرّون المادة في اكثر الظواهرات او الاشياء انتشارا، في مجمل من « العناصر الاولى ». ومنذ زمن ديموكريّس حتى زمن فورباخ ضمنا، كان الماديون يعتبرون المادة مجعلا من دقائق لا تنقسم ولا تتغير (الذرات) وتؤلف جميع الاشياء الموجودة في العالم.

ان التصور السائد في المانية ما قبل الماركسية عن الدقائق التي لا تتغير ولا تنقسم ابدا والتي تؤلف « المادة الاولى » وتتحرك في المكان بموجب قوانين الميكانيك، كان تصورا ميتافيزيائيا وميكانيكيا. وفي اللوحة الميكانيكية عن العالم، كانت المادة (الدقائق الاولى التي لا تنقسم) تقابلها وتعارضها اشياء قادية ملموسة، هذا اولا؛ وثانيا، كانت المادة تظهر بصورة الشيء وبصورة خواص الاجسام الكبرى (عدم تغير الكتلة الميكانيكية، الوزن، الكثافة، وما الى ذلك)؛ ثالثا، كان ابدية المادة وعدم خلقها ينجمان بطريقة ميتافيزيائية من عدم التغير الموهوم للدقائق الاولى المادية الذرات، وعليه كان « التصور عن عدم تغير الطبيعة المطلق »، على حد قول انجلس، مركز لوحة العالم التي رسمها الفلاسفة الماديون علماء الطبيعة في ذلك الزمن. الا ان اللوحة الميتافيزيائية والميكانيكية عن العالم قد دمرها، من الناحية النظرية، وضع المفهوم المادي الدياليكتيكي للمادة، ودمرتها، من الناحية العملية،

وقد ابان لينين بصورة باهرة في مؤلفه « المادية ومذهب النقد التجريبي » البطلان العلمي للمثالية « الفيزيائية » التي رأت النور بالارتباط مع فلسفة مذهب النقد التجريبي ومع التحريفية الفلسفية في صفوف الماركسيين. فان لينين، بدفاعه في كتابه هذا عن الموضوعات الاساسية للمادية الديالكتيكية والتاريخية، وبتطويره اياها، لم يكشف الصلة المتبادلة بين الفلسفة والعلوم الطبيعية في القرن العشرين وآفاقها وحسب، بل كشف كذلك الاهمية المتعاظمة للأسس النظرية للعقيدة الثورية.

وكما تنبأ لينين، لا يمكن التغلب على المثالية « الفيزيائية » والازمة في تطور العلوم الطبيعية الا بفضل المفهوم المادي الديالكتيكي عن العالم، الذي يشكل المفهوم الماركسي عن المادة نقطة انطلاقه. وبالفعل كشف العلم وسوف يكشف خواص العالم المادي واشكاله وقوانينه غير المعروفة سابقا، ولكن التي لا تبرر ابدا الاستنتاج الخاطئ القائل « بزوال المادة ». وبرأي لينين ان هذا الاستنتاج لا يعني غير زوال الحد التاريخي لمعارفنا الذي سيمضي دائما الى اعظم فأعمق مغيرا تصوراتنا عن بعض خواص المادة التي كانت تبدو من قبل مغلقة، ثابتة غير متغيرة، ولكنها في الواقع ملازمة فقط لبعض حالات المادة او لبعض التشكلات المادية. وليس بمقدور اي معطيات علمية عديدة ان تدحض المادية الديالكتيكية لان « الخاصة » الوحيدة للمادة التي تربط المادية الفلسفية بالاعتراف بها هي خاصة كونها دافعا موضوعيا، خاصة وجودها خارج وعينا^(١) وهذا الفهم الفلسفي للمادة لا يمكنه ان يشيخ، بل بالعكس، يؤكد صحته على الدوام تزايد عمق المعارف العلمية عن مختلف انواع وخواص المادة، عن هذه او تلك من الاجسام الفيزيائية الملموسة، عن هذه او تلك من بنيات التشكلات المادية.

(١) لينين. المادية والمذهب النقدي التجريبي. المؤلفات. الطبعة الرابعة. المجلد ١٤.

وفضلا عن ذلك، اكدت العلوم الطبيعية في القرن العشرين نبوة لينين الفلسفية بصدد استحالة نضوب المادة عمقا، بصدد استحالة نضوب الالكترون. فان لانهاية المادة واستحالة نضوب اشكالها تؤكدان الفيزياء المعاصرة باكتشاف واستخدام عدد متزايد ابدًا من الدقائق الأولية. (والاصح القول - الاساسية) للمادة، ومن حالاتها وتفاعلاتها المتبادلة، وتحولات بعضها الى بعض، فيكتشف بالتالي الديالكتيك الموضوعي للعالم الصغير، هذا الديالكتيك المتميز بوحدة الخواص الجسيمية والموجية. فقد تبين، مثلا، ان الخواص الجسيمية تهيمن في بعض حالات ونماذج التفاعلات المتبادلة في التشكلات المادية الأولية، بينما تهيمن الخواص الموجية في بعضها الآخر. ان دراسة فيزياء العالم المتغير على الارض تساعد كذلك في توضيح طبيعة المواضيع الكونية التي لا تزال صعبة البلوغ (الكواكب، النجوم، المجرات). وفي المستوى الراهن من المعارف، تميز العلوم الطبيعية ثلاثة انواع من المادة: الجسيمات، (دقائق المادة)، مضادات الدقائق (ولها خواص تضاد خواص الدقائق الارضية الطبيعية)، ومختلف الحقول الفيزيائية (الذرة، الكهرمغناطيس، الجاذبي، الخ).

ان تطورات العلوم الطبيعية المعاصرة عن انواع وخواص المادة تؤكد بشكل مقنع صحة التعريف الذي اعطاه لينين عن المادة: « المادة مقولة فلسفية لاجل تعيين واقع موضوعي يعطي للانسان في احساساته، وتستنسخه احساساتنا وتصوره وتعكسه، مع وجوده بصورة مستقلة عنها »^(١). ان هذا التعريف يربط بصورة لا انفصام لعراها، اولا، مكان المادة بوصفها جوهر (جذر) العالم الخارجي بالنسبة للانسان، وثانيا العلاقة بين المادة وادراك الناس. ان المادة بوصفها جوهرًا (جذرا) تفهم بمعنى انها بالنسبة لجميع الاشكال المادية المتنوعة وحدتها العامة، المشتركة؛ والمادة هي في الوقت نفسه

(١) المرجع ذاته. ص ١١٧.

حاملة الخواص الملموسة والعلاقات المادية، هي أساسها. مثلاً، التركيبات الكيميائية المعقدة - الحوامض النوكلينية - الموجودة في الخلية الحية هي الحامل المادي لخواص الوراثة في العضويات الحية. أما في الحياة الاجتماعية، فإن الناس، الفئات (أو الشرائح) الاجتماعية، الطبقات، هي الحاملات الماديات لهذه أو تلك من المظاهر الاجتماعية (مثلاً، أصناف الإنتاج الاقتصادي). وعليه كانت المادة ذلك الأمر المشترك الذي يشكل أساساً ووحدة جميع الأجسام والمظاهر والعلاقات والعمليات الموجودة بصورة مستقلة عن الإدراك البشري.

إن مفهوم الواقع الموضوعي في التعريف اللينيني للمادة يشمل جميع أشكال وجود المادة وجميع خواصها، والعلاقات والعمليات المادية، وهو يستعمل في المقام الأول بالمعنى العرفاني. وهنا يشار إلى أولية المادة واستقلالها عن الإدراك، وقدرتها على التأثير في أعضاء الحواس وعلى الانعكاس في احساسات الإنسان. إن هذا التعريف يناهض المثالية الذاتية والموضوعية التي تشوه دور الاحساسات البشرية ومضمونها الفعلي، تشوه العالم الذاتي، الروحي ومضمونه الفعلي. وفضلاً عن ذلك يناهض هذا التعريف، بأفصاحه عن فكرة القدرة على معرفة المادة، أي من أنواع العجزية (اللادرية - التيارات الفلسفية التي تنكر أو تقلص امكانيات المعرفة البشرية).

إنجازاً لما قلناه، تجدر الإشارة إلى الأهمية الهائلة التي يتسم بها المفهوم المادي الديالكتيكي عن العالم لأجل تطوير التفكير النظري ولأجل نشاط الناس التحويلي الثوري أولاً، إن هذا المفهوم قد طهر المادية الفلسفية من الميكانيكية الميتافيزيقية، وأضفى عليها شكلاً عصرياً مناسباً للمستوى الذي بلغته المعرفة العلمية والممارسة الاجتماعية التاريخية. ثانياً، أسهم في تذليل المثالية «الفيزيائية»، وفي خروج العلوم من الأزمة العقائدية والمنهجية، وفي توطيد الاتحاد بين الفلسفة والعلم، وكشف اتجاه البحوث وآفاق تعميق المعرفة العلمية، ثالثاً، إن ما هو هام وبخاصة، هو أن المفهوم المادي الديالكتيكي عن

العالم قد أتاح كشف مادية أشكال الحياة الاجتماعية ونشاط الناس، كشف الأساس المادية لأدراكهم.

إن تعبير «المادي» لا يطبق على العالم الطبيعي الخارجي بكتليته وحسب، بل يطبق أيضاً على الأجسام المادية الملموسة، وخواصها وعملياتها التي توجد خارج إدراك الناس وبصورة مستقلة عنه. وبهذا المعنى على وجه الضبط، يمكن التحدث عن مادية تلك المظاهر والعلاقات والعمليات الاجتماعية التي تتكون وتوجد بصورة مستقلة عن إدراك الناس. إن شبه وفرق المادي في الطبيعة والمجتمع قد خلقا امكانية إعطاء تفسير علمي عن حاجات الناس وأهدافهم ونتائج نشاطهم الواعي. وهذا التفسير يصاغ بقدر دراسة أعم خواص وأشكال وجود المادة، والقوانين الموضوعية لحركتها.

الخواص والأشكال العام لوجود المادة

إن المادة، - علاوة على خاصيتها الشمولية بأن تكون واقعا نشيطا بالنسبة للإدراك - تملك جملة من الخواص الجذرية الأخرى. الملازمة لجميع الأشياء والمظاهر المادية. وبينها تجدر الإشارة، في المقام الأول، إلى خواص وأشكال لوجود المادة يستحيل، بدون تصورها الابتدائي، الأولى، الفهم العلمي والتعليل العلمي للنشاط التحويلي الثوري، أي على وجه الضبط، فهم الصلة والعلاقة والحركة والتطور، والقانون الموضوعي والضرورة.

الصلة المتبادلة بوصفها شكل الوجود. بين جميع الأشياء والمظاهر الموجودة أو بين جوانبها الداخلية، توجد دائماً هذه العلاقات أو تلك. إن مفهوم العلاقة يطبق في المعرفة وفي الممارسة، أما لأجل تعريف تفرد، انفراد، عزلة هذه المظاهر أو تلك، وأما لأجل تعريف درجة الصلة فيما بينها. فإن العالم المادي اللامتناهي يتألف من كثرة لا متناهية من تشكيلات وأجسام وعمليات مادية نهائية هي، مع وجودها كفلاديات، على هذه العلاقة أو تلك من الأجسام

والعمليات الأخرى. وفي العلاقات بين الأشياء يتكشف، يتجلى أساسها السدأخل العميق (الكون، الطبيعة)، وصفاتها وخواصها الملموسة كذلك تفهم بالصلة علاقة يتوقف تغير أحد الأشياء أو تغير جوانبه على تغيرات الأشياء الأخرى. وقد لاحظ أنجلز في مؤلفه «ديالكتيك الطبيعة» أن الصلة المتبادلة بين مختلف حركات مختلف الأجسام هي أول ما تقع عليه العين عند النظر إلى المادة المتحركة. أن الوحدة المادية لجميع الأشياء والعمليات الموجودة بوصفها حلقات وأشكال وخواص مادة واحدة هي أساس الصلة المتبادلة. وبهذا المعنى كانت الصلة المتبادلة الشكل العام لوجود المادة المتحركة.

أن مفهوم الصلة المتبادلة الموضوعية قد تكون تاريخيا بوصفه واحدا من أوسع تعميمات نتائج المعرفة العلمية والممارسة الاجتماعية. وفيه يتكشف النشاط الداخلي الملازم للمادة، وقدرة التشكلات المادية وأقسامها المكونة على التفاعل فيما بينها، الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى أحداث تغيرات فيها. وفي الطبيعة تتحقق الصلة المتبادلة بالتفاعل بين الأجسام الفيزيائية (الطبيعية)، بالتطور من المادة غير العضوية إلى المادة العضوية، بنشوء العضويات الحية، بالتفاعل فيما بينها وبالتفاعل بينها وبين أجسام الطبيعة الحية، بتغيرات العضويات الحية تبعا لبيئة أقامتها. وفي الحياة الاجتماعية، تتجلى الصلة المتبادلة الموضوعية قبل كل شيء في تعاقب تطور الإنتاج الفعلي. وهي تتجلى كذلك في كون جميع جوانب حياة المجتمع، بوصفه عضوية اجتماعية معقدة واحدة، تتفاعل فيما بينها. مثلا، توجد صلات وعلاقات متنوعة العمليات الاقتصادية والسياسية، بين الظواهر السياسية والأيديولوجية، بين ثقافة المجتمع المادية وثقافته الروحية، بين مختلف أشكال الأيديولوجية، والنخ.

في سياق التطور التاريخي، تتكون صلات وعلاقات اجتماعية جديدة. ففي عصرنا، مثلا، انبثقت أشكال جديدة للصلة كالعلاقة بين النظام الاشتراكي العالمي والنظام الرأسمالي العالمي، وكالعلاقات في داخل النظام الاشتراكي

العالمي والعلاقات مع البلدان الجديدة التي ظفرت باستقلالها السياسي بنتيجة انهيار نظام الامبريالية الاستعماري.

أن الصلة المتبادلة الموضوعية لا توجد في الطبيعة والمجتمع وحسب، بل توجد أيضا في التفكير. وبما أن احساسات الناس ومفاهيمهم، مثلها مثلا الأشياء والظواهر التي هي انعكاس لها، توجد على صلة متبادلة، فلا يمكن ولا يجوز أخذ بعضها بمعزل عن بعض. أن الديالكتيك، كما أشار أنجلز في مؤلفه «ضد دوهرينغ» يأخذ الأشياء وانعكاسها الفكري في صلتها المتبادلة، في تشابكها، في حركتها، في نشوئها وزوالها. وفضلا عن ذلك، يجب أن تتطابق المفاهيم العلمية والسياسية والنظرية مع الظواهر الفعلية ومع العمليات الاجتماعية الفعلية، وأن تعكس مضمونها الموضوعي، ومن جهة أخرى، يتطلب تغير الأشياء والظواهر وعلاقاتها تغير وتدقيق مضمون المفاهيم.

خلافا للمفهوم العلمي، المادي، عن الصلة المتبادلة في العالم المحيط بنا، تعتبر المثالية والدين الصلة بين الأشياء والظواهر تعبيرا عن علاقتها العامة مع قوة مثالية، مع العالم الآخر، مع الفكر العالمي، مع العقل العالمي، مع الرب. هكذا بالضبط يفهم الفلاسفة الكاثوليك الصلة المتبادلة، ويرون أساسها في «العقل الرباني العالمي» الواحد الذي يفرض، حسب زعمهم، «التناسق العام». أن هذا الضرب من التصورات المثالية الدينية، القديمة والعصرية، تشوه المفهوم العملي عن الصلة المتبادلة بوصفها الشكل العام للوجود.

وبفضل التحليل العلمي، يمكن أن تنقسم الصلات الفعلية، من حيث طبعها وعمقها ودرجة وحدتها وتعقدتها، إلى أقسام. وهنا تجب مراعاة عاملين هاملين. أولا، أن لكل نوع من الصلات المتبادلة حاملا ماديا ملموسا، بمستويات بنوية معينة للمادة، مثلا، الذرات والهياكل أو الخلايا والعضوية، حسب الصلات والعلاقات الكيماوية والبيولوجية. أن فصل الصلات الفعلية

عن حاملاتها المادية يعيق المعرفة العلمية للبنيات المادية، ويؤدي في آخر المطاف الى المثالية. ان الصلات تتسم على الدوام بطابع تاريخي ملموس ومتعدد الجوانب، فتظهر اما كعلاقات بين الاشياء، واما كعلاقات بين الاشياء وخواصها، واما، اخيرا، كعلاقات بين خواص الاشياء والظواهر الطبيعية والاجتماعية. ثانيا، ان الصلة المتبادلة بين اشياء وظواهر العالم المادي تشكل المقدمة ونقطة الانطلاق لفهم الحركة التطور.

الحركة كاسلوب لوجود المادة. ان الصلة المتبادلة، اذ تحدد الخصائص البنيوية لاي تشكّل مادي كان ولوجوده بالذات، تؤدي بالضرورة الى تغير متبادل في العناصر البنيوية لهذا الشكل، الى حركته. ان تشابك تفاعلات لا عد لها بين الاشياء والظواهر الفعلية ككل يشترط العملية العالمية الواحدة للحركة والتطور.

وقد كتب انجلس يقول ان « كل الطبيعة التي في منالنا تشكّل نظاما ما، صلة اجمالية ما بين الاجسام، علما باننا نفهم هنا بكلمة الجسم كل الواقع المادي . . . وفي واقع ان هذه الاجسام هي على صلة متبادلة، يقوم واقع انها تؤثر بعضها في بعض، وهذا الفعل المتبادل بين بعضها بعضا هو بالضبط الحركة » (١).

وبفضل التفاعل والتشارط في العالم المحيط بنا، يتغير كل شيء وينتقل من حالة الى اخرى، رغم ان هذه التغيرات التي لا عد لها مختلفة من حيث طابعها وانجاحها. بعضها يفصح عن الانتقال من البسيط الى المعقد، من الأدنى الى الأعلى، ويبرز كحركة في خط صاعد، كحركة تدريجية الى الامام. وبعضها الآخر، على العكس، يؤدي الى تبسيط وتفسخ الاشياء المادية المعقدة، ويمثل حركة هابطة، الى الوراء.

(١) انجلس. ضد دوهرينغ. ماركس وانجلس. المؤلفات. الطبعة الروسية. المجلد ٢ ص ٣٩٢.

احيانا كثيرة، يستعملون مفهومي « الحركة » و « التطور » بالمعنى ذاته وبالفعل، يتضمن هذان المفهومان كثرة كثيرة من العناصر المشتركة. ومع ذلك، لا يتطابق مفهوم « الحركة » مع مفهوم « التطور »، وذلك، قبل كل شيء، من حيث الحجم؛ فهو اوسع بكثير. فبالحركة يفهم التغير على العموم، بصرف النظر عن الطابع والاتجاه والنتيجة. فالحركة تشمل ايا من التغيرات في التشكلات المادية وايا من تحولات بعضها الى بعض، وهي بهذا المعنى عامة ومطلقة وابدية، غير مخلوقة، وغير قابلة للزوال.

وبقصد المعرفة العلمية، تجمع تغيرات وتحولات المواضيع المادية التي لا عد لها في بعض الاشكال الاساسية كحركة المادة. اما اساس تقسيم انواع الحركة المادية، فهو مستويات بنيوية معينة للمادة وانواع من التفاعل فاعلة في هذه المستويات. ففي الطبيعة غير الحية، مثلا، تنبثق في المستوى البنيوي للدقائق الاولى والحقول الفيزيائية وفي مستوى الذرات اشكال فيزيائية مختلفة للحركة (داخل الذرة، الشكل الكهرومغناطيسي، الشكل الحراري)، وفي مستوى الجزيئات الداخلة في قوام مختلف الاشياء، تنبثق تغيرات كيميائية، وفي المستوى البنيوي لجزيئات الشيء الحي، والخلية والعضويات المتعددة الخلايا، تحدث تغيرات وتحولات بيولوجية، واخيرا، في مستوى مختلف الوحدات والبنيات الاجتماعية تحدث تغيرات متعددة متنوعة في المجتمع. وفضلا عن ذلك، تختلط جميع الاجسام الفيزيائية في المكان مشكلة الشكل الميكانيكي لحركة المادة.

ان كلا من اشكال حركة المادة يرتبط باشكال اخرى، ويملك في الوقت نفسه خواص تلازمه هو وحده. وان الانتقال من بعض المستويات البنيوية الى غيرها (اتحاد الدقائق الاولى في ذرات، والذرات في جزيئات) يشترط انتقال شكل للحركة الى آخر. وهذا يعني انه يقوم في اساس المادة ذاته المقدمات لاجل ظهور اشكال للحركة اعقد واعلى. وهذه الصلة التوالدية تتيح توضيح العلاقة الديالكتيكية بين الاشكال العليا والاشكال الدنيا لحركة المادة. فان

شكلا اعلى للحركة، مثلا الشكل البيولوجي، يتضمن، في صورته المحولة، الاشكال الدنيا، وفي الحالة المعنية هنا، الشكليين الفيزيائي والكيماوي لحركة المادة. ان البنات الفيزيائية الكيماوية في العمليات البيولوجية تظهر بوصفها حاملة مادية للخواص والعمليات البيولوجية. ولكنه من الخطأ الفادح حصر خصائص وظواهر الظواهر البيولوجية في الشكل الفيزيائي او الكيماوي او الميكانيكي للحركة.

وعليه يحتوي الفهم الديالكتيكي للعلاقات المتبادلة بين اشكال حركة المادة على تصور الصلة المتبادلة بين هذه الاشكال، ويشير في الوقت نفسه الى استحالة حصر الاشكال العليا في الاشكال الدنيا. ان هذا الفهم يتيح دحض مختلف ضروب الاختلافات الميتافيزيقية والمثالية، المتعلقة باشكال حركة المادة. ان المفاهيم المثالية تعارض، اكثر ما تعارض، الاشكال العليا بالاشكال الدنيا، علما بانها تضيف صفة الاطلاق على خصائص الاشكال العليا للحركة. وعلى هذا النحو، يفسر التغير الاجتماعي، مثلا، على الاغلب، بتغيرات وعي الناس وذهنياتهم ونفسياتهم، وبفكر الشرطية المادية للحركة الاجتماعية. ومن جهة اخرى تظهر انواع من الميكانيكية المعاصرة التي تحاول ان نستخلص الاشكال العليا للحركة من الاشكال الدنيا مباشرة، معتبرة، مثلا التفكير والعمليات الاعلامية في الآلات الحاسبة الالكترونية شيئا واحدا. وفي بعض مناطق العالم، لاتزال توجد انواع من الداروينية للاجتماعية تحصر الكنه الاجتماعي للانسان وللحركة الاجتماعية في الخواص والظواهر البيولوجية، انه دحض هذا الضرب من النظرات المثالية والميكانيكية يركز على تبيان الصلة المتبادلة بين اشكال حركة المادة، على تبيان الدرجات التاريخية لتطور الطبيعة والمجتمع.

الحركة والتطور. ان التطور - خلافا للحركة بوصفها تغيرا على العموم، يشمل لحظة الدوامه وكذلك التوازن الديناميكي (السكون) - هو، قبل كل شيء حركة في اتجاه معين، ولاسيما في خط صاعد. ان التطور هو بهذا المعنى

عملية تسير، كقاعدة، من البسيط الى المعقد، من الأدنى الى الأعلى، محقة الميول الداخلية للتغير الجذري في طبيعة الاشياء والظواهر. ومن هنا ينجم ان التطور يلازمه التدرج، يلازمه تعاقب معين، تلازمه لحظات من التكرار، يلازمه انكار القديم وظهور الجديد. ولكن يجب ان نلاحظ ان التطور التدريجي لا يمكن ان يكون، من حيث اتجاهه، الا تطورا صاعدا، ولا يمكنه ان يكون تطورا نازلا.

ان عمليات التطور نحقق في ظروف معينة، تختلف بالنسبة للمادة غير العضوية، والطبيعة الحية، والمجتمع. وفي كل من مجالات العالم المادي هذه، يكتسب التطور خصائصه بحكم خصائص المواضيع المادية المعنية.

فان التطور في الطبيعة غير العضوية يظهر بمظهر تحول للمواضيع المادية يتصف بصورة رئيسية، بازدياد تعقد صلاتها، وكذلك بالانتقال الى مستويات جديدة لتنظيم الحركة واشكال الحركة. وفي الطبيعة الحية، يتجلى التطور في تكامل البنية البيوكيماوية ووظائف العضويات الحية الكاملة. ان استمرار عمليات التبادل، - التجديد الذاتي والانتاج الذاتي للجسام الحية - يتيح هنا استعمال تعبير « التطور التقدمي ». فان خط تقدم العالم العضوي يسير من ابسط مستويات تنظيم الحي الى الخلية، الى ظهور العضويات النباتية والحيوانية، ومن ثم الى العضويات الشبيهة بالانسان والى الانسان.

وبديهي ان ليست جميع التغيرات التكيفية تتطابق مع الميل السائد، التقدمي. صحيح ان العالم العضوي نسبي، ولكنه يمكننا من ذلك ان نعتبر ان الخط الاساسي لتطور الطبيعة الحية التقدمي يتجه وجهة التنظيم الاعلى للمادة، - وجهة الانسان. وهذا الخط يتصف قبل كل شيء بتطور نشاط الحيوانات العنصرية الاعلى وتكامل اساليب عكس العالم الخارجي.

ان اخصام المادية الديالكتيكية يحاولون دحض واقع ظهور الطبيعة الحية. فان ايدولوجي القومية الجديدة المشهور فيتر، مثلا، يرى انه لا يمكن ان يكون ثمة معيار لتطور الطبيعة الحية، لانها من عند الرب. ولكن تاريخ العالم النباتي

والحيواني هو كله برهان على ضرورة عمليات الصعود من الأدنى الى الأعلى، على اضمحلال الاشكال والانواع العضوية القديمة وظهور اشكال وانواع عضوية جديدة ارقى.

ان التطور التقدمي يتجلى بسطوع خاص في حياة المجتمع. ان درجة سيادة البشرية على القوى العضوية للطبيعة وعلى علاقاتها الاجتماعية بالذات وعلى مستوى التطور المتناسق للفرد، المستوى المرتبط بذلك، هي المعيار الاساسي والتاريخي الملموس للتقدم الاجتماعي. وقد اعتبر لينين ان المعيار الاعلى للتقدم في المجتمع هو تطور القوى المنتجة الذي يحدد في آخر المطاف، من خلال علاقات الانتاج بين الناس، جميع الجوانب الاخرى في الحياة الاجتماعية. وان تعاضم دور الثورة العلمية التكنيكية الاجتماعي هو برهان ساطع على صحة هذه الموضوعية في ايامنا. فان نتائج هذه الثورة تتركز في تغيرات جذرية تطراً على موضوع العمل وعلى مصادر الطاقة وعلى التكنيك والتكنولوجيا، وعلى ادارة الانتاج (الانتقال الى نظام من الآلات يدير نفسه بنفسه)، وعلى مكان ودور الافراد، العناصر البشرية من القوى المنتجة. وهكذا يؤكد العلم المعاصر والممارسة الاجتماعية التاريخية واقع التطور، واقع التغيرات التدريجية الجذرية في الطبيعة وفي المجتمع على السواء، في حين تتيح المفاهيم الفلسفية عن الحركة والتطور معرفة السبيل الصحيح في هذه العمليات.

ان التصور عن العلاقة بين الحركة والتطور يكون ناقماً بدون الجواب عن مسألة ما اذا كان تشكل مادي ملموس يتطور ام لا. ذلك ان القدرة على التطور تلازم جميع المواد وكل تشكل مادي، ولكنها لا تتجلى الا في ظروف مناسبة. ففي بعض التشكلات المادية، يهيمن التوازن الديناميكي في مرحلة معينة، بينما تتصف تشكلات اخرى بحركات حسب دائرة او بتغيرات رجعية. ولكن القدرة على التطور هي مشتركة بين جميع التشكلات المادية، وتتجلى كميل سائد في الظروف الملائمة لاجل تجليها. وفي عداد هذه الظروف المشتركة للتطور تضطلع بدور هام اشكال لوجود المادة كالمكان والزمان،

ونحوها كالبنوية والعكس.

المكان والزمان بوصفهما شكلين لوجود المادة. ان جميع الاشياء والظواهر المادية المتحركة تقوم بينها صلات وعلاقات مكانية. ففي العلاقات المكانية تتجلى مقاييس الاجسام، احجامها. امتدادها (بنيتها). ان مفهوم « المكان » يصف امتداد التشكلات المادية، وضعها المتبادل، تعاضدها. ولكل مادي ناجز تاريخ لنشوءه وتطوره وزواله وتحوله الى ظواهر مادية اخرى. ومفهوم « الزمان » يصف مدة وجود الظواهر المادية، وتبدل حالة هذه الظواهر، واتجاه تحولها.

ان العلاقات المكانية والزمنية التي تكون وتوجد بصورة مستقلة عن الوعي، هي اشكال موضوعية لوجود مختلف الاشياء المادية ولوجود المادة بكليتها. وخلافا للماديين الذين ينكرون على العموم موضوعية المكان والزمان، واستقلالهما عن الوعي، وخلافا للميتافيزيائيين الذين يفصلون اشكال الوجود المكانية الزمنية عن مضمونها المادي، تكشف الفلسفة الماركسية - اللينينية مطلقة ونسبية المكان والزمان. فان المكان والزمان مطلقان بمعنى انهما شكلان عامان وضروريان لحركة المادة. اما النسبية، فان المقصود بها تبعية خواص المكان والزمان الملموسة، تبعية بنيتها الداخلية لطابع الحركة المادية، لانواع وحالات المادة المتحركة.

وفقاً لمعطيات العلم (بما فيها نظرية النسبية لاينشتاين)، تشير الفلسفة الماركسية - اللينينية الى الصلة التي لا تنفصم عراها بين علاقات المكان والزمان، وبينها وبين الحامل المادي الملموس لهذه العلاقات. ومن هنا ينجم ان الموصفات المكانية الزمنية تتغير بصورة ملحوظة في مختلف المستويات البنوية لحركة المادة، في مختلف اقسام الفضاء الكوني، باختلاف سرعات الحركة. ففيما يتعلق بالمجتمع، يمكن القول ان تغيرات الزمان الاجتماعي (تاريخه) تحدث على صلة وثيقة لا انفصام لعراها بالمكان الاجتماعي (بابعاد وعمق السنة الطبيعية الارضية). ولكن تغيرات العلاقات المكانية - الزمانية

والتصورات البشرية عنها لا تدحض كون الطبيعة والمجتمع والانسان موجودة في المكان والزمان. فلا شيء في العالم، باستثناء المادة المتحركة، والمادة المتحركة لا يسعها ان تتحرك الا في المكان وفي الزمان . . . ان « تربيتنا ومعرفتنا تتكفيان اكثر فالكثير للمكان الموضوعي والزمان الموضوعي ، عاكسة اياهما باكثر فاكثر من الضحلة والعمق » .

سندرس في الفصل التالي خاصة العكس الشمولية. ولكن التصور عن اعم خواص واشكال وجود المادة يجيب الآن عن السؤال الذي شغل على الدوام علوم الطبيعة والفلسفة : - فيم تقوم وحدة العالم الفعلية ؟ ان المحاولات التي قامت بها المثالية خلال قرون وقرون لايجاد مبدأ واحد لكل ما هو موجود قد اقتضت في آخر المطاف على هذا الشكل او ذاك للأساس الروحي (الخلق الرباني، الفكرة المطلقة، المفهوم الواحد، وما الى ذلك)، اما في الواقع، فان كل تنوع وتعدد الاشياء والظواهر والعمليات الموجودة انما توحيده خاصة شمولية، هي خاصة المادية. ومن هنا ينجم ان وحدة العالم الفعلية تقوم في مادته، في وجود موضوعي، مستقل عن الادراك، يتكشف في تطور المادة المتحركة الضروري.

قوانين العالم المادي ونشاط الناس

ان توضيح موضوعية المادية والحركة والمكان والزمان يتيح الانتقال الى دراسة الصلات الداخلية فيما بينها بمزيد من العمق. فقد اشرنا سابقا الى ان العلم المعاصر قد اثبت تبعية سير الزمن في التشكلات المادية، وتبعية مدة العمليات لوتيرة الحركة، للسرعة : فبقدر ما تزداد السرعة، بقدر ما يتباطأ سير الزمن. وفضلا عن ذلك، يتوقف امتداد الاجسام المكاني على ازدياد السرعة (يقل طولها). اضيف الى هذا ان خواص المكان تتغير تبعا لبنية الاجسام المادية المتحركة وتبعا لحقول الجاذبية التي نخلقها. ان هذا الضرب من التبعية الملازمة

لكل التشكلات المادية هو الزامي، قانوني، محتم، رغم كل ما يبدو فيه من تناقض.

مضمون مفهوم القانون. ان مفهوم « القانون » الفلسفي قد عرفه لينين بانه « احدى درجات معرفة الانسان للوحدة والصلة والتبعية المتبادلة وكمال العملية العالمية »^(١). ان القانون يعرب عن صلات العالم الفعلي الضروري، الجوهرية، الثابتة نسبيا، والمتكررة، التي تحدد طابع واتجاه ونتيجة التطور في حال توفر الظروف المناسبة. ان مفهوم القانون يعكس الصلات والعمليات الموضوعية للطبيعة والمجتمع في تفكير الانسان.

في معرض دراسة مفهوم القانون، ينبغي الاشارة قبل كل شيء الى ان المادية الديالكتيكية تميزه عن مفهوم القانونية (الطبيعية). لا ريب ان القانون والقانونية مفهومان من طراز واحد، من نموذج واحد، لانهما يعكسان الصلات الداخلية، الجوهرية لتطور الواقع وطابع تطور الواقع. ولكن القانون يظهر بجانب معين من القانونية، بينما تظهر الضرورة كنتيجة اجمالية لفعل قوانين ميدان معين من الظواهر او لفعل قوانين العالم. ان القانونية بوصفها مفهوما شموليا تعكس الضروري المشروط باسباب معينة للعملية، الذي تفعل فيه مجموعة كاملة من القوانين. وقد اشار لينين في « الدفاتر الماركسية » الى ان مفاهيم القانون « تشمل بصورة اصطلاحية، تقريبية، الضرورة الشمولية للطبيعة المتحركة المتطورة »^(٢). ان القانون، كما قال انجلز، هو شكل الوحدة الكلية في الطبيعة. وهو يشمل العام، المشترك، المتشابه، المتماثل الملازم لمجموعة من الاشياء والظواهر، ويعرب عن وحدة تنوع وتعدد الظواهر. وفي اطار كل شكل من اشكال حركة المادة، توجد قوانين اعم وقوانين اقل تعميما. مثلا، في الشكل الاجتماعي لتحرك المادة، تفعل بعض القوانين فعلها

(١) لينين. «الدفاتر الفلسفية». المؤلفات. الطبعة الرابعة. المجلد ٣٨، ص ١٤٠

(٢) المرجع نفسه. ص ١٧٣

في جميع درجات العملية التاريخية، رغم انها تتجلى في شكل يختلف بالنسبة لكل من هذه الدرجات. فان قانون القيمة الزائدة الاقتصادي لا يلزم الا الرأسمالية، وهو يفعل فعله من حيث حجمه، كقانون جزئي بالنسبة للمجتمع بأسره.

وفي معرض الكلام عن درجة تعميمية القوانين، تجدر الإشارة الى النسبية المعروفة في التفريق بين القوانين العامة والقوانين الخاصة. مثلاً، القوانين العامة للطبيعة تفعل فعلها كقوانين خاصة بالنسبة لاعم قوانين العالم المادي الروحي كله - اي بالنسبة لقوانين الديالكتيك الاساسية. وفي الوقت نفسه، نرى ان قانوننا جزئياً لاجل الطبيعة كلها - قانون توارث العلام البيولوجية - هو قانون عام بالنسبة لكل العالم الحيواني والنباتي.

ان علامة القانون الجوهرية تقوم في كونه يشمل الصلات الضرورية للاشياء والظواهر. ان الضرورة بوصفها اهم سمة من سمات القانون تعني حتمية، الزامية فعله في حال توفر الظروف المناسبة. ان تجدد انتاج ظروف معينة في سياق التطور، تكرر صلات ثابتة، دائمة نسبياً هو الاساس الموضوعي الذي تتأمن بفضل الزامية فعل القانون ونتيجته الضرورية. مثلاً، من طبيعة المجتمعات التنافسية ومن ظروفها الموضوعية، ومن التفاعل الالزامي بين المستثمرين والمستثمرين، ينبع حتماً فعل قانون النضال الطبقي. ان النضال الطبقي هو قانون يفعل فعله بصورة موضوعية من قوانين تطور هذه المجتمعات، مهما حاول الايديولوجيون البرجوازيون، والاصلاحيون، والمحرفون انكار ذلك.

ان القانون لا يعكس الصلات العامة والضرورية وحسب، بل يعكس كذلك الصلات الجوهرية اي التي تنبع من الطبيعة الداخلية للمواضيع المادية، من جوهرها، والتي يستحيل بدونها وجود الاشياء المعنية، وهذه الصلات على وجه الضبط هي التي تدخل في مضمون مفهوم القانون. ولهذا كان « القانون » و « الجوهر » من حيث المضمون مفهومان من طراز واحد،

لان الجوهر هو اساس الاشياء الداخلي. ان الفرق بينهما في كون القانون لا يشمل كل مضمون الجوهر وبالاخرى كل تنوع وتعدد الاشكال الخارجية لتجليه. ولكن القانون يعكس الحركة الضرورية للجوهر، والعلاقة الضرورية بينها.

ان القانون افقر من الظاهرة، ولكنه يكشف جوهر العمليات الداخلي بصورة اعمق مما تكشفها الظاهرة. وقد اشار لينين الى ان كل قانون ضيق، غير كامل، تقريبي، وان الظاهرة اغنى من القانون. ان ضيق القانون، نقصه، تقريبيته، انها يحدده كونه يفرز من كل تنوع وتعدد الواحد والخاص الذي يبرز في الظواهر الشيء المشترك الاهم.

من علائم القانون الهامة، ثبات العلاقات التي يعرب عنها، ثباتها النسبي، دراسها النسبي. ان ثبات دوام العلاقات التي تصف القانون تتجلى في التكرارية في حال توفر الظروف المناسبة. ان تكرارية فعل القوانين هي كذلك علاقتها الضرورية وهي ملازمة للقوانين الموضوعية لتطور الطبيعة والمجتمع على السواء.

ولكن المفهوم المادي الديالكتيكي عن القانون يتطلب التمييز بين قوانين الطبيعة وقوانين المجتمع. ان هذين النوعين من القوانين يتسمان بامر مشترك هو انها تفعل فعلها بصورة مستقلة عن معارفنا عنها، بصورة مستقلة عما اذا كانت نتيجة تجليها مضر او مفيدة للانسان في اللحظة المعنية ثم ان وحدتها تقوم في كون الانسان لا يعكس في ادراكه غير قوانين الطبيعة والمجتمع، ولكنه لا يستطيع ان يضعها مباشرة او ان يقضى عليها (رغم انه قادر على تحويل الظواهر الطبيعية والاجتماعية).

والى جانب الوحدة بين القوانين الموضوعية للطبيعة والمجتمع، توجد فوارق بينها. وهذه الفوارق تنجم في المقام الاول عن خصائص المستويات البنوية للحاملات المادية للأشكال المعنية لحركة المادة. مثلاً. ان خصائص قوانين الشكل البيولوجي لحركة المادة تنبع من وجود العضويات والانواع، والبيوسينوز

(وحدة العضويات الحية) ، والبيوسفير.

ان خصائص الشكل الاجتماعي لحركة المادة يقوم في اساسها وجود مستويات الانسان، والعائلة، والوحدة السلالية والمهنية، والجماعة المنتجة، والفئات الاجتماعية، والطبقات، ودرجات تطور المجتمع التاريخية.

ان فرق المستويات البنوية في الطبيعة غير الحية، في الشكل البيولوجي والشكل الاجتماعي لحركة المادة، يتجلى في خصائص الصلات الضرورية والانظمة المادية المناسبة. ونحن نفهم بالنظام تشكلا ماديا متكاملا عناصره (اقسامه المكونة) مشروطة بعضها ببعض، والصلة الداخلية بينها اكثر ثباتا من صلاتها مع الانظمة الاخرى ومع الظروف الخارجية الاخرى. وفي الانظمة المادية، تفعل فعلها قوانين واحدة للعمل والتطور، الامر الذي يشترط كما لها، الذي تدعمه عمليات متنوعة للحفاظ الذاتي والضبط الذاتي والادارة الذاتية.

ولهذا، من اهم الفوارق بين قوانين المجتمع وقوانين الطبيعة، كون قوانين المجتمع تنبثق مع ظهور الانظمة الاجتماعية، كونها تاريخية وقصيرة الزمن بالنسبة لحركة المادة بلا نهاية ولا انقطاع. اما قوانين الطبيعة، فإنها توجد زمنا اطول، وبعض منها خالدة عمليا، مثل قوانين بقاء وتحول الطاقة.

وهناك سمة اخرى بالغة الاهمية تميز قوانين المجتمع عن قوانين الطبيعة هي ان قوانين المجتمع لا تتجلى الزاما بوصفها فعل قوى عمياء، بل تتجلى عبر نشاط الناس الذين يملكون الارادة والادراك، وهي قوانين هذا النشاط. ومن هنا ينجم ان فعل القوانين الاجتماعية الموضوعية يتحقق في سياق الممارسة الاجتماعية التاريخية، في حين ان نشاط الناس لا يشكل شرطا الزاميا لفعل قوانين الطبيعة. ومن هنا ينبع اختلاف موقف الناس والطبقات والفئات الاجتماعية من قوانين الطبيعة وقوانين المجتمع، وهذا الاختلاف في المواقف تحدده معيشتهم الملموسة وحالة الوعي الاجتماعي.

وهكذا، ان الصلات الضرورية، والقوانين والضرورات، مثلها مثل المادة

ذاتها واعم خصائصها واشكال وجودها، تتكون وتفعل فعلها بصورة موضوعية، وهي بهذا المعنى مادية. ان المبدأ الفلسفي لمادية العالم، الذي يشمل جميع ميادين الوجود، يبرز على هذا النحو، اساسا شموليا للعقيدة والمعرفة ولنشاط الناس التحويلي. ولكن فهمه العلمي وتطبيقه يتطلبان توضيح خصائص مادية الوجود الاجتماعي، ومكان ودور نشاط الناس الواعي في تطبيق ضرورات العملية التاريخية.

* * *

سبق أن عرفنا أن المادة هي الاول وإن الوعي هو التالي . وهذه النظرة هي نقطة انطلاق الفلسفة المادية . وبعد أن عالجتنا قضية المادة وأشكال وجودها ننتقل الى بحث أكثر تفصيلا يتناول الوعي وخصائصه .

١ :- الوعي هو خاصة المادة الرفيعة التنظيم

تعتبر قضية نشوء الوعي وجوهره احدى أصعب قضايا العلم . فكيف وفي أية درجة من درجات تطور المادة نشأ الوعي ؟ وكيف تنشأ الاحساسات والادراك والتصور والتفكير عند الانسان ؟ وكيف يتم الانتقال من الاحساسات والادراكات الى التفكير ؟ هذه الاسئلة ظلت مدة طويلة مجهولة من العلم ، مما أفسح المجال أمام تسرب نظريات خاطئة من حيث الاساس تعتبر الوعي خاصة أو نتيجة لنشاط شيء غير مادي (الروح) ، في زعمها ، غير مرتبطة بالمادة وبجسم الانسان ، ويمكنها أن تعيش حياتها المتنقلة ، من دونه . وفي الوقت الذي يتعرض فيه الجسم المادي ، عاجلاً أم آجلاً ، للموت ، فإن « الروح » اللامادية تبقى هي ووعيها ، في زعمهم ، حية خالدة . وقد وجدت هذه النظرات حتى عند أناس المجتمع البدائي الذين كانوا يفسرون الاحلام أو يعللون موت الانسان بأن « الروح » تهجر الجسم مؤقتاً أو الى الابد . والفلسفة المثالية لم تبق على هذه التصورات المتفزلكة فحسب ، بل وأمدتها ،

الفصل الثالث

المادة والوعي

على العكس، بالمبررات النظرية. كما توطدت تلك النظرات بمختلف ألوان هذه الفلسفة. كان كل لون من ألوان الفلسفة المثالية يذهب، الى هذا الحد أو ذاك، الى اعتبار الوعي (أو الروح) كائناً خاصاً من كائنات ماوراء الطبيعة، ليس مستقلاً عن المادة فحسب، بل وهو خالق للمادة أيضاً.

هذه القضية لم يكن حلها سهلاً حتى بالنسبة الى الفلسفة المادية. فالى جانب التفسير الصحيح لجوهر الوعي، باعتباره خاصية معينة من خواص المادة، كانت هنالك أخطاء هامة. هكذا ذهب بعض الفلاسفة الماديين السابقين لماركس وانجلز، والذين ظلوا في حيرة من أمر حل قضية نشوء الوعي، ذهبوا الى أن الوعي هو خاصة للمادة، هو خاصتها الخالدة اللازمة لجميع أشكالها. كما أن بعض الفلاسفة الماديين الذين عجزوا عن فهم مبدأ وحدة العالم المادية، فهماً صحيحاً، توصلوا، عملياً، الى نكران الوعي. انهم ذهبوا الى أن الوعي عبارة عن نوع خاص من المادة، وأن الدماغ يفرزه كما تفرز، مثلاً، الكبد الصفراء. كان هؤلاء هم الماديون العاميون. وفي أعقاب تطور المعارف العالمية أمكن تصحيح تلك الأخطاء. وقد توصلت المادية تدريجياً، وخطوة إثر أخرى، معتمدة على معطيات علم الطبيعة، توصلت الى فهم جوهر الوعي فهماً متزايد العمق، على أنه بمثابة خاصة من خواص المادة الرفيعة التطور، بمثابة نتاج لفعالية الدماغ. وتستقر صعوبة تقصي العمليات النفسية، وظواهر الوعي، في أنها لا تدرك مباشرة بأي عضو من أعضاء حواسنا. ان الاحساس، والادراك، والتصور، والفكر أمور لا يمكننا رؤيتها أو سماعها، أو شمها، أو لمسها. ان بالامكان رؤية عضو التفكير، الدماغ، بالامكان النظر مجهرياً الى خلايا الدماغ، كما تمكن، باستخدام الاجهزة المناسبة، دراسة التيارات الكهربائية التي تشكل في النسيج العصبي وفي مادة المخ... الخ. الا أنه لا يمكن، لافي الزمان ولا في المكان، وحتى من خلال أحدث المجاهر، رؤية الفكرة ولا يمكن قياسها طولياً ولا وزناً. ان الوعي، ان الفكرة، لا تتمتع بخصائص فيزيائية كتلك للخصائص التي تتمتع بها الاجسام

المادية. بيد أنه لا ينبغي أن نستنتج من هذا أن الوعي يعود لعالم ما من عوالم ماوراء الطبيعة، المتميزة أساسياً، عن العالم المادي، وهي مستقلة عن المادة. كما لا ينبغي أيضاً أن نستنتج من ذلك أن الوعي لا يمكن دراسته اطلاقاً بطرق موضوعية علمية، دراسة دقيقة.

ورغم أننا لا ندرك بحواسنا المباشرة وعي الناس الآخرين ذاته، الا أننا ندرك أفعال الناس الواقعية، وتصرفاتهم، وكلامهم الذي يعكس أفكارهم. ويظهر الوعي الملازم للانسان وخصائصه في نشاطه الهادف، وفي طبيعة علاقاته وصلاته المتبادلة مع الوسط المحيط به. ولم يكن عبثاً أن يقال: « اذا أردت معرفة الانسان فانظر الى أعماله » ان التقصي الدقيق لنشاط الانسان العملي، ولعلاقاته وصلاته المتبادلة مع وسطه الطبيعي والاجتماعي (وهو أمر تستطيع الدراسة الموضوعية تحقيقه) يمكن من دراسة وعي الانسان أكثر جداً مما تمكن دراسة الانسان بذاته، وعيه الخاص. ان دراسة الانسان، بذاته، للظواهر الجارية في وعيه الخاص، دراسة صحيحة تعطينا مادة ثمينة وفيرة من أجل دراسة النفس، ولا ينبغي النيل من قيمة هذه الطريقة. الا أن العلم قد حقق نجاحات هامة بشكل خاص، في دراسته الوعي والنشاط النفسي، لاسيما منذ أن اتخذ طرقاً موضوعية في بحث الوعي. والعلم مدين بمنجزات هامة في هذا المجال، للعالمين الروسيين الشهيرين « اي. م سوتشينوفا » و « اي. ب. بافلوف » اللذين صاغاً، على أساس استخدام الطريقة العلمية في العلوم الطبيعية، نظرية منسجمة عن النشاط العصبي الرفيع عند الحيوانات والانسان.

ان النفس هي نتيجة لنشاط المخ المادي. يؤكد ذلك قبل كل شيء واقع أن الحوادث النفسية لا تحدث الا في الاجسام الحية التي تقوم بوظائفها بصورة طبيعية، وتحوز جهازاً عصبياً. ان أكثر أشكال العمليات النفسية تعقيداً، (بما فيها التفكير التجريدي المنطقي) التي تشكل، في وحدتها الداخلية الوطيدة الترابط، وفي اشتراط أحدها الآخر، ذلك الشيء الذي تسميه بالوعي. ان

أكثر هذه الاشكال تعقيداً مرتبط بوجود الجهاز العصبي الرفيع التطور، وبجزئته الاعلى، أي المخ.

وكلما كانت الحيوانات أقل تطوراً، وكانت ذات جهاز عصبي أبسط من حيث التطور، كانت الحوادث النفسية الخاصة بها أكثر بدائية. وهذه الظواهر النفسية تنعدم عند تلك الكائنات المتناهية في البساطة والتي لا تتمتع بجهاز عصبي مركزي. ان ارتباط الوعي بالمادة المتطورة تطوراً خاصاً يتبدى بسهولة عندما يصاب نشاط المخ بخلل ما نتيجة مرض أو اصابة خارجية. فاذا أصيب نصف الكرة المخية باصابة، اختل نشاط نفس الانسان، نشاط وعيه، كلياً أو جزئياً. فاذا ماشفى من الاصابة أو المرض عاد الوعي الى نشاطه السابق. ان علاقة الوعي بحالة المخ تتبدى عند النظر الى تلك الحوادث المعروفة كتخدير الناس واثارة التخيلات لديهم عن طريق مختلف أنواع المخدرات.

وتتمتع قشرة المخ بأهمية حاسمة بالنسبة الى وعي الانسان. انها كيان مادي مفرط في التعقيد يتمتع كل جزء منه بصفات خاصة، وبيئة خاصة. انها تقسم الى مراكز مختلفة كمركز الرؤيا، والسمع، والحركة، ... الخ. وكل مركز من هذه المراكز يتصف ببنية مجهرية خاصة من حيث شكل الخلايا وتوزع الطبقات الخلوية، ويلعب دوراً وظيفياً معيناً في نشاط قشرة المخ بمجملها. بيد أن بنية هذه المراكز تتمتع بسيات عامة بينها. فالمخ يبرز ككل موحد.

ان مراكز قشرة المخ عبارة عن النهايات القشرية للمحلات^(١) البصرية والسمعية والحركية وغيرها. ان الاجزاء القشرية للمحلات (نوى « جمع نواة » المحلات) ليست مفصولة عن بعضها بحدود واضحة ما. فبعضها يمتد من وراء بعضها الآخر وبعضها يشترك ببعض بواسطة تشكيلات عصبية

(١) المحلات: أجهزة عصبية معقدة تضم، الى جانب اجزاء القشرة المشار اليها، أجهزة الاستقبال أو المستقبلات (التشكيلات الطرفية للألياف العصبية الحسية التي تستقبل التهيج وتحوله الى آثار عصبية) وتضم النواقل التي تنقل الاثارة من المستقبلات إلى قشرة المخ.

خاصة. ان الاجزاء القشرية من المحلات تحقق أعلى الوظائف - أي تحليل وتركيب التهيجات الواردة الى المخ. ان اجزاء القشرة المبعثرة بين المحلات بالذات تعتبر مستقبلات ويمكنها أن تقوم ببعض الوظائف من نموذج تلك التي تقوم بها المحلات القشرية ولكنها أبسط منها.

ونتيجة لهذا فان أي خلل في نشاط أي جزء قشري من المحلات (في أعقاب عملية أو ارتجاج الخ ...) يجعل من غير الممكن القيام بأعلى الوظائف الخاصة بالمركز المصاب من المخ، بيد أن اجزاء المحلات المبعثرة تظل قادرة على القيام بالوظائف الاولى المرتبطة بالمستقبلات نفسها. وقد وضع بافلوف هذا الامر بالتجربتين التاليتين: ان الكلب الذي أزيلت منه الاجزاء الصدغية (أي منطقة الادراكات السمعية وتحليلها وتركيبها المعقدين) لم يمكنه أن يميز الاصوات المعقدة كاسمه مثلاً ولكنه كان يميز الاصوات المفردة وألحانها. أما الكلب الفاقد لاجزاء كربي المخ الخلفية (أي منطقة الادراكات البصرية وتحليلها وتركيبها المعقدين) فلم يمكنه أن يميز بين الاشياء ولكنه كان يميز درجة الانارة والاشكال البسيطة. وقد وجد بافلوف في هذا برهاناً قاطعاً على الاهمية الراجحة لبنية قشرة المخ في عمليات النشاط العصبي العلوي. وبالاكتفاء على بحوث تجريبية دقيقة اشار بافلوف الى أن مرض هذا الجزء أو ذاك من القشرة في حال بقاء الاجزاء الاخرى سليمة، يمكن أن يؤدي الى نوع معين من التشويش في النشاط العصبي العلوي لدى الحيوان المصاب.

لقد أكد بافلوف على اهمية واقع التناسب بين اجزاء بنية المخ وبين ديناميكية العمليات العصبية. واعتبر أن « توافق الديناميكية مع البنية، أحد المبادئ الأساسية في نظرية النشاط العصبي العلوي. وهذا طور بافلوف نظرة المادية الديالتيكية الى النفس بصفاتها خاصة من خواص المادة المنظمة بشكل معين، بصفاتها وظيفية من وظائف المخ.

ان قشرة المخ ليست عبارة عن مجرد مجموعة من التشكيلات البنيوية المنفردة

والمرتبطة خارجياً فقط والمتعايشة واحدة الى جانب الاخرى. فقد اكد بافلوف العلاقة المتبادلة العضوية بينها، وأكد وحدتها. وقد كتب يقول: « اذا كان بالامكان، من وجهة نظر معينة، النظر الى قشرة كرتي المخ الكبيرتين على أنها مصنوعة من الموزاييك ومؤلفة من عدد لا نهاية له من القطع المنفردة ذات الدور الفيزيولوجي الخاص في لحظة معينة، فاننا من نظر أخرى نعتبرها منظومة ديناميكية معقدة تطمح دائماً للاتحاد (للتكامل) ولتكرار نفس نموذج النشاط الموحد^(١). ان هذا الفهم الديالكتيكي للعلاقة العضوية بين الكل والاجزاء في عمل قشرة المخ هو احدى أهم الصفات التي تميز تعاليم بافلوف. فبفضل هذا الفهم استطاع بافلوف التغلب على التطرف الخاطئ من الجانبين في تفسير عمل المخ: التطرف الاول هو الاتجاه الذي يسمى بالاتجاه الموضوعي « اللوكالي »، والذي يعمد أنصاره الى جعل خاصية نشاط الاجزاء المنفردة من المخ شيئاً مطلقاً، متجاهلين وحدة المخ. والتطرف الثاني هو الاتجاه الذي يتجاهل كلية أهمية التشكيلات البنيوية المنفردة للمخ ولا يرى سوى وحدته. وهكذا فالوعي عبارة عن نتاج المخ، نتاج المادة الرفيعة التطور، وهو وظيفة المخ، وبالتالي فان المخ هو عضو الوعي، التفكير.

وعندما نقول بأن الوعي هو نتاج المادة لانقصد بذلك أن الوعي الناشئ عن المادة، والمرتبط بها، يوجد كشيء خارجي عنها، قائم الى جانبها، كما توجد، مثلاً، التفاحات النابتة على غصن شجرة التفاح وبشكل مرتبط به. ان العمليات الفيزيولوجية الجارية في المخ المفكر، وان التفكير الواعي، ليسا عمليتين متوازيتين، بل هما عملية واحدة وحيدة، والوعي هو حالتها الداخلية. يقول لينين «ان الوعي هو حالة داخلية للمادة»^(٢). وعلى هذا لا يمكن اطلاقاً الفصل بين الوعي والمادة المفكرة. وفي الوقت نفسه لا ينبغي

(١) بافلوف. المؤلفات الكاملة الجزء الرابع موسكو - لينينغراد ١٩٤٧ ص ١٩٥.

(٢) لينين: «المؤلفات» الجزء ١٤، ص ٧٤.

النظر الى الفكرة، الى الوعي، على أنه مادة، أو شيء ما مادي (وهذا خطأ الماديين العامين).

واذا اعتبرنا أن الوعي مادة «لا يبقى أي معنى لمعارضة المادة بالروح، والمادية بالمثالية، من وجهة نظرية المعرفة الفلسفية»^(١) (لينين). وفي حدود الابحاث التي تتعلق بنظرية المعرفة لا بد من اقرار معارضة المادة بالروح. «ولكن اقرار معارضة المادة بالروح، والشيء الفيزيائي بالنفسي، معارضة مطلقة، خارج نطاق تلك الحدود، انها هو خطأ فادح»^(٢).

ان معارضة المادة بالوعي في نطاق نظرية المعرفة هي معارضة مطلقة بمعنى أنها معارضة حقيقية بين ما هو أول وما هو تال، بين ما هو موجود منذ الازل وبين ما لا ينشأ الا في مرحلة معينة من مراحل تطور الطبيعة. بيد أن معارضة المادة بالوعي هذه هي نسبية بمعنى أن الوعي لا يمكن، بأي شكل كان، أن يفصل عن المادة المفكرة، وأن يعارض بها كشيء منعزل عنها وقائم بذاته. ليس للوعي شيئاً غريباً عن الطبيعة، انه نتاج طبيعي لها، شأنه شأن الاشياء المادية ذاتها، الحائزة على هذا الوعي.

ان العلم العصري الذي توصل الى نجاحات هامة في معرفة نشاط الدماغ ودراسة الظواهر النفسية، وعمليات الوعي، يضع أمامه لا مهمة توضيح هذه الظواهر فقط، بل والسيطرة عليها، وتوجيهها. يقول بافلوف: «اننا على ثقة من أن الوجهة التي اتبعها العلم في دراساته الدقيقة عن فيزيولوجيا دماغ الحيوانات، ستوصله الى سيطرة عظيمة على الجهاز العصبي الرفيع التطور،

(١) نظرية المعرفة هي قسم من الفلسفة الذي يدرس مصادر المعرفة العلمية ووسائلها، وشروط صحتها.

(٢) لينين: المصدر ذاته. ص ٢٣٣.

والى اكتشافات مذهلة لاتقل أهمية عن المنجزات التي حققها علم الطبيعة^(١).

ورغم وضوح معطيات علم الطبيعة فان الفلاسفة المثاليين ما يزالون ينازعون في أن الوعي هو نتاج، هو وظيفة، هو خاصة المادة المتطورة الى حد معين، ينازعون في أن الانسان انما يفكر بالاعتماد على المخ. هكذا يذهب «ف. بولسن» الى أن قولنا: «التفكير يتم في الدماغ»، قول لا معنى له. وهو يعتقد أن هذا القول شبيه بتأكيدنا أن الافكار توجد في المعدة أو المعدة أو في القمر. هذا «الاعتراض» ضد المادية سخيض الى حد دفع أحد الاطباء النفسيين الى القول بـ «أنني لم أسمع الا من المجانين والمعتوهين أن أنفسهم موجودة في المعدة أو في القمر».

أما «أفيناريوس»، المثالي الذاتي، فينكر فكرة أن الفكر، أن الاحساسات عبارة عن وظيفة الدماغ، عن خاصته. وقد وجه لينين، في كتابه «المادية والمذهب التجريبي»، نقداً لاذعاً لنظرات هذا الرجل الفلسفية. حاول «أفيناريوس» أن يدعم وجهة نظره استناداً الى أن أحداً لم يشاهد كيف تتولد الاحساسات في المخ. وهو يرى أن الاحساسات موجودة دائماً، ولكنها ليست دائماً موعية من قبلنا فعندما يحدث انتقال الحركة المادية (الاثارة) الى الكائن الذي نعتبره منتجاً للاحساس، يحدث، في الوقت ذاته، «تحرر» الاحساسات الموجودة في الكائن قبل الاثارة، وبذلك تصبح موعية، كما لو أنها ليست نتيجة للاثارة. ان الاحساسات والتفكير، في زعمه، ليسا وظيفة الدماغ ولا نتاجا له. ولنفرض جدلاً أن «افيناريوس» على حق عندما يقول بأن عمليات المخ لا تولد الاحساسات بل «تحررها» فقط على صورة ما، آنذاك نضطر الى استنتاج ان احساسى بالالم من جرح أصيب به إصبعي اليوم، كان موجوداً من قبل، وأن

(١) بافلوف: «المؤلفات الكاملة» الجزء الثالث الكتاب الاول نشر اكااديمية العلوم السوفيتية. موسكو - لينينغراد، ص ٢٨٩.

احساسى برائحة الورد التي ساشمها غداً قائم ولكنه لم يصبح بعد موعياً... الخ. فهل يمكن أن نوافق «أفيناريوس» على ما ذهب اليه دون أن نتنكر لابطس قواعده التفكير المنطقي العلمي؟ بالطبع لا. ان كل انسان يلاحظ، في كل برهة واقع أن احساساته تتولد نتيجة لتأثير العالم المادي الخارجي على أعضاء حواسه. ويفضل هذا بالذات يستطيع الانسان ان يحس توجيه نفسه وفقاً لظواهر العالم الخارجي، وأن يتغلب على العوائق المنتصبة أمامه، وأن يشجب ما هو غير ملائم، وأن يجد ما يلائم وجوده ويسهل عليه فعاليته. ان «أفيناريوس» وأنصاره يعودون بنا القهقري نحو نظرية اخناتون عن تذكر الروح للأفكار التي كانت عايشتها في العالم الروحي المثالي.

ويتهم «أفيناريوس» علماء الطبيعة الذين يعتبرون الاحساس والتفكير وظيفة الدماغ، بأنهم يحشرون في الدماغ الافكار والاحساسات خشراً لا يطاق، مع أنه منها براء. وعملهم هذا يؤدي، في زعمه، الى التنكر للمفاهيم الطبيعية عن العالم، والى الوقوع في أحضان المثالية... ان «أفيناريوس» يعتبر نفسه عدواً للمثالية، لمجرد أن يعرف بحقيقة «الانا» و«الوسط» على حد سواء. ولكنه، عملياً، يدافع عن المثالية، ويحارب المفهوم الطبيعي الحقيقي عن العالم، أي المادية. ذلك لان «الانا» و«الوسط» عبارة، في زعمه، عن مجموعة من الاحساسات. ان «أفيناريوس» لم يحاول البرهنة على ما رغب بالبرهان عليه، بل اعتبره أمراً بديهياً: لم يحاول اثبات الزعم القائل بأن الاحساسات موجودة من غير المادة المفكرة، من غير الدماغ، بل اعتبره بديهية. يقول لينين: «لما كنا لا نعرف بعد جميع ظروف الصلة التي تخضع لرقابتنا في كل دقيقة، الصلة بين الاحساسات والمادة المنظمة على صورة معينة، لهذا فنحن لا نعترف الا بوجود الاحساس وحده. هذا ما تؤدي اليه سفسطائية «أفيناريوس»^(١).

(١) لينين: «المؤلفات» الجزء ١٤، ص ٤٠.

وهناك مثاليون معاصرون «لا ينفون» ارتباط الوعي بالدماغ . ولكنهم لا يفهمون هذا الارتباط الا من حيث أن الدماغ هو، فقط، «أداة» ظهور الوعي . أما الوعي نفسه فهو غير مرتبط، في زعمهم، بالدماغ (وهذا ليس أكثر من تكرار لنظرية «أفيناريوس» الخاطئة). وقد سلك المثالي الذاتي «ماخ» طريقة أخرى تختلف عن طريقة «أفيناريوس» في معالجة، قضية ارتباط الوعي بالدماغ . فلكي لا يقع «ماخ» في تناقض مباشر مع معطيات العلوم الطبيعية، الشاهدة على الصلة الوثيقة بين الوعي والاحساس وبين العمليات المادية للدماغ والجملة العصبية، عمد الى ملائمة هذه المعطيات مع فلسفته الذاهبة الى أن الاجسام عبارة عن مركبات من الاحساسات . وهو أمر يؤدي الى نتائج مجحوفة، كما أبان لينين . ولما كان الدماغ جسماً فهو، بالتالي، حسياً ذهب اليه «ماخ» مجموعة من الاحساسات . ثم ان الدماغ جزء من الانسان، فالانسان اذن مجموعة من الاحساسات كذلك . وعلى هذا فعندما تتحسن شيئاً ما، ينبغي علينا أن نقول: «ان مجموعة من الاحساسات هي «أنا» تتحسن، بمساعدة مجموعة أخرى منها، هي الدماغ، مجموعة ثالثة من الاحساسات» . ومهما كانت عليه «مجموعات الاحساسات» هذه من فوضى وتعقيد، فاننا نستطيع تنسيقها بادئين نقطة انطلاقها . ان من السهل الكشف عن خطأ نظرية «ماخ» الفاحش، وعن التناقض فيها . «فماخ» يعلن أولاً أن كل شيء عبارة عن احساسات، ثم يأخذ، عملياً، بنظرات معاكسة تعتبر الاحساسات مرتبطة بعمليات هي عبارة عن تبادل حركات مادية بين الجسم العضوي والعالم الخارجي .

ان ما يسمى بالنظريات النسبية المورفولوجية تذهب مذهبا آخر في التنكر لنظرية الوعي كوظيفة للدماغ . ان محاكمات أنصار هذه النظريات تبدو، للوهلة الاولى، وكأنها قديمة، عندما يحاولون ايجاد تلك الاماكن الدماغية التي

(١) المورفولوجيا: مجموعة العلوم التي تدرس شكل وبنية أجهزة الحيوانات أو النباتات .

تنشأ فيها العمليات النفسية . الا أن نظراتهم، تناقض، في الواقع، معطيات علم الطبيعة الحديث، وهي خاطئة من الوجهة الفلسفية . وأنصار هذا الاتجاه المدعوم من قبل فيزيولوجيين ومختصين في الاعصاب، معاصرين، يتوصلون الى حد التأكيد، كما لو أن كل نقطة من نقاط الدماغ تختص بوظيفة نفسية مستقلة عن غيرها كل الاستقلال: ففي نقطة من هذه النقط يقوم، في زعمهم، مركز «معرفة الارقام»، وفي نقطة أخرى مركز «لفهم الجمل»، وفي نقطة ثالثة يقوم مركز «معرفة الحروف»، وفي الرابعة مركز «تشكل صورة الاشياء الحية»، وفي الخامسة مركز «التعرف الى الاشياء اللاحية» وفي السادسة مركز «الأنا» الشخصية، وفي السابعة مركز «الأنا» الدينية، . . . الخ . ورغم أن هذه الوظائف النفسية تتلاءم والاجزاء المختصة من الدماغ، فان أنصار هذه النظريات ينكرون، من حيث الاساس، الصلة الداخلية بين النفس والدماغ، ويفصلون بينهما . وهم، اذ يميزون الدماغ الى أجزاء مبعثرة، منعزلة عن بعضها، وعن التأثيرات الخارجية، يفقدون كل امكانية لفهم كيفية قيام الدماغ بنشاط شامل موحد . وهم يتوصلون الى تصور الوظائف النفسية كأشياء مستقلة عن بعضها كل الاستقلال، ولكنها مترافقة، في الزمان والمكان، مع النشاط الفيزيولوجي لقشرة الدماغ، وتحدث وفق قوانينها الخاصة التي لا يجمعها أي جامع مع قوانين فعالية الدماغ . هذه النظرات ليست، في الواقع، أكثر من ترداد للنظرية الثنائية القديمة التي نبذها العلم منذ أزمان بعيدة، لنظرية التوازي النفسي الفيزيائي القائلة بأن العالم عبارة عن صفتين من العمليات المستقلة تماماً، عن صفتين من العمليات الفيزيائية والنفسية الحادثة في جوهرين مختلفين (مادي وروحي) يوازي بعضها الآخر .

ويذهب المذهب ذاته أيضاً أنصار النظرية القائلة بأن الدماغ عبارة عن كتلة لا تتصف ببنية وتمايز واضحين . وهم، اذ عجزوا عن رؤية مصدر نشاط المحلات في تأثير الوسط الخارجي، اذ عجزوا عن رؤية الصفة النوعية لعمل هذه المحلات، المشروط بتباين التأثيرات المادية الخارجية، اذ عجزوا عن

ذلك، حاولوا تفسير النفس كنتاج «لفعالية دماغ» وحيدة، شاملة له كله، وكـ«طاقة عصفوية ذاتية للدماغ» تجابه كتلته المادية. وهكذا يذهبون مذهب التوازن النفسي.

ان مؤلفات «بافلوف» وكثير من العلماء الآخرين، المتعلقة ببحث الفعالية لعصبية المتطورة دحضت هذه النظريات الشائنة دحضاً تاماً. ان جميع الاعتراضات المناوئة لأهم أفكار المذهب المادي التي أثبتتها علم الطبيعة، والقاتلة بأن الوعي عبارة عن خاصية المادة الرفيعة التطور، ان جميع هذه الاعتراضات تبقى، ولا يمكن الا أن تبقى، عقيمة غير مجدية، إنها تناقض، في جوهرها، المعطيات العلمية الدقيقة.

هكذا نرى أهمية الطريقة المادية التي تعالج الظواهر من جميع النواحي للوصول الى نتائج صحيحة، كما نرى الاخطار الجدية التي تدفع اليها الطريقة الميتافيزيكية التي تعالج الظواهر معالجة وحيدة الجانب.

٢ : - الوعي هو انعكاس العالم المادي

وهكذا فالوعي هو نتاج فعالية الدماغ. الا أنه لا ينشأ ولا يتشكل في الدماغ الا بفضل الصلة المادية بين الدماغ والعالم الخارجي. ان الدماغ متصل بالعالم الخارجي عن طريق نهايات أعضاء الحواس: من عين وأذن وأغشية الانف المخاطية، وحليّات اللسان، ونهايات الجلد العصبية... الخ.

لا تنشأ الاحساسات في الدماغ الا عندما تصل اليه الاثارة العصبية الناجمة عن اهاجة هذه الاشياء المادية أو تلك لاعضاء الحس. هكذا تنشأ الاحساسات السمعية عن تأثير الموجات الصوتية على عضو السمع: كما تنشأ الاحساسات الشمية عن تأثير الصغريات المادية على خلايا الشم الموجودة في المجاري الانفية.

وهكذا فمصدر الاحساسات هو العالم الخارجي، هو المادة، هو الوسط

المادي، الظواهر والاشياء، المكونة له.

ان الاحساسات هي الاساس الذي تقوم عليه جميع ظواهر الوعي. ولا وجود لهذا الوعي من دون تلك الاحساسات. ومن خلال الاحساسات فقط يكتسب الوعي محتواه وغناه. فكلما كانت صلة الوعي بالعالم المادي المحيط به أوسع وأكثر تنوعاً، كان أكثر غنى.

فمن المعلوم أن هنالك حالات يكون فيها الانسان منذ الولادة أعمى وأطرش وأخرس في وقت واحد. فاذا لم تتخذ تدابير معينة لمساعدة مثل هذا الانسان، فان وجوده يقتصر على القيام بالوظائف الفيزيولوجية البحتة، ويكون وعيه في غاية الفقر. وعندما ينجح الاطباء في رد ولو بعض أعضاء الحواس المفقودة اليه يتسع وعيه ويغتنى، ويصبح هذا الانسان عضواً كاملاً في المجتمع، قادراً على أن يعيش حياة ابداعية فعالة. واذا لم يقدر للدماغ أن تقوم بينه وبين العالم الخارجي صلات عن طريق أعضاء الحس، فلا تنشأ في هذا الدماغ الاحساسات، أي يصبح الانسان من غير وعي. يقول «ساتشينوفا» عندما يكون الانسان مجهداً جسدياً من التعب، ويفرق في ثبات عميق، فان نشاطه النفسي يتضاءل، من جهة، حتى العدم (وهو في هذه الحال لا يعلم)، وهو، من جهة ثانية، يتميز بفقدان تحسس المؤثرات الخارجية، فلا يوقظه الضوء، ولا الصوت القوي ولا حتى الالم. وهناك حالات أخرى يقترن فيها انعدام تحسس المؤثرات الخارجية بانعدام النشاط النفسي كحالة السكر والتخدر والاعياء. ان الناس يعرفون هذا. وليس هناك من يشك في أن الظاهرتين المذكورتين مرتبطتان سببياً. وتباين الناس في نظرهم الى هذا الموضوع منحصر في أن بعضهم يعتبرون انعدام الوعي سبباً لانعدام التحسس في حين يعتبر بعضهم الآخر العكس. ولا يمكن وجود وسط بين الحالين. فاذا أطلقنا النار قرب أذن انسان يغط في نوم عميق، من مدفع أو اثنتين أو عدد منها، استيقظ واستعاد نشاطه النفسي في الحال. أما اذا كان هذا الانسان فاقداً لسمعه فلا يوقظه اطلاق ولو مليون مدفع، لسبب واحد هو عدم استعادته

لوعيه عن طريق هذا الإطلاق. كذلك الاعمى لا توقظه أشد الانوار بهراً. وعندما ينعدم الحس في الجلد لا يستطيع أكثر الآلام شدة أن يحدث أي تألم. وبكلمة واحدة فإن الانسان الغارق في النوم، والفاقد أعصاب حسه، سيقظ نائماً حتى الموت. فهل بعد هذا يستطيع بعضهم القول بأن الفعالية النفسية، والحركة العضلية المعبرة عنها، ممكنة، ولو للحظة خاطفة، من غير اثاره حسية خارجية^(١).

ان خاصة واحدة لشيء معين تثير في دماغنا احساساً واحداً، اذا تساوت الشروط. فكرة البليار لا يمكن أن تثير فينا، في لحظة معينة، وفي ذات الشروط، الاحساس باللون الابيض، وفي لحظة أخرى، الاحساس باللون الاسود، ثم بالاخضر أو الأزرق، ثم من جديد بالابيض... الخ، أو أن تثير فينا، الآن احساساً بشيء أملس ثم بشيء غير أملس أو غير ذلك، أو أن تثير فينا، في البداية، احساساً بالصلابة، وبعد لحظة، بالطراوة... الخ. ان خواص الاشياء المادية لا تثير فينا احساسات ما عضوية تتعاقب تعاقباً فوضوياً، بل تثير احساسات معينة تماماً تتلاءم وطبيعة الاشياء الموضوعية. فاذا شممنا رائحة شيء ما، كان هذا دليلاً على أن الشيء المذكور يتمتع بقدرة على افراز صغيريات منه حوله، تتميز ببعض الخصائص الفيزيائية الكيميائية التي لا تتوفر لدى صغيريات أجسام أخرى لا تنفث رائحة. فنفت الرائحة عبارة عن خاصة موضوعية. ان وجود صغيريات في الهواء من جسم ينفث الرائحة، يمكن أن يتبدى اعتماداً على وسائل فيزيائية وكيميائية بالاضافة الى عضو الشم. ولما كانت الخصائص المعينة للأجسام المادية تثير فينا احساسات معينة، لذا فنحن نتمكن من تمييز هذه الخواص بعضها عن بعض. ان الخصائص الواحدة

(١) سينشونوف: مؤلفات مختارة في الفلسفة وعلم النفس طبعة ١٩٤٧ ص ١٧٨. كان في عيادة «بوتكين»، العالم الشهير، مريضة عمياء طرشاء. كانت هذه المريضة فاقدة حس جلدها في مختلف نواحي جسمها باستثناء يديها. وكانت هنا في حالة ثبات بصورة عامة. ولم تكن لتستيقظ الا يلمس يدها التي احتفظت بحساسيتها.

للأجسام، هذه الخصائص المتميزة عن بعضها بدرجتها أو بشدتها (من حيث الحرارة أو الوزن... الخ)، تثير فينا، بصورة عامة احساسات من نوع واحد، ولكنها متميزة فيما بينها تمايزاً يتناسب وشدة تلك الخصائص. وفي تشابه وتباين الاحساسات الناجمة عن تأثير الاشياء المادية، ينعكس تشابه وتباين الخصائص العائدة لهذه الاشياء.

ان الاشياء المادية تتمتع لا بخاصة واحدة بل بخصائص متعددة (من شكل، ووزن، ولون، ورائحة، وقساوة، أو طراوة، ونعومة أو خشونة... الخ). وتنقل أعضاء حواسنا الى الدماغ تأثيرات متنوعة في وقت واحد، صادرة عن تلك الخصائص. وعلى هذا الاساس يتشكل في الدماغ ادراك واحد، كامل للشيء. ان الادراك هو مجموعة الاحساسات المرتبطة فيما بينها ترابطاً متلائماً مع ترابط خصائص الشيء، المثير فينا الادراك المذكور. وكل ادراك معين يتلاءم مع الشيء المادي المثير لهذا الادراك. ان خاصة الاشياء المادية، وتشابه هذه الاشياء وتباينها، تنعكس في خصائص الادراك.

بيد ان الاحساسات والادراكات تتلاءم والاشياء الخارجية لا كشارات اتفاقية أو علامات تناسب الاشياء الدالة عليها ولكن كنسخ عنا متلائمة مع هذه الاشياء ذاتها. ان الاحساسات والادراكات عبارة عن انعكاسات للاشياء المادية وصور ونسخ عنها. هذا هو أحد أحجار الزاوية في نظرية المعرفة المادية الديقالكتيكية. وقد قدم علم الطبيعة براهين لاتدحض على صحة هذه النظرية.

لقد ساعد «سوتشينوف» كثيراً في اثبات أن الاحساسات عبارة عن انعكاسات وصور ونسخ صحيحة لاشياء العالم الخارجي. ان تطبيق الطريقة التي انتهجها «سوتشينوف» في البرهنة، كفيل باقناعنا بأن الاحساسات البصرية تعطي، عملياً، انعكاسات صحيحة للاشياء التي ننظر إليها.

اذا اتجهت العين نحو شيء خارجي ما ارتسم انعكاس هذا الشيء على قعرها في الشبكية. ويحدث الانعكاس حسب قوانين العدسات عبر عدسة

العين التي تشبه عدسة محدبة الوجهين. ولكن هذا الانعكاس الفيزيائي ليس، بعد، الصورة البصرية الموجودة في الوعي، بل هو مجرد حلقة وسطى بين الشيء الخارجي والصورة في الوعي. ونحن لا نعرف بعد فيما اذا كان الوعي ينقل الانعكاس الى الشبكة حين تتكون الصورة فيه، أو يأخذ الصورة من الشبكة بعد انعكاسها عليها. وعلى كل فلدينا مجموعة مؤلفة من ثلاثة أمور مرتبطة فيما بينها، وهي: ١: - الشيء الخارجي، ٢: - الانعكاس على الشبكة، ٣: - الصورة في الوعي. المهم الآن هو السؤال التالي: هل تشابه الصورة في الوعي مع الشيء الخارجي أم لا؟ وتتأني صعوبة الجواب من أننا لا نعرف الشيء بذاته بشكل مستقل عن صورته في الوعي التي تكونت فيه بشكل مباشر، ولا بد للاجابة على السؤال المذكور من اللجوء الى وسائل وسيطة.

لنأخذ عدسة عادية محدبة الجانبين، ولنحدث بواسطتها انعكاساً على شاشة للجسم الذي نجري عليه تجربتنا. ان الانعكاس على الشاشة، والجسم الخارجي، متشابهان طبقاً لقوانين العدسات. وبالإضافة الى هذا، فاننا نتأكد من تشابههما عن طريق مقارنة أحدهما بالآخر مباشرة: فالانعكاس على الشاشة، والجسم المنعكس، هما، بالنسبة للعين، شيان خارجيان على حد سواء، ومن تشابه الاحساسات التي يولدها كلاهما في الجهاز البصري نستطيع القول بأنهما متشابهان. وبما أن عدسة العين تعمل كالعدسة العادية (ويمكن اقامة البرهان على هذا بالتجارب) فان الانعكاس الذي تنقله عدسة العين الى الشبكة مشابه للشيء الخارجي. وعندما ننظر الى الشاشة، فاننا نرى عملياً ذات الجسم المنعكس على الشبكة، وذلك لان كلا الانعكاسين حادثان بموجب عمليات فيزيائية واحدة. أما عندما نوجه بصرنا الى الجسم الخارجي، فان دماغنا آنذاك، يتفاعل مع الصورة الحادثة في الوعي، وبالتالي، فاننا عندما ننظر الى الشاشة، والى الجسم الخارجي، نقوم، في الحقيقة، بمقارنة بين الانعكاس على الشبكة وبين الصورة الحادثة في الوعي. فماذا تعطينا هذه المقارنة؟ ان سيشينوف يلخص نتائج هذه المقارنة بما يلي: « ان المثلث والدائرة

واطار النافذة والهلال الخ... المعكوسة في الشبكية يتحسسها الوعي كما هي عليه: أي كمثلث ودائرة واطار وهلال الخ... والصورة الغبشاء في الشبكية تظهر في الوعي غبشاء كذلك. والنقطة الثابتة ترسم في الوعي ثابتة أيضاً، والطيور الطائر يرتسم في الوعي متحركاً. وأماكن الانعكاس الضعيفة الانارة توعى بشكل غير واضح، أما النقاط المتألقة فتبرز في الوعي ناصعة. وبكلمة واحدة ان الوعي بالنسبة الى الصور على الشبكية مرآة لا تقلل صدماء عن الشبكية والاجهزة العاكسة في العين، بالنسبة الى الشيء الخارجي. فاذا كان الامر الاول في المجموعة السابقة مشابهاً للثاني، والثاني مشابهاً للثالث، كان الاول مشابهاً للثالث كذلك. وهذا يعني أن الشيء الخارجي غير المعروف، أو الشيء بحد ذاته، مشابه لصورته المنعكسة في الوعي^(١). والاحساسات البصرية تعطي صوراً صحيحة لا لشيء واحد فقط، بل لمجموعة من الاشياء المدركة. ولكي نتحقق من هذا يمكن استعمال المحاكمة المذكورة من قبل باعتبار أن المجموعة هي شيء واحد مركب، مؤلف من أجزاء مختلفة. ولكن هل تعكس العين بامانة أوضاع الاشياء المكانية؟ ان العلم يجيب بالاجاب في هذا المجال أيضاً. فلكي نقدر وضع الاشياء المكاني وبعدها عنا، ننقل البصر، بالتوالي، من شيء الى آخر، محولين محور العين نحو العين نحو الانف الى هذا الحد أو ذاك. فاذا كان الشيء قريباً حولنا المحور تحويلاً شديداً، أما اذا كان أبعد حولنا المحور تحويلاً أقل. ان الاحساس المرتبط بتقليص العضلات التي تحرك العين يسمح لنا بتقدير زوايا الدوران، وبهذا الامر يرتبط ارتباطاً مباشراً احساس بعد الشيء عنا، الواقع أن الانسان عندما يشمل ببصره المنظر المحيط به تقوم عيناه بعمليات هندسة كالتى يقوم بها الطبوغرافيون عند ما يمسحون الارض طبوغرافياً. وكما أن المخططات الهندسية الطبوغرافية تعطينا صور صادقة عن أوضاع الاشياء المكانية، كذلك فان الاحساسات

(١) سيشينوف: «المتخيلات الفلسفية والنفسية» ص ٣٣٣.

البصرية تعطينا صور حقيقية، بوجه عام، عن تلك الأوضاع. الواقع أن تقدير الأدوات الهندسية للزوايا يحدث بصورة أدق من تقدير العضلات المحركة للعين. ولهذا فصور المنظر الحادثة بواسطة العين تكون أقل دقة، وهو أمر يتبدى خاصة عندما تكون الأشياء مفرقة في بعدها. ولكن العين، على العموم، تعكس الواقع بشكل حقيقي في هذا المجال أيضا. وبالإمكان أيضا تبيان أن العين تعكس المقادير النسبية للأجسام عكسا صحيحا تقريبا.

إن الواقع التالي يثبت، بصورة عامة، صحة انعكاس العالم الخارجي في الاحساسات البصرية. فالإنسان المندفع بسرعة كبيرة بين أجسام محيطة به ومبعثرة كثيرا في طريقه، وغالبا ما تكون ذات أشكال كثيرة التعقيد، يستطيع تجنب العوائق بنجاح بفضل ارشاد عينيه له. هذا النجاح لانحوزه إلا إذا قامت العينان بعكس أشياء العالم الخارجي عكسا صحيحا وبسرعة كبيرة. وهناك احساسات أخرى هي انعكاسات العالم الخارجي وصوره. ولهذا يمكن الحديث عن «صور» صوتية وضوئية لعمليات العالم الخارجي. إن احساساتنا الصوتية تعكس بأمانة حركات الأجسام الصوتية. ويمكن الحكم على صحة هذا الواقع بالاعتماد على ماتينيه الأجهزة الفيزيائية التي تسجل حركات الأجسام الصوتية تسجيلا دقيقا. فما يكاد ينبعث صوت الجسم حتى ينشأ الاحساس بالصوت. ومع انقطاع الحركات الصوتية يتوقف الاحساس الصوتي. وفي الوقت الذي تتغير فيه الحركات الصوتية شدة وذبذبة وتوacula، تتغير الاحساسات الصوتية ارتفاعا ونغمة وطولا. والفرق في جرس الصوت المدرك يتجاوب والفرق الموضوعي في طابع الحركة الصوتية... الخ.

ويتمتع الاحساس (والادراك)، باعتباره شكل انعكاس العالم، بصفتين هامتين: أولاها أن الاحساس عبارة عن انعكاس مباشر للعالم المادي (فبين الاحساس، باعتباره عنصر الوعي، وبين الواقع الموضوعي الذي يعكسه لاتوجد أية حلقات وسيطة). وثانيتهما أن الاحساس عبارة عن انعكاس الخواص المعينة لأجسام مادية حسية: عبارة عن انعكاس لا اللون بشكل

عام، بل انعكاس لون جسم معين، في وقت معين، وفي ظروف معينة، عبارة عن انعكاس لا الوزن بشكل عام، بل انعكاس وزن جسم معين، في وقت معين، وفي ظروف معينة... الخ.

ليس الإنسان كائناً بيولوجيا فحسب، بل وكائنا اجتماعيا. وأعضاء حواس هذا الإنسان ليست نتاج التطور البيولوجي فحسب، بل ونتاج التطور الاجتماعي أيضا. إن الإنسان إذاً يعمل، ويؤثر على الطبيعة، يتغير هو نفسه، في الوقت ذاته، وتتغير أعضاء حواسه. فعين النسر تبصر إلى أبعد مما تبصر عين الإنسان المجردة، ولكن عين النسر لا تميز واحداً بالمائة مما تستطيع رؤيته عن الإنسان. إن البصر والسمع، والشم، واللمس، هي نتاج تطور الإنسان التاريخي، نتاج تلاؤمه مع شروط وجوده، مع خصائص نشاطه العملي. والقدرة على التحسس والادراك عطاء في حوزة الناس جميعا. إلا أن الفنان قادر، بفضل خبرته العملية، على تمييز فروق دقيقة في الألوان أعظم مما هو في استطاعة الناس الآخرين. ثم إن سمع العديد من الحيوانات قادر على استرقاق ما لا يكاد يسمع من الأصوات، إلا أن الإنسان المتطور في مجال الموسيقى، قادر على سماع عدد من الأصوات أكبر بما لا يقاس مما تسمعه أغنى آذان الحيوان حساً كأذان الكلب مثلاً.

إن ادراك الإنسان للعالم ليس هو ادراكاً تأملانياً سليماً، ليس هو ادراكاً انعكاسياً جامداً. إنه ادراك فعال. فالإنسان يتحسس ويدرك أشياء العالم المحيط به وظواهره، في سياق العمل، وفي سياق النشاط الاجتماعي المحول للعالم، مما يتيح له التعرف على العالم بشكل أعمق. وتلعب دوراً في سياق ادراك الإنسان للعالم المحيط به لا أعضاء حواسه والأشياء المدركة من قبله فحسب، بل وجميع ماكدسه الإنسان والانسانية من تجربة تاريخية أيضاً. ونحن غالباً ما نكون على صلة بالكثير من أشياء الوسط المحيط بنا. وقد أصبح دماغنا، بفضل الادراك المتكرر المتعدد لأشياء بعينها، قادراً على استحضار صور كاملة للأشياء لا، فقط، عندما تبعث فينا مباشرة مجموع تلك

الاحساسات التي هي قادرة بشكل عام، على بعثها فينا، بل وعندما تبعث فينا، عملياً، بعض فئات هذه الاحساسات فقط. فعندما أنظر، مثلاً، الى شمععدان معدني أعرفه، فاني أدركه لا كثيء يتمتع فقط بشكل خارجي معين، بل وكثيء صلب، بارد، ثقيل. ان الشمعدان في اللحظة الراهنة، لا يبعث في، مباشرة، لا احساسات لمسية ولا حرارية ولا وزنية، مادمت لا ألمسه. الا أن هذه الاحساسات قد سبق أن نشأت في الماضي، لا نتيجة النظر اليه، بل نتيجة أخذه بيدي، وتحسسه، وتقدير وزنه. وبفضل ذلك تكونت في وعيي مجموعة ثابتة من الاحساسات التي تشكل صورة للشيء ككل، تشكل فكرة عنه. فما أن أرى الشمعدان الآن، وتنشأ لدي احساسات بصرية فقط، حتى تنشأ أيضاً عندي، بالتداعي، صورة عن الخصائص الأخرى لهذا الجسم.

وهكذا فالدفاع قادر على اعطائنا فكراً، صوراً عن تلك الأشياء في الوقت الذي لاثير فينا احساسات عنها. وهذه الصور، تبدو، وكأنها نتاج النشاط الاعباطي للوعي. الا أن الامر على خلاف ذلك. فلا يمكن أن تتكون الا صور تلك الأشياء التي أثارت فينا، عملياً، في وقت ما، احساسات طبعت أثارها في دماغنا. ان الصور التي تقوم على الاحساسات والادراكات هي انعكاسات وصور للعالم المادي، شأنها شأن هذه الاحساسات والادراكات. ولكن كيف نفسر ما ينشأ عن النشاط النفسي للدماغ من صور تمثل مخلوقاً نصفه انسان ونصفه الآخر حصان، أو تمثل عروس البحر التي نصفها امرأة ونصفها الآخر سمكة؟ ان أمثال هذه المخلوقات لم يرها ولم يلمسها انسان على وجه البسيطة، وهي لم تثر فينا أية احساسات لسبب بسيط هو أنها غير موجودة. ومع هذا فان صورها الذهنية موجودة. أولاً يدحض هذا الفكرة المادية القائلة بأن الاحساسات، بأن الادراكات، والصور عبارة عن انعكاس الواقع الموضوعي، عن انعكاس العالم المادي؟ كلا وألف كلا. تشهد على ذلك بوضوح تلك الاجزاء التي يتألف منها جسم عروس البحر والحصان الانسان..

ان الناس الذين لم يقدر لهم أن رأوا الحصان والسمك، لا يمكنهم أن يكونوا صورة عروس البحر والحصان الانسان.

لما كانت الصور غير مرتبطة بتوفر الاحساسات في وقت معين، فهي تتمتع باستقلال نسبي، ويمكن أن يمتزج بعضها ببعض كيفيا في الدماغ. ويستطيع خيال الانسان أن يجمع بين عناصر أكثر الصور تبايناً، هذه الصور التي تكونت على أساس ما كان من احساسات وادراكات في وقت ما. الا أن هذه العناصر كلها، ليست في نهاية المطاف، غير انعكاس للواقع الموضوعي.

وحتى التصورات الخيالية التي لا تعرف حداً لا تنفصل عما تتحسسه الاحساسات عند عكس هذه للعالم الخارجي. وما نتاج التصورات الخيالية الانسانية، مهما كانت عليه من بعد عن الحقيقة الا انعكاساً صحيحاً أو مشوهاً عن الواقع. بين التصورات المشوهة للواقع نجد الشيطان والجن ومختلف كائنات ماوراء الطبيعة. ونحن واجدون، حتى في هذه الصور التخيلية، سمات انسان الارض. فالجن والشياطين وكائنات ماوراء الطبيعة الأخرى تعزى اليهم هذه الخصائص الانسانية أو تلك، ولكن في حدها الاعظمي من الافراط.

ان أشياء العالم الخارجي وظواهره تنعكس في التصورات، خلافاً للاحساس والادراك، لاجميع الخصائص الفردية العديدة، بل تنعكس فيها من دون تفاصيل كثيرة. ففي التصور تحتل المكان الاول من الوضوح بعض السمات النموذجية العامة للأشياء والظواهر المتشابهة. ثم ان التفكير الذي يستخدم المفاهيم أداة له هو، أيضاً، انعكاس للعالم الخارجي. وهذا الشكل في انعكاس العالم غير ممكن من غير احساسات أيضاً. الا أن التفكير، خلافاً للاحساسات والادراكات والتصورات، لا يتمتع بطابع حسي مجسد، وهو لا يعكس الأشياء والظواهر المنفردة فحسب، بل ويعكس، بصورة رئيسية، ماهو عام في الأشياء والظواهر، يعكس جوهرها الداخلي، والصلات والقانونيات الخاصة بها. ويحدث هذا الانعكاس المعجم للواقع عن طريق

لنأخذ، على سبيل المثال، مفهوم « الكتلة ». هذا المفهوم، هو، من حيث المحتوى، انعكاس للخاصة الموضوعية العامة التي تتمتع بها جميع الاجسام المادية استثناء (الكبيرة منها والصغيرة الملساء والخشنة، والسوداء والبيضاء، والباردة والحارة، وذات الرائحة والخالية من الرائحة)، وهي خاصة تنحصر في أننا، اذا أردنا احداث تغيير معين في هذه الاشياء، في فترة زمنية معينة، لا بد لنا من أن ندفعها بقوة معينة . ان خصائص الاجسام لا أهمية لها في هذا المجال، كما لا أهمية لاختلاف نوعية القوى التي تدفع هذه الاجسام . بيد أنه كي نتوصل الى استيعاب وجود خاصة عامة في الاجسام تنعكس في مفهوم الكتلة، لا بد للاحساسات أن تعكس في دماغ الانسان ملايين الحوادث الحسية لتبدل سرعة الاجسام تحت تأثير القوى المختلفة .

ان جميع النظريات العلمية بحق هي انعكاس صحيح للعالم المادي، مهما كانت عليه هذه النظريات من التجريد من حيث الصيغة . لنأخذ نظرية القيمة القائمة على أساس العمل . فمقولة القيمة عبارة عن تجريد، ولكنها تعكس، بعمق ودقة، جوهر ظواهر المجتمع الرأسمالي السلمي، تعكس العلاقات بين منتجي السلع . انها، وحدها، القادرة على تمكيننا من فهم مصدر فضل القيمة، في الرأسمالية، والعلاقات المتبادلة بين البروليتاريين والرأسماليين . أو لنأخذ نظرية حركة « السائل المثالي » في علم السوائل . ان السائل المثالي هو السائل الذي لا يجوز احتكاكاً داخلياً (لزوجة) ولا ينقل الحرارة . هذا السائل بالذات لا وجود له في الطبيعة . فهل يعني ذلك أن نظرية حركة هذا السائل لا تعكس أي شيء واقعي ؟ كلا لا يعني ذلك . ففي شروط معينة تكون اللزوجة، في بعض السوائل، ضئيلة الى درجة لا تؤثر، معها، تأثيراً أساسياً، على طابع حركتها . كذلك القول بالنسبة الى نقل الحرارة . فمفهوم السائل المثالي يبدو، اذن، انعكاساً لسائل حقيقي في مثل تلك الظروف بالذات، وتبدو النظرية انعكاساً لجريان سائل حقيقي .

يقول لينين : « ان نظرية الفيزيائيين عبارة عن انعكاس للأجسام والسوائل والغازات الموجودة خارج وعينا، وبشكل مستقل عنه . بيد أن هذا الانعكاس تقريبي، طبعاً، ومن الخطأ تسمية هذا « التقريبي » او المبسط « تعسفاً »^(١) وهذا ينطبق أيضاً على جميع النظريات العلمية في الفروع الاخرى من المعرفة . ان انعكاس العالم في التفكير المجرد ليس انعكاساً مباشراً؛ وذلك لقيام الاحساسات والادراكات والتصورات بين التفكير والواقع الموضوعي .

وتحصل المعرفة الصحيحة المتكاملة الاطراف نتيجة عمل فكري طويل شاق . وربما عبر بعض الأخطاء، مثل مفهوم « المادة الحرارية العديمة الوزن » ومفهوم المادة النارية التي هي أساس الاحتراق في كل جسم قابل للاشتعال، وهما المفهومان اللذان وجدا في زمن ما . ولكن حتى في مثل هذه المفاهيم الخاطئة انعكست بعض خصائص الظواهر الواقعية . هكذا انعكست في مفاهيم « المادة الحرارية العديمة الوزن » بعض خصائص التيارات الحرارية مما أتاح وضع نظرية نقل الحرارة التي احتفظت أفكارها الاساسية بأهميتها حتى الآن .

كيف يتمكن من تمييز المعرفة الصحيحة، والانعكاس الصحيح، للعالم المادي، عن الاخطاء والتخبط ؟ ترى هل في حوزة الانسانية وسيلة دقيقة للتأكد من صحة عكس الوعي للواقع ؟ نعم . ان هذه الوسيلة هي نشاط الناس العملي . وسنعالج في الفصل التاسع مقياس الحقيقة، ونوضح دياكتيك المعرفة، وقوانين تطورها .

يقول لينين : - ان أهم ميزة يتميز بها المادي عن المثالي، هي أن الاحساس، ان الادراك، ان التصور، وبصورة عامة، وعي الانسان، ينظر اليه على انه صورة للواقع الموضوعي . ان العالم هو حركة هذا الواقع الموضوعي الذي يعكسه وعينا . وحركة التصورات، والادراكات . . الخ تتلاءم وحركة

المادة خارج ذاتي»^(١).

لاشك أن مقدرة الدماغ على عكس العالم الخارجي في الاحساسات والتصورات والمفاهيم مدهشة الى حد أن المثاليين جعلوا الوعي في وضع فريد بالنسبة الى ظواهر العالم كلها، فمنحوه قوة خارجة عن الطبيعة الى حد التآليه. ولكن الوعي لا يتضمن أي شيء خارج عن الطبيعة. انه خاصة من خواص المادة. صحيح أنه خاص بالاجسام المادية الرفيعة التطور ولكن هذا لا يعني أنه ينشأ في المادة المتطورة نشوءً مفاجئاً دون أن تكون أسس في خصائص أخرى للمادة أكثر بساطة.

وينشأ الاحساس، قانونياً، عن تطور وتكامل امكانية الانعكاس الخاصة بالمادة كلها. وقد أشار لينين الى أنه لاصحة للظن بأن كل مادة « واعية ». غير أن « من المنطقي بأن المادة بمجملها تحوز خاصة قريبة من الاحساس، من حيث الجوهر، هي خاصة الانعكاس »^(٢).

فما هي هذه الخاصة ؟ ان جميع الاجسام المادية بلا استثناء، يؤثر بعضها في الآخر، الى هذا الحد أو ذاك. وأبسط شكل لهذا الانعكاس الملازم للمادة كلها، هو تبدل يطرأ على بعض الاجسام المادية تحت تأثير بعضها الآخر، تنطبع بواسطته (التبدل) خواص التأثيرات الخارجية في الاجسام المادية. مثل هذا الشكل من الانعكاس معروف بوضوح في الطبيعة اللاعضوية كانعكاس الاشياء في المرآة. ان جوهر هذا الانعكاس قائم في إعادة توزيع أشعة الحزمة الضوئية تحت تأثير الاجسام والمرآة. فإعادة توزيع الاشعة المكاني عبارة عن رد فعل الحزمة الضوئية تحت تأثير الاجسام والمرآة. وفي خصائص إعادة توزيع الحزمة الضوئية تنطبع خصائص الاجسام المعكوسة. ان تبدل خواص الحديد تحت تأثير الحقل المغناطيسي هو أيضاً شكل خاص من الانعكاس. وتبدل

(١) المصدر السابق ص ٢٥٤.

(٢) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ص ٨١ وكذلك ص ٣٤.

خواص الحديد هو رد فعله على التأثير الخارجي، وفي مغنطته تنطبع خصائص هذا المؤثر الخارجي.

ان طابع الانعكاس الناجم عن التأثيرات الخارجية يتحدد بطبيعة التأثيرات كما يتحدد بخصائص الجسم المعاكس، بخصائص نوعيته. ويؤدي نشوء الاجسام المادية المتزايدة باستمرار في تعقيدها، والقدرة على الدخول في عمليات وتأثيرات متبادلة متزايدة التعقيد مع الاجسام الاخرى، يؤدي الى ظهور أشكال انعكاس جديدة أكثر تعقيداً. ان شكل الانعكاس الذي يلائم أبسط الاجسام المادية المعروفة، هو الشكل الفيزيائي المعبر عنه بتغير وضع هذه الاجسام الفيزيائي، وبظهور ردود فعل فيزيائية ذات علاقة قانونية بالتأثيرات الخارجية المذكورة أعلاه. هكذا يجيب الاليكترون على تأثير الساحة الكهربائية الخارجية عليه، بتغير السرعة (بالتسارع)، بتغير بنية ساحته الخاصة، بقذف أشعة كهروطيسية. في هذه التبدلات تنطبع خصائص الساحة المؤثرة، انطباعاً محدداً. ويمكن الحديث، في مجال العمليات الكيميائية، عن شكل كيميائي خاص للانعكاس. ومع نشوء الاجسام الزلزالية ظهر شكل جديد للانعكاس خاص بها، هو الحساسية. ان الزلايات تتمتع بلدانة عظيمة وتتأثر كل التأثير بالوسط الخارجي. فبعض التأثيرات تحدث تبدلاً شديداً الى هذا الحد أو ذاك، في الخصائص الفيزيائية والكيميائية للزلايات. (تحدث « تغيراً في طبيعة الزلايات » دائماً أو مؤقتاً). وتحدث تأثيرات أخرى بعدد دقيقة في بنية الزلايات وفقاً لظروف الوسط الجديدة، كما تظهر خصائص وسائطية جديدة (أي خصائص التسريع أو الابطاء الشديد لجريان التفاعلات الكيميائية)، وهي خصائص تتصف بطابع التكيف مع الظروف الخارجية المتغيرة. ان أحد مظاهر حساسية الاجسام الزلزالية هو قدرتها على تغيير أحجامها وشكلها تحت تأثير العوامل الخارجية، وهذه القدرة مرتبطة بوجود أجزاء خاصة في بنية الجسم الزلاي، وهي مجموعات متفاعلة أو وظيفية. ان ظهور المادة الحية قد صوب بظهور شكل بيولوجي من أشكال

الانعكاس أكثر تعقيداً هو قابلية التأثير أو (الانفعال) . وليست حساسية الجسم الزلالي بالنسبة لشكل الانعكاس هذا الا عبارة عن « سلفه الكيميائي » . ان قابلية التأثير هي قدرة كل ماهو حي على الاستجابة للمؤثرات الخارجية بتنشيط أو تثبيط تبادل المواد وبتغيير سرعة النمو وبتغيير المكان وماشابه ذلك . . مما يؤدي الى تكيف العضوية مع ظروف الوسط المتغيرة . ان تطور الحياة قد أدى خطوة فخطوة الى تعقيد هذا الشكل من الانعكاس .

وعلى أساس التخصص المتزايد في وظائف مختلف أنسجة وأجزاء الجسم أخذت العضويات خلال ارتقائها تتوصل الى درجات أعلى فأعلى من الكمال في عكس ظروف الوسط الخارجي . وقد رافق هذا تغير بنية العضويات نفسها، هذا التغير الذي جرى طبقاً لظروف الوسط المحيط .

ان العضوية والوسط - يشكلان وحدة . ويعتبر هذا القول الموضوعية العظيمة الاهمية في تعاليم ميتشورين حول تطور الطبيعة الحية . وهي تسمح بدراسة الانعكاس البيولوجي من وجهة نظر جد عريضة . اذ لا ينبغي اعتبار أن الانعكاس البيولوجي هو فقط هذه الاستجابات الحسية أو تلك التي تقوم بها العضويات متأثرة بمؤثرات معينة من الوسط الخارجي في لحظة معينة، بل انه العملية الارتقائية اللا متناهية بمجملها لتطور العضويات والتي تتكيف خلالها هذه العضويات طبقاً لظروف الوسط الخارجي المتغيرة .

ومع ظهور جهاز عصبي متطور لدى العضويات، ناشىء عن تلك الانسجة التي تخصصت في نقل التأثيرات، اتخذ العكس البيولوجي صفات جديدة ذات أهمية مبدئية . وبالطبع فان جوهر العكس البيولوجي لم يتغير، فهو لا يزال كالسابق يقوم في ايجاد الصلة بين العضوية والوسط، تلك الصلة التي يعتبر وجودها سبباً في توافق خواص العضوية وسلوكها مع الوسط . ولكن عند توفر جهاز عصبي مركزي فان صلات العضوية مع الوسط لا تقوم فقط من خلال عوامل الوسط التي تتصف بأهمية بيولوجية مباشرة بالنسبة للحيوان . اذ أنها الى جانب ذلك تقوم أيضاً من خلال العديد من العوامل التي لا تتمتع

بأهمية بيولوجية مباشرة . وهذه الاخيرة هي بمثابة الانذارات والاشارات الدالة على ظهور العوامل التي تتمتع بأهمية بيولوجية مباشرة بالنسبة للحيوان . ان مثل هذه الصلات تقوم خلال التطور الفردي للحيوانات في حالات يكون فيها تأثير عامل ما من العوامل التي ليس لها أهمية بيولوجية مباشرة سابقاً، لسبب من الاسباب، لتأثير عامل ما من العوامل التي لها أهمية بيولوجية جوهرية ويكون سابقاً بشكل مباشر .

واذا تكرر هذا التوافق عدداً كافياً من المرات فانه يصبح من الكافي وجود العامل الثاني وحده دون وجود العامل الاول لكي يظهر لدى الحيوان رد الفعل الذي يثيره لديه العامل الاول المتمتع بأهمية حيوية مباشرة بالنسبة اليه . فاذا نحن مثلاً أشعلنا مصباحاً أمام كلب قبل أن نقدم له الطعام مباشرة فانه بعد عدد من المرات يتكرر فيها هذا التوافق بين تقديم الطعام واشعال المصباح سيصبح لعاب الكلب يسيل حتى عند اشعال المصباح وحده بدون ظهور الطعام . ان اشعال المصباح، وهو أمر لا يتمتع بأهمية بيولوجية مباشرة ويعتبر بالنسبة للكلب شيئاً لا معنى له البتة، قد أصبح في مثل هذه الظروف بمثابة إشارة لظهور الطعام - وهو عامل له أهمية بيولوجية مباشرة . ان هذه الإشارة تستدعي رد الفعل نفسه الذي يستدعيه العامل المشار اليه بالمصباح . ان ردود الفعل الجوابية لدى الحيوانات لا على العوامل التي تتمتع بأهمية بيولوجية مباشرة بل على شاراتها التي نشأت لدى حيوانات خلال حياته المنفردة على أساس تجربة وجوده في ظروف معينة قد اكتشفت من قبل العالم إ. ب . بافلوف، الذي سما هذه الردود بالافعال المنعكسة الشرطية . ولم يكن العلم يعرف قبل بافلوف الا الافعال المنعكسة الفطرية التي سهاها بافلوف : الافعال المنعكسة اللا شرطية . وهي عبارة عن ردود الفعل الجوابية التي تقوم بها الحيوانات تحت تأثير العوامل البيولوجية المباشرة، وهي الردود التي نشأت خلال التطور الارتقائي للحيوانات من نوع معين، والتي تثبت بقوة وأصبحت تنتقل بالوراثة من جيل الى جيل . ومن جملة الافعال المنعكسة اللاشرطية مثلاً

افراز اللعاب لدى الحيوانات عند تناول الغذاء، ورف الجفون عند ظهور شيء ما بشكل مفاجئ أمام العين وهلمجرا. ان الافعال العكسية اللاشرطية الاكثر تعقيداً تدعى بالفرائز. وكلمة «شرطية» تشير الى أن رد الفعل المعين لدى الحيوان يمكن أن يظهر في ظروف موافقة بواسطة أي عامل آخر لا أهمية بيولوجية له لو أن تأثيره اتفق مع تأثير عامل بيولوجي. ان الافعال المنعكسة الشرطية غير ثابتة ومتغيرة. فبعضها يمكن أن يختفي اذا كفت الشروط التي خلقتها عن التكرار، وبعضها يمكن أن يظهر وفقا للظروف المتغيرة في حياة الحيوان. وبمساعدة هذه الافعال بالذات يحدث التكيف على الوجه الأكمل مع الوسط المحيط لدى الحيوانات العالية التطور. أما الافعال المنعكسة اللاشرطية فانها ثابتة وسائدة بالنسبة لكل النوع المعين من الحيوانات بأكمله، وهي بمثابة الاساس الذي تتشكل عليه الافعال المنعكسة الشرطية. ولا يوجد بين الافعال المنعكسة الاولى والثانية حد مطلق لا يمكن تجاوزه. فقد أشار بافلوف الى أن هناك امكانية تحول الافعال المنعكسة الشرطية الى لا شرطية. ان مجموعة الافعال المنعكسة الشرطية واللاشرطية لدى الحيوانات ليست الا أعلى شكل لعكس هذه الحيوانات لظروف وجودها. ففي الافعال المنعكسة اللاشرطية ينعكس ماهو دائم أبداً تقريبا خلال حياة النوع. أما في الشرطية فينعكس تنوع العوامل المتغيرة التي تؤثر على الحيوان وتنوع علاقاته مع الوسط. ان انعكاس العالم في الافعال المنعكسة يخضع لقنونات خاصة يتحدث عنها بافلوف في تعاليمه المتعلقة بالافعال المنعكسة الشرطية والنشاط العصبي، وهي تعتبر انجازاً عظيماً في العلم الطبيعي المعاصر.

ان الفعل المنعكس الشرطي يتميز عن غيره من أشكال الانعكاس الملازمة لانواع المادة المختلفة من حيث تعقيدها، يتميز بأهمية خاصة تقوم في:

١ - ان الفعل المنعكس الشرطي هو شكل من نشاط القسم الاعلى من الجهاز العصبي المركزي للحيوانات - أي نشاط دماغها. و٢ - أن الفعل المنعكس الشرطي ليس عملية فيزيولوجية محضة بل هو الى جانب ذلك ظاهرة نفسية

كذلك. انه أبسط الظواهر النفسية. ومع سير تطور العالم الحيواني، ارتقى النشاط الانعكاسي الشرطي للدماغ وتعمد تدريجياً. ولكن هذا النشاط لم يكن مجرد نتيجة منفعة لهذه العملية البيولوجية الارتقائية. فما ان نشأ هذا النشاط حتى أبسط قوة فاعلة في تلك العملية. وبفضل توفر انعكاس الواقع في ردود الفعل الشرطي تكونت ظروف جد ملائمة لتسير مع تطور العالم الحيواني. وبذلك تأمنت إعادة تكون البنية العضوية ووظائفها، تكونا سريعاً متلائماً مع شروط الوسط المحيط. وبهذا اقترب الزمن الذي ظهر فيه الانسان، لأول مرة، على الارض مع الوعي الذي يلزمه باعتباره شكلاً انسانياً خاصاً لانعكاس الواقع.

لنر الآن الصفات المميزة لهذا الشكل الجديد من الانعكاس. ان الحيوانات تعكس الوسط الخارجي حسب متطلباتها البيولوجية المحضة فقط، أي مايرتبط بالدرجة الاولى، بالشروط البيولوجية الاساسية لوجودها. وهي لاتعكس من الظواهر العديدة الاخرى، ظواهر العالم المحيط بها، الا ما أصبح شارة لتلك الشروط البيولوجية. هذا الانعكاس ليس نتاجاً للوعي، ويلعب الانعكاس بواسطة الشارات أهم دور فيه.

ان الظواهر ذات الطابع غير البيولوجي عندما ترتبط في علامة زمنية مع الظواهر البيولوجية تصبح بمثابة شارات للواقع. وقد سمي «بافلوف» مجموع هذه الشارات التي تعبر عن غنى العلاقات بين الحيوان وبين الظروف الخارجية باسم نظام الشارات الاول. وهو النظام الوحيد الذي يتوفر لدى الحيوانات. وبما أن الاجسام والظواهر الملموسة هي، وحدها، التي تشكل أساس شارات هذا النظام، لذا فان عالم الحيوانات النفسي القائم على أساس النظام المذكور، يعتبر انعكاساً حسيماً ملموساً حتى في أكثر أشكاله تطوراً.

هذا النظام الاول لاتستقل به الحيوانات فقط بل ويشاركها فيه الانسان أيضاً. وهو يلعب الدور الاساسي في سني الطفل الاولى، كما يتمتع بأهمية بالغة عند اليافعين. غير أن هذا النظام ليس بالنظام الوحيد عند الانسان. انه

أعجز من أن يشمل كل غنى شكل انعكاس الواقع لدى الانسان . ان الدور الحاسم هنا يقع على عاتق نظام الشارات الثاني، الذي يميز، جذريا، أسلوب الانعكاس الخاص بالانسان، عن أسلوب الانعكاس الخاص حتى لدى أكثر الحيوانات تطورا . ويتكون النظام الثاني من الكلمات المسموعة والمروية، أي من الكلام البشري . ان الكلام عبارة عن وسائل اثارة حقيقية، شأنها شأن وسائل الاثارة الخارجية الاخرى، ولكنها عن غيرها باستخدامها كتفسير، وكشارات لتلك الاجسام أو الظواهر التي تؤلف نظام الشارات الاول، أي انها تصبح شارة الشارات .

يقول « بافلوف » : « ان الانسان يتمتع ، بنظام شارات آخر هو شارة نظام الشارات الاول، أي يتمتع بالكلام . . . وهذا يضاف عامل جديد للنشاط العصبي ، عامل تجريد وتعميم شارات النظام السابق التي لاحصر لها ، عامل يحدد شروط قدرتنا اللامحدودة على توجيه أنفسنا في العالم المحيط بنا ، ويشكل ، العلم المعتبر درجة رفيعة من تلاؤم الانسان مع الوسط المحيط به »^(١) .

ويتبين من الدور الذي تلعبه الكلمة ، يلعبه الكلام ، بالنسبة لنظام الشارات الاول (شارة الشارات) ، أن كلا من هذين النظامين يعمل ، لا بشكل مستقل عن الآخر ، بل في صلة وثيقة معه ، وبصورة متفاعلة . ولا ينمو نظام الشارات الثاني الا على أساس الاول ، ويتأثر بخصائصه . كما أن الاول يتكون ، نتيجة لوجود الثاني ، كانعكاس حسي موعى .

ان كل ما يعكسه نظام الشارات الأول ، وما يدل عليه الكلام فيما بعد ، يصبح موعياً . والطابع الموعى الذي يتسم به الانعكاس الانساني يعتبر الخاصة الأساسية في هذا الانعكاس ، التي تميزه عن الانعكاس الخاص بالحيوان . ومن أجل ابراز هذه الخاصة يسمون الانعكاس الانساني بالوعي .

ثم ان شكل الانعكاس الانساني (الوعي) يتمتع بسمه هامة أخرى ، تقوم

على أن الوعي عامل فعال جداً في تأثير الانسان على الطبيعة في مجال العمل . فبفضل العمل يتلاءم الانسان مع الشروط الخارجية لابتغير نفسه وأعماله فحسب ، بل وعن طريق تغير الشروط الطبيعية الخارجية . ان الحيوانات لا يعدو نشاطها حد التلاؤم مع العالم الخارجي . أما وعي الانسان الذي هو إنتاج ظروف وجوده الاجتماعية والتاريخية ، وتنتج نشاطه الاجتماعي العملي ، فيصبح ذاته عاملاً فعالاً في النشاط العملي . ان الوعي مشروط بالواقع الموضوعي من حيث مصدره ومحتواه العام . وبهذا المعنى لا يمكن اعتباره شيئاً مستقلاً تمام الاستقلال عن الواقع الموضوعي . وهو ، بالإضافة الى ذلك ، ليس مجرد انعكاس لما هو قائم في العالم ، في اللحظة الراهنة ، وفي الظروف الحالية فقط ، فالنشاط الابداعي الذي يقوم به الدماغ يحول ، بالاعتماد على قوانين التفكير ، شكل الحاضر الى شكل جديد يتناسب مع ظروف أخرى تحل في المستقبل البعيد أو القريب . وفي هذا ينحصر استقلال الوعي النسبي .

فإنما كان الوعي استباق سير الاحداث الفعلية ، والتنبؤ بالنتائج التي ستنتج عن الاحداث . وهو بهذا يحفز الانسان الى نشاط هادف اما الى بلوغ هذه النتيجة ، أو الى تجنبها . ان النتائج المتوقعة لتطور الاحداث ، وهي النتائج التي يهدف اليها الانسان ، ويلعب نشاطه دوراً جوهرياً في بلوغها ، يسميها الهدف . ان تحديد الاهداف ، والبحث الفعال عن الوسائل والطرق المؤدية الى بلوغ حتى أبعد ما منالاً ، يشكلان السمة المميزة للوعي . وعلى هذا الأساس يقوم نشاط الناس العملي . وقد أصاب هيغل اذ قال : « ان العقل داه بقدر ما هو جبار » . ان دهاء هو ، على العموم ، في نشاطه المتخذ الوسائل أداة له ، « جاعلاً الاشياء تتبادل التأثير وفقاً لطبيعتها ، محققاً الهدف الذي سعى اليه ، دون أن يتدخل مباشرة في هذه العملية »^(١) .

وفي واقع الاستقلال النسبي للوعي يتجلى التناقض الديالكتيكي الخاص

(١) « بافلوف » : « المجموعة الكاملة » الجزء الثالث ، الكتاب الثاني ، ص ٢١٤ ٢١٥

(١) هيغل : « موسوعة العلوم الفلسفية » موسكو عام ١٩٢٩ ص ٣١٨ - ٣١٩ .

به . فكلما اقترب الوعي من الواقع ، وعكسه بدقة وكمال أوفى ، تمتع بدرجة أعظم من الاستقلال ، لأنه بهذا ، يستطيع الابتعاد بقوة أعظم عن الحاضر ، والتطلع تطلعا أبعد الى المستقبل البعيد دون أن يفقد محتواه القيم ، دون أن يتحول الى أوهام وتخيلات فارغة .

ان استيعاب الناس لانعكاس العالم الخارجي يخضع سلوكهم لرقابة عقلهم الخاص . فالإنسان ليس شيئا آليا يخضع لتأثير القوى اللاشعورية ، « اللاعقلانية » ولتأثير « الغرائز العنيفة » كما يذهب اليه مثلا مذهب فرويد . فالعقل والارادة يلعبان دورا عظيما في مجمل سلوك الانسان . وهذا ما يميزه عن الحيوانات ، ويسمونه عما تبقى من الطبيعة ، التي هو جز منها . الا أن الانسان ليس مجرد كائن طبيعي ، بل هو كائن اجتماعي ، قبل كل شيء . لهذا ، فهو في سلوكه ، كما سنرى ، يتأثر تأثيرا حاسما بشروط كيانه الاجتماعي بصورة خاصة . هذه الشروط هي التي تحدد عقله ووعيه وارادته .

ان بحث الطريق التاريخي لتطور خاصة المادة التي سماها لينين خاصة الانعكاس ، يدفعنا لاستخلاص النتائج التالي :

- ١ - لم يظهر الوعي الا في مرحلة معينة من مراحل تطور المادة .
- ٢ - ان الوعي المرتبط ارتباطا وثيقا بأكثر أشكال المادة تطورا ، أي بدماغ الانسان ، هو وظيفة الدماغ المذكور .
- ٣ - ان الوعي ، من حيث النشوء والمحتوى والدور ، هو اكمل انعكاس للعالم الخارجي .
- ٤ - الوعي والانسان هما نتاج العمل ، على حد سواء .

هذه النتائج هي تأكيد لعمق صحة حل القضية الاساسية في الفلسفة الذي قدمته الفلسفة الماركسية . وهي نتائج تثبت أسبقية المادة على الوعي . وهو أمر لا ينبغي فهمه فقط بمعنى أن الوعي ينشأ عن المادة ، بل وبمعنى أن محتوى الوعي يتحدد بالواقع المادي الذي يعكسه الوعي .

ان تاريخ تطور خاصة الانعكاس تعطينا أيضا جوابا على قضية امكانية

معرفتنا للعالم . فاذا كان الوعي قد نشأ وتطور ، منذ البدء ، كخاصة لانعكاس العالم ، وكوسيلة نهتدي بواسطتها ، ونحدد ، على أساسها ، سلوكنا في الواقع المادي المحيط بنا ، فان واقع سلوكنا السليم انما يتحدث عن أن الوعي المختبر بالتجارب العملية هو انعكاس صحيح للواقع .

٣ : - نقد « نظرية الرموز »

تطابق انعكاس العالم في الوعي مع الواقع

ان القول بأن الوعي هو انعكاس للعالم المادي يعتبر اساس النظرية المادية الخاصة بالمعرفة . فاذا كان الوعي انعكاسا للعالم الخارجي ، فهو ، بالتالي ، ثانوي بالنسبة الى أولوية هذا العالم الموجود بصورة موضوعية ، مستقلا عن الوعي . ذلك أن الانعكاس لا يمكن أن يوجد من غير وجود الشيء المنعكس ، في حين أن الشيء المنعكس يوجد مستقلا عن فعل انعكاسه . والاعتراف بهذا انما يعني نكران وجهة النظر المثالية والاخذ بوجهة النظر المادية .

ان أحد البراهين التي يلجأ اليها المثاليون في محاولتهم دحض نظرية الانعكاس ، يتمثل في هذا الواقع ، مثلا ، واقع أن الاحساسات الضوئية لا تنشأ عن تأثير الضوء على العين فحسب ، بل وتنشأ أيضا عن تأثيرات أخرى ، وخاصة عن ضربة على العين ، أو عن تيار كهربائي . وعلى هذا الاساس ، صاغ الفيزيولوجي الألماني « نظرية تذهب الى أن الاحساسات لاتتعلق بتأثير أشياء العالم الخارجي بل بأعضاء الحواس ذاتها ، بـ « الطاقة النوعية » الملازمة لها . فمهما كان يصدر التأثير على العين ، من أعين برد ، دائها ، رداً واحداً ، ترد باحساس ضوئي . وهو أمر تتميز به أيضا أعضاء الحواس الاخرى . وهذا يعني في زعم « مولر » ، أن احساساتنا ليست انعكاسات للعالم المادي المحيط بنا . وقد سمي « فوريخ » هذه النظرات

بـ «المثالية الفيزيولوجية». ان النظرات التي يعرضها «المثاليون الفيزيولوجيون» لا يمكن اعتبارها مقنعة.

لقد كان «مولير» على صواب عندما لاحظ الخاصة التي يتميز بها رد الفعل لدى أعضاء الحواس، ولكنه أخطأ عندما فسر هذه الخاصة على أنها خاصة موجودة منذ البداية. الواقع أن هذه الخاصة ليست مستقلة عن المؤثرات الخارجية، بل انها مشروطة بطبيعة هذه المؤثرات. وقد نشأت هذه الخاصة نتيجة تطور طويل على أساس تلاؤم وظائف أعضاء الحس مع تأثير مثيرات خارجية معينة. وبالتالي، فان تكون هذه الخاصة، ذاته، لدى أعضاء الحواس هو انعكاس لوجود الكائنات الحية. فالعين، مثلاً، تتلاءم وادراك تأثير الاشعة الضوئية: انها تصور على الشبكية جملة الحزمة الضوئية، وعلى أساس الاثارة الحادثة في الدماغ يتولد الاحساس البصري، تتولد صورة مشابهة للشيء المنظور. صحيح أن المؤثرات المختلفة الواقعة على العضو الواحد من أعضاء الحواس، وخاصة على العين، يمكن أن تحدث احساسات من نوع واحد. الا أنه لا ينبغي تجاهل الفارق الشاسع بين الاحساس الضوئي الناشئ، مثلاً، عن منظر طبيعي منبسط أمامنا، وبين الاحساس الناشئ عن ضربة تصيب العين. الاول عبارة عن احساس لوحة معينة، مفهومة، مشبعة بانسجام الالوان والاشكال، ولها بنية تعبيرية واضحة، وتناسق مقنون بين جميع أجزائها. أما الاحساس الثاني فهو احساس بشيء غير محدد، ولاشكل له، ولا يتمتع بصورة واضحة، ولا ببنية ولا بشخصية متميزة. قد يتراءى لنا أن الاحساسات الضوئية الناجمة عن النظر الى الأشياء، وعن ضربة العين، متشابهة، في كلا الحالين، من حيث الاساس. فالجملة العصبية، والدماغ، في كلا الامرين، يتفاعلان مع شيء مادي واحد من حيث النموذج والطبيعة، شأن الالوان في علبة تلوين الرسام والالوان على اللوحة. الا أن هذا الشيء المادي يختلف كل الاختلاف من حيث الشكل. فهو في علبة التلوين مجرد خريشة، بينما هو في اللوحة أثر في. وهذا الفارق بالذات هو الذي يتمتع

بأهمية حاسمة. ان الاحساسات الضوئية تنشئ صور أشياء العالم الخارجي بفضل البصيلة الملائمة.

يذهب «غيل مغولتز» العالم الطبيعي البارز في القرن التاسع عشر، والأخذ بأفكار «مولر»، الى انه لاتشابه بين الأشياء الخارجية وبين الاحساسات الناشئة عنها، رغم هذا النشوء. وليست هذه الاحساسات سوى رموز وشارات للأولى. وقد كتب «غيل مغولتز» في مؤلفه «فيزيولوجية البصريات» يقول: «لقد اعتبرت الاحساسات رموزاً للظواهر الخارجية، ونفي عنها كل تشابه مع الأشياء التي تمثلها»^(١) كان مذهب اليه «غي مغولتز» عبارة عن خطيئة كبرى، تنسخ نقطة انطلاقه المادية القائلة بوجود الأشياء خارج احساساتنا.

أما بليخانوف الذي عرض في أحد مؤلفاته نظرات مادية، صحيحة، على العموم، فلم يسم الاحساسات انعكاسات أو صوراً، أو نسخاً للأشياء المادية، بل اعتبرها رموزاً هيروغليفية لها. ونظراً للأهمية الفائقة التي تتمتع بها هذه القضية عالج لينين في كتابه «المادية ومذهب النقد التجريبي» نظرية الرموز أو الهيروغليفية، معالجة خاصة.

ان نظرية الرموز، أو الهيروغليفية، تحمل الى نظرية المعرفة، عدم الثقة بدلائل أعضاء الحس. انها تحمل على الشك بوجود الأشياء خارجاً عنا، لان الرموز، لان الشارات أو الهيروغولوف ممكنة حتى بالنسبة الى مالا وجود له في الواقع. وليست صور قوى ماوراء الطبيعة الا برهاناً على هذه الرموز التي تمثل أشياء مزعومة.

تكشف أعضاء الحس لنا الحقيقة الموضوعية، وبمساعدة هذه الاعضاء نتعرف عليها. هذا مايعترف به أي انسان لم تضلله الفلسفة المثالية. يقول

(١) عبارة من كتاب لينين: «المادية ومذهب النقد التجريبي» المؤلفات. الجزء ١٤ ص

لينين : ان النظرية الرموز لاتنسجم مع مثل هذه النظرة (المادية ١٠٠٪ ، كما رأينا) ، وذلك لأنها تشكك بالحس ، تشكك بما تدلنا عليه أعضاؤنا الحسية . ولاشك أن الصورة لايمكن أبدا أن تتماثل كليا مع الاصل ، الا أن الصورة شيء ، والرمز ، والشارة الاتفاقية ، شيء آخر . ان الصورة نفترض بالضرورة وبصورة حتمية أن الشيء المعكوس ذو وجود موضوعي . أما الشارات الاتفاقية ، أما الرمز ، أما الهيروغليف ، فهي مفاهيم تحمل عنصر نظرية عدم امكانية المعرفة ، وهو لاداعي له هنا .

وعلى هذا ، فلا يمكننا أن نكون منطقيين حتى النهاية في نظرية معرفة المادية ، اذا لم ندافع عن النظرية القائلة بأن الاحساسات هي صور ونسخ وانعكاسات الاشياء والظواهر القائمة في العالم المادي ، لا شاراتها الاصطلاحية ، لا هيروغليفيها . ان الذهاب الى أن الاحساسات هي نسخ ، هي صور لاشياء العالم الخارجي ، أو الذهاب الى أنها رموز لهذه الاشياء ، ليس هو مجرد جدل حول الكلمات والاصطلاحات ، بل هو جدل حول جوهر نظرية المعرفة ذاته .

ان أعداء المادية ، اذ يحاولون التشكيك بما تدل عليه الحواس ، هذا التشكيك الذي يؤدي ، كما رأينا ، الى الريبة في وجود الواقع الموضوعي ، وحتى الى انكاره كليا ، ان هؤلاء الاعداء ، غالبا مايتمادون على مايسمى بـ « خداع الحواس » .

يقول هؤلاء الاعداء : لنأخذ شيئين ، موجودين في غرفة واحدة ، وفي شروط واحدة ، أحدهما معدني ، والآخر خشبي . فاذا لمسنا بيدنا الشيء المعدني ثم الخشبي وجدنا ، بشكل واضح ، أن المعدن أبرد من الخشب ، في حين لو قسنا حرارتها بمقياس الحرارة لوجدناها واحدة . وهذا يعني أن احساساتنا قد خدعتنا . زد على ذلك أن الحواس يمكن أن تعطينا في وقت واحد ، شارات متناقضة لشيء واحد . فاذا وضعنا يدنا اليمنى في ماء ساخن ، واليسرى في ماء بارد ، ثم نقلنهما الى ماء عادي ، تبين لنا أن اليد اليمنى تشعر بالبرودة ، في

حين أن اليسرى تشعر بالحرارة ، فأيهما هو الصحيح ؟ وهل يمكننا هنا أن نعتمد على دلائل أعضاء الحواس ؟

ولكن هل صحيح أن أعضاء الحواس التي تعمل بصورة طبيعية نخدعنا فيما تشير اليه ، ولا تعكس الواقع الموضوعي بصورة صحيحة ؟ فلنتمخص المثال المضروب . ان درجة حرارة اليد قرابة ٣٦° ، وحرارة الشيتين اللذين نتلمسهما تعادل حرارة الغرفة ، أي تتراوح بين ١٨° - ٢٠° . فاذا مالسنا الشيتين بيدنا انتقلت حرارة اليد اليهما وفي قانون الفيزياء القائل بأن الحرارة تنتقل من الاجسام التي تتمتع بحرارة أعظم الى الاجسام التي تتمتع بحرارة أدنى . غير أننا عندما نلمس الخشب تتدفق حرارة اليد ببطء لسوء نقله اياها ، أي لارتفاع حرارة غير الجزء الملموس منه تقريبا . أما في المعدن فحرارة اليد تسري بسرعة أعظم بسبب حسن نقله للحرارة وبسبب انتشاره في شتى أنحاء المعدن . وماتقله الينا احساسات جلدنا الملامس للشيتين ليس هو غير انعكاس للفارق بين سرعتي انتقال الحرارة . وهكذا نرى أن هذه الاحساسات ليست بعيدة عن خداعنا فحسب ، بل وتعكس لنا ناحية أخرى من الواقع ، هي ناحية الفارق في نقل الحرارة عند الشيتين المذكورين . مما يدفعنا الى ضرورة دراسة الواقع بشكل أدق .

وعلى هذا الاساس أيضا يفسر التناقض في مدلولات أعضاء الحواس . ان أعضاء الحواس لاتخدعنا ولكنها تبين أن العمليات تسير في الاجسام بشكل متباين تبعا لتباين أحوال الاشياء ، وماكانت عليه قبل بدء العملية المذكورة . لقد كانت يدنا اليمنى ، في المثل الذي ضربناه ، ساخنة في حين كانت اليسرى باردة . فلما وضعناهما في ماء واحد بدأت اليمنى تفقد بعض حرارتها ، في حين بدأت اليسرى تكتسب من حرارة الماء . وهذا بالذات ماتشير اليه احساساتنا . نستنتج من هذا ان مدلولات أعضاء حواسنا التي هي مصدر جميع مانعلم عن العالم ، ينبغي استقراؤها وتحليلها بشكل صحيح . آنذاك نتبين أنها ذهبت في صحة عكسها للواقع أكثر مما كنا نتوقع في البداية . وليس هذا بالامر الغريب .

الواقع أننا في حياتنا نتعلم، تدريجياً، تفسير ماتدلنا عليه أعضاء الحواس، فالطفل لا يدرك، في فجر طفولته، الفوارق بين أبعاد الأشياء : انه لا يرى القمر أبعد من الكرة، وببذل جهدا واحدا لنوال ذاك وتلك. أما الانسان الراشد الذي ولد فاقد البصير، ثم أعيد اليه بصره اثر عملية جراحية، فهو لا يدرك في الفترة الاولى لاستعادة بصره، تباعد الاجسام. فيبدو له كما لو أن الأشياء جميعا قائمة بالقرب منه، ويخاف أن يتعثر بها في حين أنها بعيدة عنه. وهو لا يكتسب القدرة على حسن استخدام عضو النظر لديه الا تدريجياً، وبمساعدة بصره يكتشف دائماً جوانب جديدة وجديدة من الواقع. ولكن « حسن استخدام » أعضاء الحواس، انما يعني ربط نشاطها بنشاط التفكير. ولا يمكن الوصول الى عكس الواقع عكسا صحيحا الا عند توفر الوحدة التي لا انفصام لها، بين الاحساسات والتفكير.

وهكذا فليس هناك مجال للشك المبدئي بما تدلنا عليه أعضاء حواسنا. ولكن هذا لا يعني أن الاحساسات تعطي صورة دقيقة كل الدقة عن الواقع الموضوعي، في ذات اللحظة التي يصبح فيها هذا الواقع موضع ادراك أعضاء حواسنا. ان الصورة الاولى للأشياء المادية تتوضح وتغتني وتتكامل تدريجياً، على أساس الادراكات المتكررة كثيراً، وعلى أساس عمل الفكر المتحقق منه بمختلف أعضاء الحواس، وعلى أساس نشاط الانسان العملي المتعدد الجوانب.

ان انعكاس الأشياء في وعينا لا يحدث مرة واحدة، وهو ليس صورة جامدة لا حياة فيها، بل هو عملية تمر في مراحل متعددة، هو عملية فاعلة من البحث والتجريب تقود أحيانا الى تجرد الفكر عن الواقع. وكما ان الفنان المزود بقماش اللوحة والالوان لا يستطيع رسم لوحته اذا ما جلس الى جانب أشياء دون أن يحرك ساكنا، ودون أن يرسم بفرشاته، كذلك الناس الآخرون لا يستطيعون عكس العالم الخارجي في وعيهم بعمق اذا لم يكونوا ايجابيين وفعالين، ولم يقيموا بين الأشياء علاقات مختلفة.

يقول لينين : « ان الاحساس عبارة عن صورة ذاتية للعالم الموضوعي »^(١) وهذا يعني أن الصورة (الانعكاس) موجودة في وعي الذات، وأنها ليست مادية بل ذاتية. وكون الصورة على هذه الحال انما هو مشروط ببنية الجملة العصبية، ببنية الدماغ، بطبيعة نشاطها. بيد أن هذه الصورة الذاتية هي انعكاس للعالم الموضوعي. وانعكاس العالم الخارجي في الوعي هو شيء موضوعي من حيث نشوؤه ومصدره ومحتواه. وبفضل هذا، يتوفر في احساساتنا، في وعينا، ذاك الشيء الذي لا يتعلق بالذات. لا يتعلق بوعي الانسان. هذه التصورات والافكار التي يتناسب ويتطابق محتواها مع الأشياء التي يعكسها الوعي، وبالتالي لا يتعلق لا بالانسان، ولا بالانسانية، هذه الأفكار والتصورات تسمى بالحقيقة الموضوعية.

ان الاعتراف بالحقيقة الموضوعية هو أحد الاركان الاساسية في المادية : « فلكي يكون الانسان ماديا لا بد من اعترافه بالحقيقة الموضوعية التي تكشفها لنا أعضاء الحواس »^(٢).

ويعني وجود الحقيقة الموضوعية أن العالم ليس ماديا فحسب، بل ومن الممكن معرفته أيضاً، لان التعرف على العالم يعني امكانية التوصل الى الحقيقة الموضوعية. والمادية، اذ تعترف بهذه الحقيقة، تعطي حلاً صحيحاً للناحية الثانية من قضية الفلسفة، الاساسية، وتدحض مذهب استحالة المعرفة.

ولما كان الوعي يعطي الصورة الحقيقية عن العالم شيئاً فشيئاً، لادفعة واحدة، لذا فان الانسان الذي لا يؤمن بامكانية المعرفة يتيه في بحر من الشكوك. فهو لا يعرف فيما اذا كنا نستطيع، في مثل هذه الحال، التعرف على الواقع الموضوعي أم لا ؟ واذا كنا نشك في صحة معرفتنا له فكيف نستطيع التعرف على وجود هذا الواقع أو عدم وجوده ؟

بيد أن هذه الشكوك كلها ليست غير ثمرة للطريقة الميتافيزيقية المعادية

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ص ١٠٦.

(٢) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ص ١٢٠.

للدوالكتيكية في معالجة عملية المعرفة. وذهابنا الى أن الواقع لا يمكن التعرف عليه دفعة واحدة، لا يعني أن مانعرفه عنه الآن غير صحيح. ان أنصار نظرية عدم امكانية المعرفة، والمثاليين الذاتيين ينكرون الحقيقة الموضوعية. غير انه يمكن التعبير عن وجودها، بحصولنا، عمليا على النتائج التي كنا ننتظرها، على وجه العموم، وذلك انطلاقا من معارفنا عن الاشياء والعالم الخارجي. أما عدم نجاحنا في ذلك، فهو يعني اننا سنكشف، عاجلا أم آجلا أخطاء في معارفنا ومحاكياتنا، لا بد من اصلاحها. وقد سخر « تشيرنيشفسكي » في مقاله « طابع المعرفة الانسانية » سخرية لاذعة من المذهب المدرسي الريبي العقيم الذي يأخذ به أنصار استحالة المعرفة. وقد اتخذ « تشيرنيشفسكي » من محاكمة القائل باستحالة المعرفة الدائرة حول تمتع الانسان بيدين أم لا، مصدراً لسخريته هذه. يقول « تشيرنيشفسكي » ان الانسان الذي يدوله أن يديه سلميتمان، يدوله كذلك، أن له يدين اثنتين. ولو أنه قدر لهذا الانسان أن يعرف أن له يدين، اذن لكان له يدان اثنتان. ولكن هل هو ذو يدين اثنتين أم لا ؟ هذا أمر لا يعرفه ولا يستطيع أن يعرفه، لاهو ولا أحد غيره من الناس. نحن لانعرف غير تصوراتنا عن الاشياء. أما الاشياء ذاتها فلا نعرفها ولا نستطيع معرفتها. وبما أننا لانعرف الاشياء لذا لانستطيع مقارنتها بتصوراتنا عنها. ولهذا لانستطيع معرفة ما اذا كانت تصوراتنا عن الاشياء شبيهة بالاشياء. ربما كانت شبيهة بها، ولكن قد تكون غير شبيهة بها. ان لدينا تصوراً عن اليد، وبالتالي، فهناك شيء ما يثير فينا التصور عن اليد. ولكننا لانعرف ولا نستطيع أن نعرف فيما إذا كان تصورنا عن اليد يشبه هذا الـ « شيء ما » الذي يبعث فينا التصور. ربما كان التصور شبيهاً به، وفي هذه الحال يكون الشيء الذي نتصوره يداً، يداً، في الواقع. ويكون لدينا يدان واقعيتان. بيد أنه ربما كان تصورنا عن اليد غير مشابه للـ « شيء ما » الموجود فعليا، الذي ننسب هذا التصور له. وفي هذه الحال يكون الشيء الذي نتصوره يداً غير موجود، وبالتالي لا وجود للأيدي لدينا. ونحن نملك، عوضاً

عن اليدين، مجموعات ما لشيء ما، مجموعات ما لاتشبه اليدين، لشيء ما لمجهله، ولكننا لانملك يدين... »^(١).

تتصف الحقيقة الموضوعية بأنها : (١) غير متوقفة على عدد المعترفين بها سواء قلوا أم كثروا. وغالبا ماتحظى الحقيقة. وخصوصا في مجال المسائل العلمية للعقدة باعتراف قلة من الناس، في بادئ الامر. (٢) تنتزع الاعتراف بها، عاجلا أم آجلا، متغلبة على الاوهام والترهات، حتى ولودعمت هذه بالقوة. ولنتذكر في هذا المجال تعاليم « كوبرنيك ». ان ملاحقة الكنيسة لانصار هذه التعاليم لم تستطع الوقوف في وجه انتشارها. كما أن الماركسية التي لم يكن يعترف بها منذ قرن سوى حفنة من الناس، أصبحت الآن نظرية تعتنقها ملايين غفيرة من الجماهير غازية القلوب والعقول. (٣) تؤدي الى نتائج ناجحة في النشاط العملي فيما اذا أحسن استخدامها.

ربما لا يوجد في العالم فلاسفة ينفون وجود الحقيقة على العموم. ان أمثال هؤلاء الفلاسفة سيفشلون سريعا وهم يغوصون في تناقضات لاخرج لهم منها. وهم لا يستطيعون حتى القول بأن انكارهم للحقيقة أمر حقيقي. والا فهم سيعترفون بوجود حقيقة واحدة على الاقل، وبالتالي فستهار مواقعهم. ان كثيرا من أعداء المادية لا ينكرون الحقيقة على العموم، بل الحقيقة الموضوعية « فقط ». وهم يفسرون الحقيقة حسبما يحلو لهم فيذهب الماخيون منهم الى ان الحقيقي هو « الامر ذو الاهمية العامة »، في حين يذهب البراغماتيون الى أن الحقيقي هو الذي يؤمن النجاح. ان جوهر الحقيقة قائم في الموضوعية، وبانعدام الموضوعية تنعدم الحقيقة. لهذا كانت محاولة الماخين والبراغماتيين خلق « الحقيقة » من دون الاعتراف بموضوعيتها، لاصلة لها بالمعرفة الحقيقية القادرة الجبارة. والحقيقية الموضوعية ستصبح، عاجلا أم آجلا، أمراً ذا أهمية عامة، أي معترفاً به من العموم. بيد أن هذا ليس هو الشيء الرئيسي فيها.

(١) تشيرنيشفسكي : « المؤلفات الفلسفية المختارة » الجزء الثالث ١٩٥١ ص ٥٣٦ - ٥٣٧.

المهم لاعدد الناس المعترفين بها، (اذ أنها لا تتوقف على الانسان أو الانسانية) بل المهم هو كونها صحيحة أم لا، وهل تتناسب مع الواقع الموضوعي أم لا ؟ فمن المعروف أن تعاليم خاطئة، كالاوهام اللاهوتية، غالبا ماتغزو عقول عدد كبير جداً من الناس، ومع هذا فهي لاتصبح صحيحة لهذا السبب وحده. ان هذه النظرية أو تلك لاتعتبر حقيقية لمجرد انها ذات اهمية عامة، بل لانها تعكس الواقع اعكسا صحيحا، وتتأكد صحتها بالممارسة العملية. صحيح ان الحقيقة التي تطبق في الواقع تطبيقا صحيحا تؤدي الى النجاح، ولكن ليس كل مايؤدي الى النجاح هو الحقيقة بصورة عامة. يدل على ذلك أن بعض الناس اللا أخلاقيين ينجحون عن طريق الغش والخداع. ان الحقيقة الموضوعية هي الكنز الثمين الذي من أجله تعمل حواسنا وتفكيرنا بلا انقطاع، مكملا بعضها بعضا، وبفضله ترتقي المعرفة الانسانية من درجة الى أخرى.

٤ - الكلام والتفكير

ان التفكير المجرد والمعمم والحادث بواسطة المفاهيم المعبر عنها بالكلام أمر خاص بالانسان وحده. لقد أدى الارتقاء البيولوجي الى تطور العالم الحيواني حتى الدرجة التي نجدها عند أسلاف الانسان - الانسان القرد - ذوي المجموعة العصبية الرفيعة التطور، والقادرة على السير قدما نحو الكمال. بيد أن تحول سلفا - الانسان القرد - الى انسان، لم يكن نتيجة عوامل بيولوجية، بل نتيجة عوامل جديدة، أي نتيجة العمل الاجتماعي الذي أصبح نقطة انطلاق تطور لاشبيه له فيما تبقى من ظواهر الطبيعة. يقول انجلز: « ان العمل » بمعنى معين، هو الذي خلق الانسان. وقد ظهر الكلام والتفكير بفضل نشاط الانسان العملي، بالذات. ان الاستعمالات الاولى لاشياء الطبيعة، بصفتها أدوات للعمل، واعداد هذه الادوات الواعي، بشكل خاص، عملا على توسيع أفق الانسان البدائي توسيعا كبيرا، بأن كشفاه عن خواص

جديدة للاشياء المحيطة به.

وقد حقق الناس، فيما بعد، في سياق العمل الاجتماعي، اكتشافات جديدة وجديدة وسعت أفق تصوراتهم وادراكاتهم الحسية، وعملت على تطوير تفكيرهم تدريجيا. وقد أتاح التفكير، بدوره، امكانيات جديدة أمام تطور النشاط العملي الذي أدرك الناس في سياقه فوائد العمل الجماعي. يقول انجلز: « وبكلمة موجزة، لقد توصل الانسان الذي هو في سبيل التكون كائنسان، الى مرحلة ظهرت فيها الحاجة الى أن يقول شيئا ما للانسان الآخر. فخلقت الحاجة عضوها الخاص. كانت حنجرة القرد اللا متطورة تتحول، عن طريق التنغيم ببطء، ولكن بصورة متواصلة، الى حنجرة قابلة للتنغيم أكثر فأكثر، في حين كانت أعضاء الفم تتعود تدريجيا على لفظ أصوات متتالية مؤلفة من مقاطع »^(١). هكذا نشأ الكلام المؤلف من مقاطع، اللغة، كما نشأ معه التفكير. ولم يكن بمقدور الكلام والتفكير أن ينشأ كخاصة شخصية لهذا الفرد أو ذاك. انهما، من حيث المصدر والمحتوى، يتصفان بطابع اجتماعي واضح. يقول ماركس وانجلز « ان الوعي كان منذ البداية، نتاجا اجتماعيا، وسيظل كذلك مادام هناك بشر على العموم »^(٢).

ماان يظهر الكلام حتى يؤثر تأثيرا عظيما على النشاط العملي. فبدون الكلام الذي يربط بين الناس يتعذر الانتاج الاجتماعي العقلائي، في حدود واسعة الى حد ما. كما يؤثر الكلام أيضا على الناس الناطقين به، ذاتهم. ان العمل والكلام المؤلف من مقاطع يصبحان العاملين الرئيسيين في تطور الدماغ. وهو أمر يرافقه تحسن في تطور أعضاء الحواس. فيما يلي برهان على مدى أثر النشاط العملي في تطوير هذه الاعضاء. ان الخبراء من عمال النسيج المتخصصين في نسيج الاقمشة السوداء، يميزون حتى ٤٠ فارقا في اللون

(١) انجلز: « دياكتيك الطبيعة » ص ١٣٤.

(٢) ماركس وانجلز: « المؤلفات » الجزء الثالث ١٩٥٥ ص ٢٩.

الاسود، في حين لا يميز الآخرون أكثر من فارقين أو ثلاثة. كما أن الطحانين ذوي الخبرة الواسعة يستطيعون بالاعتقاد على حاسة اللمس لديهم، تحديد نوع الطحين تحديداً دقيقاً، ومعرفة المكان الذي أنبت قمحه. وتبلغ احساسات الشم عند الانسان درجة من الدقة والتحسس غير عادية فيما اذ دعت الحاجة العملية لذلك. وهكذا نجد مقتفي الآثار الافريقيين يتتبعون عن طريق الشم، الاسود والزرافات وحير الوحش، تتبعاً أفضل من كلاب الصيد.

ان فكرة الانسان يعبر عنها بالكلام. هذه الفكرة ذات غلاف لغوي عادة. فعندما ينقل احد الناس فكرته الى الآخر، يعبر عنها بالكلمات الملفوظة بشكل مسموع من الآخرين. هناك من يبدو لهم أن الكلام لا لزوم له الا من أجل إيصال الفكرة الى الآخرين. لذا فالكلام لا يلزم الانسان نفسه من أجل التعبير عن أفكاره. وهذا خطأ. فكما أن اللوحة التي يرسمها الفنان لا تتكون الا نتيجة وجود الالوان، فنيا، على القماش، كذلك الفكرة لا توجد عند الناس الطبيعيين الا بسبب وجود الكلمات والكلام. ولا يمكن لاحدهما أن يوجد من غير الآخر. يقول ماركس: « اللغة هي الواقع المباشر للوعي، هي المادة الطبيعية للفكرة. ان مرد الرأي الخاطئ الذاهب الى أن الافكار يمكن أن توجد بدون الكلمات، هو أن الانسان عندما يفكر في ذاته، لا يلفظ عملياً، لا بصوت مسموع، ولا بينه وبين نفسه، جميع الكلمات التي كان ينبغي أن يلفظها لو أنه أراد إيصال فكرته ذاتها الى شخص آخر. كما أن الانسان يشعر، أحياناً، بصعوبة كبيرة في اختيار الكلمات اللازمة، أو كما يقال، « لا يجد الكلمات » لكي يعبر الآخرين عن فكرته، ويوضحها لهم، مع أن هذه الفكرة تبدو واضحة تماماً بالنسبة اليه. هنا تبدو الكلمات لا قاصرة عن التعبير عن الفكرة فحسب، بل انها تجعل من الصعب فهمها. بيد أن هذا لا يعني اطلاقاً أن الفكرة المعنية توجد من غير غلاف كلامي. فنحن عندما نفكر في ذاتنا لانعطي، في الغالب، الاعظم، تعبيراً كلامياً مفصلاً لافكارنا. ولكن اذا لم نجد، هنا، جميع الكلمات اللازمة لصياغة الفكرة بشكل مفصل واضح،

فلا بد من وجود هذه الكلمات أو تلك، دائماً. ونحن عندما نحاول التغلب على الصعوبات في انتقاء الكلمات اللازمة نصيغ الفكرة ذاتها. وعندما نعطي الفكرة تعبيرها الكلامي الكامل، تصبح هذه الفكرة واضحة ودقيقة ومنسجمة. فالغلاف الكلامي المفصل يسبغ على الفكرة أعظم قدر من الكمال لا من حيث الصيغة فقط، بل ومن حيث المضمون أيضاً. ولا ينبغي أن نستنتج من قولنا بأن الفكرة واللغة غير منفصلتين، انها شيء واحد. ويتجلى الفرق بينهما في أن الفكرة عبارة عن انعكاس الواقع الموضوعي، في حين أن الكلمة هي وسيلة التعبير، وسيلة تثبيت الفكرة، بالإضافة الى أنها وسيلة نقل الفكرة للآخرين. وبفضل الكلمة بالذات، يمكن أن ندرك أفكار الآخرين. واذا كانت الفكرة لا توجد من غير كلمات، كذلك الكلمات تصبح مجرد أحرف فارغة من دون الفكرة، من دون ماتعكسه الفكرة: ان التفكير واللغة مترابطان ترابطاً وثيقاً فيما بينهما، ويشترط أحدهما الآخر.

ان أشياء العالم المحيط بنا، وظواهره، تنعكس مباشرة في الاحساسات التي تثيرها تلك الأشياء والظواهر. وهذا ماندعوه بالانعكاس الحسي للأشياء والظواهر الحسية مع جميع فوارق خصائصها الفردية. الا أنه ينشأ، على أساس الاحساسات، كما رأينا، شكل انعكاس ينعكس فيه، في اللحظة الراهنة، مالا يؤثر مباشرة على أعضاء الحواس، ولكنه يمثل بشيء آخر أو ظاهرة أخرى، تشير الى الشيء الاول. وهو أيضاً انعكاس للواقع، مجسد، حسي، مع فارق توفر خطوة الى الامام في طريق التجريد والتعميم. ان امكانية التجريد مشروطة بأن الاشارة المدركة من قبل أعضاء حسنا هي شيء متميز تماماً عما ترمز اليه هذه الاشارة بظهورها، كما أنها مشروطة أيضاً بأن ظاهرة واحدة يمكن أن يشار اليها، في ظروف مختلفة، باشارات متباينة. وبالإضافة الى ذلك فان كل اشارة من هذا النوع، باعتبارها شيئاً أو ظاهرة معينة بدقة، تخدم كممثل لظاهرة معينة بدقة. انها اشارات حسية للأشياء والظواهر الحسية. أما نشوء نظام الاشارات الثاني للواقع، عند الانسان، فقد أفصح

امكانيات لاحد لها، فعلا، أمام تطور الانعكاس المعمم والمجرد المتزايد، أمام تطور الانعكاس في المفاهيم. فالكلمة التي هي اشارة تستخدم كممثل لا لاشارة ما واحدة، بل لمجموعة كبيرة من الاشارات المتماثلة في نموذجها، وهي متشابهة في الامر الرئيسي والجوهري رغم تباينها في تفاصيلها. لهذا لا ينعكس فيها شيء ما واحد ملموس، بل عدد من الاشياء والظواهر الموحدة الانموذج، وعدد من الروابط التي تربط هذه الاشياء والظواهر بعضها ببعض. فكلية الفرجار لاتعني فرجارا بعينه، مع مايلازمه من خصائص فردية، بل الفرجار على العموم، أي نموذجا أو جنسا معينا من الاشياء، سواء أكان طوله ١٥، ١٦ أو ١٧ سم؛ وسواء أكان مصنوعا من المعدن أو صنعت بعض أجزائه من البلاستيك... الخ. والقول ذاته ينطبق على الكلمات الأخرى. نستنتج من ذلك نتيجة هامة جدا: هي أن الكلام عبارة عن تجريد للواقع، وهو يقوم بدور وسيلة للتعميم والتجريد. يقول لينين: «كل كلمة عبارة عن تعميم»^(١) مع هذه الخاصة للكلام يرتبط شكل النشاط النفسي الخاص بالإنسان، وهو تكوين المفاهيم واستعمالها، أي التفكير النظري. فبفضل الكلام بالذات، أصبح بإمكان الوعي استعمال لا ماتقدمه الاحساسات في وقت معين فحسب، بل وماقدمته في السابق، ومايمكن أن تقدمه في المستقبل. وبفضل ذلك نشأت امكانية فصل خاصة الشيء، ذهنيا، عن الشيء ذاته، امكانية تجريد بعض خواص الاجسام عن بعضها الآخر، مما وسع كثيرا نطاق المعرفة.

ليس الكلام اشارة للشارات الا عندما ينشأ على أساس الاحساسات التي تعكس الاشياء المادية الموافقة. فاذا انعدمت الاشياء أصبحت الكلمة فارغة، محرومة من الفكرة، ولا معنى لها.

لنفترض أن الرسام أرسل شخصا ما لاحضار فرجار قائلا: أرجوك احضار فرجاري. ان كلمة فرجار، بذاتها، لاتشير لدى هذا الانسان تلك

(١) لينين: «الدفاتر الفلسفية» ص ٢٥٦.

الاحساسات التي يشيرها الفرجار عندما ننظر اليه أو نلمسه بأيدينا. وهذه الكلمة ليست الا اشارة الى الاحساسات التي يعانيتها الانسان عندما يجد الفرجار. بيد أنه، اذا كان الانسان الذي توجه اليه الرسام برجائه لم يسبق له أن شاهد الفرجار أبدا، ولاثير فيه هذه الكلمة تداعيا لمجموعة احساسات معينة ناشئة على أساس تجربته الحسية الشخصية، فان كلمة فرجار لاتستطيع القيام بدور اشارة للشارات.

وماتقدم لاي معنى أن الاحساسات لاتعكس الامر العام الموجود في الاشياء والظواهر الحسية، والا لما انعكس هذا الامر العام بواسطة الفكرة والكلمة. فعندما نتحسس رائحة أزهار مختلفة نستطيع أن ندرك، حسيا، الشيء العام الملازم لرائحة الازهار كجنس معين من النبات. الا أن هذا للشيء العام في الاحساس، متصل اتصالا وثيقا بالخاص^(١). وهو في الكلمة ينفصل عن الخاص ويتجرد عنه. الا أن حدوث هذا التجريد بمساعدة الكلمة كان مسبقا بتحسين تدريجي في المقدرة على تمييز الشيء العام الذي يحتويه الخاص، بواسطة الاحساس.

ان اكتساب القدرة على ذلك التوسع في التعميم القائم في كلام الانسان المثقف المعاصر، المعتاد على التفكير المجرد، لم ينشأ دفعة واحدة مع ظهور الكلمة مباشرة. كانت مقدرة الانسان البدائي على التفكير المعمم ماتزال هزيلة رغم بدئه بالكلام. كانت لغته لاتحتوي الا على القليل من المفاهيم العامة، كما أن عمومية هذه الأخيرة كانت محدودة. ويمكن التثبت من ذلك عند دراسة لغة بعض القبائل المتأخرة المعاصرة، علما بأن هذه القبائل قد قطعت أشواطا بعيدة الى الامام اذا ماقورنت بقبائل الزمن البدائي. هكذا نرى أن لغة احدى القبائل تحتوي على ٧٥ كلمة للتعبير عن عمليات السير التي تتباين فيما بينها بفوارق بسيطة، وعلى أكثر من ١٠ كلمات للتعبير عن

(١) الخاص هنا احدى مقولات الخاص والعام والوحيد الفلسفية.

الطبخ، ولكنها لا تحتوي على أية مفاهيم عامة لعمليتي السبر والطبخ. وهناك بعض القبائل الشمالية التي تعبر بكلمات منفردة عن الثلج مقرونا بحالات معينة ك: «الثلج على الأرض»، «الثلج المتساقط»، «الزوبعة الثلجية»، «الثلج المتراكم»، ويزيد عدد مثل هذه التعابير لديها عن أربعين، في حين ان لا يوجد لديها كلمة عامة تعني الثلج بالذات. وهناك قبائل لا تحتوي لغتها على كلمة عامة تعني «عجل البحر»، بل تحتوي على تعابير كالتالية: «عجل البحر على قطعة من الجليد»، «عجل البحر في الماء»، «عجل البحر المتسلق على قطعة الجليد». الخ. بيد انه مهما بدا تقصير هذه اللغة في التعميم، فهي، في الواقع، ذهبت بعيدا بالنسبة الى نظام الشارات الاول، وحتى بالنسبة الى رشيئات الكلام الاولى. انها تحتوي على تعاميم كبيرة يعبر بفضلها عن الثلج، بمختلف أشكال تراكمه، بكلمة معينة، كما يعبر عن «عجل البحر» المستلقي على الجليد بكلمة معينة أيضا على الرغم من الفوارق الملازمة لوضع عجل بالنسبة الى آخر. وفي هذا تتضح المسافة الشاسعة التي تفصل مستوى تطور الوعي الانساني هذا عن المستوى الذي كان عليه وعي الانسان البدائي.

يتألف الكلام، قبل كل شيء، من كلمات، وهذه من مقاطع صوتية. فما هي العلاقة القائمة بين هذه الاصوات وبين الظواهر والاشياء التي تعنيها؟ ان الاصوات عبارة عن اشارات اصطلاحية وضعتها الشعوب خلال تعايشها عبر القرون الطويلة. ولا توجد ولا يمكن أن توجد أية علاقة سرية بين هذه الاصوات والاشياء التي تدل عليها. ان تصور قيام علاقة خفية بين أصوات الكلمات وبين الاشياء هو تصور مخلق ومن صنع المشعوذين، الذين يدعون بوجود أسماء «حقيقية» ما للاشياء والناس، اذا ما نطقنا بها استطعنا التأثير على الاشياء وعلى الناس، وتقرير مصيرهم. ان ما يدحض، عمليا، وجود أية علاقة سحرية، سرية، بين الاشياء والكلمات المعبرة عنها هو أن الشيء الواحد يعبر عنه، عند مختلف الامم، بالاعتماد على أصوات مختلفة. ان الشيء الذي

يسميه الروس «ستول» (أي طاولة)، يسميه الالمان «ديرتيخ»، والافرنسيون «تابل». الخ. بيد أنه اذا كان تركيب الكلمات من الاحرف يمكن أن يحدث اتفاقا أو عرضا، فان ماتعنيه هذه التراكيب الكلامية والكلمات ليس عرضا، ولا اتفاقا. فالناس في نشاطهم العملي يحتكون بالاشياء والظواهر. لهذا لا بد للغة من أن تحتوي على تلك الكلمات التي تعني الظواهر والاشياء الضرورية لمعيشة الناس. وبما أن الناس يستخدمون الخواص المتنوعة لهذه الاشياء والظواهر، لذا، لا بد وأن تشتمل اللغة على كلمات تعبر عن هذه الخواص. كما ينبغي أن تنشأ تلك الكلمات التي تعبر عن حركة الاشياء، وعن تأثير بعضها على بعض، وعن الروابط فيما بينها، مادام هذا ضروريا للناس. وقد أدى نشاط الناس العملي الى نشوء الكلمات التي تعني علاقات الاشياء المكانية والزمانية. كما كان لا بد من نشوء الكلمات التي تعني العلاقة بين الناس، بعضهم ببعض، وبينهم وبين الظواهر المحيطة بهم. ان حاجات العلم وتطوره أدت الى نشوء كلمات جديدة تعبر لاعتن الاشياء وخواصها المدركة حسيًا، فحسب، بل، وعن العلاقات الخفية الدفينة في أعماقها، وعن قانونياتها وجوهرها. كما كان لا بد أيضا من ظهور كلمات تعني خواص العلاقات والصلات بين الاشياء، وكلمات تعني كلمات أخرى وتعبر عن العلاقات بين الكلمات.

وعلى هذا، فكل ما يتمتع بمعنى كلامي، ويدخل متن اللغة تحت شكل كلمات، لا يمكن أن يكون عرضيا ولا اتفاقيا، وهو يتحدد، بالضرورة، بحاجات الشعب العملية الهامة معاشيا، وبحاجات التفكير المتطور لكي يعكس الواقع الموضوعي بشكل أدق. ان اللغة والتفكير يعكسان ما يعرفه الناس عن العالم الخارجي وعن أنفسهم، كما يعكسان ما يعرفه الانسان من وسائل المعرفة التي هي في حوزته، في الفترة الراهنة.

ان المجتمع هو عبارة عن كل معين يتألف من اقسام مكونة (عناصر) متعددة الاشكال . ان التفاعل الالزامي والتشارط الالزامي بين المواضيع والظواهر الاجتماعية ، بين العلاقات والعمليات يخلقان الاساس البنوي للمجتمع بوصفه نظاماً اجتماعياً . والمجتمع ، مثله مثل كل نظام مادي ، قادر على ان ينتج بنفسه عناصره الاساسية ، على ان يضبط بنفسه العمليات الاجتماعية ، وعلى ان يتطور في اتجاه معين .

ان هذا الوصف المجرد للانظمة الاجتماعية بالمقارنة مع الانظمة المادية لا يوفر بعد البتة الامكانية لتحليل وتفهم الفوضى الظاهرية من الوقائع التاريخية والاحداث والظواهر العديدة . والفلسفة الماركسية - اللينينية لا تنحصر في اداء وظيفة عقائدية ومعرفية دون دراسة التفاعل بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي ، بل تدرس كذلك اعم قوانين عمل وتطور المجتمع وقواه المحركة ، بارزة بالتالي بوصفها نظرية عامة وطريقة عامة لمعرفة الحياة الاجتماعية وتحولها .

ان السوسيولوجيا (علم الاجتماع) العلمية تنطلق ، اولاً ، من اولية (اسبقية) اساس الحياة الاجتماعية المادي ، وثانياً من دوره المحدد في العمليات الاجتماعية والسياسية والروحية . وبواسطة مثل هذه الطريقة فقط ، كان يمكن تحليل المعايير العلمية لدن تقسيم التاريخ العالمي الى مراحل ، وملاحظة التكرار بصورة معينة في تطور الظواهر الاجتماعية ، واكتشاف الاتجاه الاساس والميل الموضوعي للعمليات التاريخية . فان كلا من درجات تطور المجتمع التاريخية ، كما بين ماركس ، تتميز بصله متبادلة ملموسة بين

الفصل الرابع

قوانين تطور المجتمع بوصفه نظاماً اجتماعياً

جميع جوانبه، وتشكل نظاما اجتماعيا واحدا متكاملا، يسمى التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية. ان مفهوم التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية قد اقام علم الاجتماع للمرة الاولى على اساس علمي، واصبح المفهوم المركزي للطريقة العلمية في السوسيولوجيا (علم الاجتماع). وهذه الطريقة، كما قال لينين، تلتخص في كونها «تعتبر المجتمع جهازا عضويا حيا في تطور دائم (لاشيئا مترابطا بصورة ميكانيكية ويتبع بالتالي انواع التركيبات الاعباطية بين مختلف العناصر الاجتماعية)، جهازا تتطلب دراسته تحليلا موضوعيا لعلاقات الانتاج التي تكون تشكيلة اجتماعية معينة، ودراسة لقوانين عملها وتطورها»^(١).

العناصر البنوية للتشكيلات الاجتماعية الاقتصادية

يتضمن مفهوم التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية، بوصفها مجتمعا ملموسا محدد تاريخيا، جميع الظواهر الاجتماعية المتعددة: الناس انفسهم، وانواع نشاطهم، والجماعات التاريخية الملازمة لهم (المهنية، والاجتماعية السلالية، والعائلية، والطبقية)، ومعيشتهم، ومختلف انواع التنظيم وغير ذلك. ولكن الوجه التاريخي لهذه التشكيلة او تلك، ومكانها ودورها انها تحددها عناصرها البنوية الاساسية. ولكن اسلوب انتاج وتجديد انتاج الحياة الاجتماعية، والبناء التحتي والبناء الفوقي هي العناصر البنوية الاساسية المشتركة بين جميع التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية.

اسلوب الانتاج. ان انتاج وسائل العيش كان اول عمل تاريخي على تحول

(١) لينين. «من هم اصدقاء الشعب» وكيف يحاربون الاشتراكية - الديمقراطية؟ دار التقدم. موسكو. ١٩٦٤. ص ٥٠.

القطيع البشري الى مجتمع. فان الانتاج هو نشاط الناس العملي الهادف لأجل صنع وسائل تلبية الحاجات الطبيعية الى المأكل والمشرب والملبس والسكن وما الى ذلك. والفكرة العامة عن الانتاج يعمقها ويوضحها المفهوم العلمي لاسلوب الانتاج الذي يميز انواعه ودرجات تطوره المحددة تاريخيا. ان اسلوب الانتاج، كل اسلوب، هو عبارة عن وحدة تاريخية ملموسة بين جانبين مترابطين بصورة لا انفصام لعراها هما القوى المنتجة وعلاقات الانتاج.

القوى المنتجة هي وحدة للعمل المكندس والعمل الحي محددة تاريخيا وتشكل في آخر المطاف النتيجة الموضوعية لطاقة الناس العملية. فان تحويل المواد الطبيعية الى اشياء تلبى حاجات الناس يجري دائما عن طريق تأثير الناس في مواضيع العمل بواسطة الادوات التي صنعوها (التكنيك، مجموعة الآلات). ان قوة العمل الانساني المنتجة تتألف من عنصر مادي (هو على اغلب الادوات، والتكنيك، والآلات) وعنصر شخصي (مهارات وعادات الانتاج والمعارف والقدرة عند المنتجين المباشرين، الشغيلة).

ان الفهم العلمي للعناصر التي تتكون منها القوى المنتجة. ولتفاعلها وطابعها الاجتماعي التاريخي ومستوى تطورها، يضطلع بدور هام في الممارسة الشورية. فقبل كل شيء، يمكن بفضل هذا الفهم اعطاء تقييم صحيح لخاصية تطور وحالة القوى المنتجة الوطنية.

ان تطور الشعب، كل شعب، في سياق التاريخ يرتبط بعري لا انفصام لها بظروف اجتماعية تاريخية مثل التربة والمناخ وسبل المواصلات الطبيعية، وتضاريس الارض، والموارد الطبيعية في باطن الارض والعالم النباتي والحيواني. واجتماع هذه الظروف لبيئة السكن الاجتماعي الجغرافية يعجل او يخفف من سرعة تطور القوى المنتجة، ويؤثر في تقسيم العمل وفي التخصص في الزراعة والصناعة، وفي صناعة توليد الطاقة. وتبعاً للظروف الطبيعية، ينشأ هذا او ذاك من اشكال توزع القوى المنتجة، وتنشأ درجة ادراج قوى الطبيعة ومواضيع الطبيعة من الانتاج. ثم ان التفاعل الطبيعة والمجتمع على العموم

وفي كل بلد يتغير تاريخيا. وقبل دراسة المغزى الاجتماعي الفلسفي لقضية تفاعل الطبيعة والمجتمع البشري على العموم في الوقت الحاضر، تجدر الإشارة الى ان تطور الفرد الاجتماعي، وليس البيئة الطبيعية، هو الذي يبرز بوصفه الدعامة الاساسية للانتاج والثروة الوطنية.

ذلك ان عنصري القوى المنتجة المادي والشخصي لا يضطلعان بالدور نفسه. فان مواضيع الطبيعة التي يتجه اليها نشاط الناس العملي الهادف هامة بحد ذاتها. والعمل المكدس، ونتائج الطاقة العملية لعدد من اجيال الناس، نتائجها المتجسدة في وسائل العمل، تشكل الاساس المادي الذي يستحيل بدونه الانتاج. ولكن وسائل العمل والادوات والتكنيك انما هم الناس دائما من يحركونها. والشغيلة، اي المنتجون المباشرون، مع كفاءتهم الانتاجية ومعارفهم وتجربتهم في استعمال وسائل العمل، هم العامل الحاسم في الانتاج، القوة المنتجة الرئيسية، الاولى، عند البشر. ولهذا، دون استعظام ودون تجاهل دور مقدمات وظروف الانتاج الطبيعية الجغرافية، يولى الثوريون الماركسيون حالة هذه القوة المنتجة الاولى اهتمامهم الرئيسي.

ولكنه لا ينجم البتة من التقييم الرفيع لعنصر القوى المنتجة البشري اي استصغار لدور ادوات العمل والتكنيك : فان مجموعة ادوات الانتاج هي ذلك الاساس الذي تتوقف عليه بصورة رئيسية الاستفادة من مواضيع وخواص الطبيعة، ويتوقف عليه طابع النشاط العملي وانتاجية العمل. ان ادوات ووسائل الانتاج تشكل علامة موضوعية على درجة سلطة الانسان على الطبيعة، وكذلك على العلاقات التكنيكية والاقتصادية التي تنبثق بالضرورة على اساسها. واذا افترضنا ان وسائل العمل وصفات الشغيلة واحدة، متماثلة، فان قوى المجتمع المنتجة تتوقف على كمال التنظيم التكنيكي لعمليات العمل وعلى الاستفادة العقلانية من الشغيلة ومن وسائل العمل، وعلى تقسيم العمل والتخصص والتعاون في العمل. وان طابع العلاقات التكنيكية والتكنولوجية والتنظيمية وعلاقات الادارة، الناجمة في هذه الحال لا يتوقف على

مستوى تطور عناصر القوى المنتجة المادية والشخصية وحسب، بل يتوقف كذلك، وفي المقام الاول، على العلاقات الاقتصادية السائدة.

علاقات الانتاج الاقتصادية. اذا كانت علاقة المجتمع بالطبيعة، ودرجة السيادة على قواها العنصرية تتركزان في القوى المنتجة، ففي علاقات الانتاج تتركز تلك الصلات الاجتماعية بين الناس التي هي اهم شرط لعمل وتطور الانتاج. وان تشغيل وسائل الانتاج يفترض جمعها الزاما مع المنتج المباشر، مع قوة العمل. ان علاقات الانتاج هي تلك الصلات الاجتماعية التي تنشأ بين الناس في سياق انتاج وتوزيع واستهلاك الخيرات المادية.

وغنى عن البيان ان علاقات الانتاج متعددة ومتنوعة، وانها واهمها العلاقات بوسائل الانتاج، والعلاقات من حيث تبادل نشاط الناس، وعلاقات التوزيع. ان وجود او عدم وجود ملكية ادوات ووسائل الانتاج يحددان سلفا انواع النشاط البشري وعملية تبادل نتائجها، وكذلك توزيع الخيرات المادية المنتجة. فضلا عن ذلك، تؤدي الملكية الاجتماعية العامة او الخاصة حتما الى نشوء علاقات انتاج قائمة على التعاون والتعاقد، واما الى نشوء علاقات قائمة على التبعية الاقتصادية والسيادة والخضوع. وهذه العلاقات يرثها كل جيل جديد من الناس مع القوى المنتجة الجاهزة.

ومن هنا ينجم ان علاقات الانتاج بين الناس مادية، وانها تنبع موضوعيا، وانها لا تنشأ بارادة الناس ورغائبهم، بل تبعا للقوى المنتجة الموجودة. وهذا ما يحتم المكان المركزي الذي تشغله علاقات الانتاج المادية في كل مجتمع محدد تاريخيا. ان العلاقات الاقتصادية الموضوعية، اذ تبرز بوصفها شكلا الزاميا لتحقيق نشاط الناس الفردي المادي، انما تشكل اساس جميع العلاقات الاجتماعية الاخرى. وبديهي انه لا يجوز ان نستنتج من هنا حتمية وخلود علاقات السيادة والخضوع، لأن القوى المنتجة وعلاقات الانتاج على السواء تتغير باستمرار.

التفاعل بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج. ان التفاعل بين العناصر

المادية والعناصر الشخصية في القوى المنتجة هو المصدر الداخلي لتطور القوى المنتجة ولتغيراتها الدائمة. فبقدر ما تراكمت التجربة الانتاجية والمعارف الجديدة ومهارات العمل الجديدة، يحسن الناس وسائل العمل القائمة ويصنعون وسائل عمل جديدة. ووسائل العمل الجديدة تغني بدورها مهارات الانتاج واساليب عمليات العمل، وتزيد انتاجية العمل وفعالية الادوات. وفي مثل هذا التحسن المستمر لوسائل العمل ولتنجحي الخيرات المادية انفسهم، يتحقق تقدم القوى المنتجة التاريخي.

وبتأثير القوى المنتجة المباشر، تنبثق كذلك علاقات انتاج ملموسة. وفي اطار اسلوب معين للانتاج، تؤثر علاقات الانتاج في عملية تطور القوى المنتجة ذاته، وعلاقات الانتاج المنبثقة حديثا تحفز في المعتاد القوى المنتجة، وتتطابق خلال مدة معينة مع مقتضيات تطورها. ان زخم القوى المنتجة واستقرار علاقات الانتاج النسبي يؤديان الى ظهور مظاهر من عدم التطابق ومن التناقض بين الطرفين تتفاقم وتؤدي الى النزاع.

ان طور النزاع في التفاعل يعني انه نضجت الضرورة التاريخية للاستعاضة عن علاقات الانتاج السائخة التي امسكت كابحا لتطور الانتاج. فمحله شكل المعاشرة الانتاجية السابق، الذي صار عائقاً، يحل شكل جديد يتطابق مع طابع ومستوى القوى المنتجة السائرة بسبيل التقدم.

وهذه العملية من التفاعل والتأثير المتبادل بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج تتبدى بوضوح في تاريخ البشرية. في ظل نظام المشاعة البدائية، كانت الملكية الاجتماعية العامة لوسائل الانتاج تجمع وسائل العمل البدائية الى جهود الجماعات العشائرية في العمل. وهنا كانت تسود علاقات التعاون والتعاقد بين الناس، لأن المشاعة كانت في آن واحد جماعة انتاجية ومالكة جماعية. ومع ظهور وتحسن الادوات المعدنية، وازدياد قوة العمل الانتاجية، انبثقت ضرورة التقسيم الاجتماعي للعمل وضرورة التخصص في الانتاج، وهذه الضرورة تحققت باستعمال وسائل العمل استعمالاً فردياً وخصوصاً ومن قبل جماعات

صغيرة. وعوضاً عن الملكية الاجتماعية العامة والتوزيع المتساوي، تظهر الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، هذه الملكية التي كانت اكثر تطابقاً مع طابع ومستوى تطور القوى المنتجة.

ومن هنا ينجم ان الملكية الخاصة تنبثق تاريخياً حين يؤدي عدم التطابق بين علاقات الانتاج الجماعية البدائية والقوى المنتجة الخاصة الى النزاع في ظروف التقسيم الضروري للعمل والانتاج الفردي. ان الانتاج الخاص، فضلاً عن كونه يطابق طابع القوى المنتجة الجديد اقتصادياً، يؤدي الى عواقب اجتماعية هامة. تتغير بصورة جذرية العلاقات في حقل تبادل النشاط بين الناس وعلاقات التوزيع، وعوضاً عن التعاون والتعاقد بين الناس، تنبثق علاقات السيادة والخضوع، وينقسم المجتمع الى فئات اجتماعية متنافرة (طبقات) ذات مصالح وآراء متضادة.

وتبعاً للاشكال التاريخية الاساسية الثلاثة للملكية الخاصة - الشكل العبودي، الشكل الاقطاعي، الشكل الرأسمالي - انبثقت اساليب انتاج مناسبة وتعاقت بعضها اثر بعض. وعلى اساسها المادي، انبثقت تشكيلات اجتماعية اقتصادية مناسبة وتعاقت بعضها اثر بعض.

ان القضية النظرية المتعلقة بانثاق وتعاقد اساليب الانتاج بوصفها الاساس المادي لدرجات تطور المجتمع المحددة تاريخياً قد اكتسبت في الظروف الراهنة حادة خارقة وشغلت مكاناً بارزاً في النضال الفكري السياسي. ومرد ذلك في المقام الاول الى التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الجذرية في العالم، وإلى الاهمية العملية التي ترتديها مسائل الافاق والمصائر التاريخية لتطور كل شعب. وفي هذا الصدد يجب على الثوريين ان يأخذوا بالحسبان جملة كاملة من الاعتبارات الهامة.

واولها يتلخص في انه ينبغي دراسة العلاقات الطبقية لدن وصف التشكيلات القائمة على الملكية الخاصة. وفي هذا الصدد قال لينين « النظام الاجتماعي »، « التشكيلات الاجتماعية »، كل هذا، بدون مفهوم الطبقة

والمجتمع الطبقي، لا يكفي لاعطاء صورة ملموسة^(١) ولذا يجب تحليل نشوء ووجود وتعاقب التشكيلات العبودية والتشكيلات الاقطاعية والتشكيلات الرأسمالية على ضوء الصلة الوثيقة بين حركة اسلوب الانتاج وصراع الطبقات المتناحرة الضاري الناجم عنها. ان التشكيلات القائمة على الملكية الخاصة تتسم ببعض السمات المشتركة رغم جميع الفوارق القائمة في العلاقات والروابط الاقتصادية والطبقية والسياسية والايديولوجية وغيرها. وبرز هذه السمات تتلخص فيما يلي : في حال وجود طبقات متناحرة ومؤسسات طبقية ودول استثمارية ومقدمات مادية ناضجة، يشكل نضال الطبقات على وجه الضبط القوة المحركة للتطور الاجتماعي ولتعاقب التشكيلات القائمة على الملكية الخاصة.

وهناك جانب آخر للقضية يقوم في تطبيق نظرية التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية على كل بلد بعينه. ففي تاريخ هذا الشعب أو ذاك، من العبث والباطل البحث عن تشكيلات اجتماعية اقتصادية «صافية» «خالصة»، لأن كل تشكيلة تلازمها اصالة تجلّي القوانين التاريخية العامة، وتلازمها خصائص معينة. وفي هذا الصدد، يجدر الاهتمام بمسألة موضوعة النقاش هي التعاقب التاريخي لاساليب الانتاج وللتشكيلات الاجتماعية الاقتصادية المناسبة لها. والمقصود هنا ان النظرية الماركسية تشير في المعتاد الى الدرجات الاساسية الخمس التي ظهرت في التاريخ العالمي على اساس اساليب الانتاج - المشاعي البدائي، العبودي، الاقطاعي، الرأسمالي، الاشتراكي (الشيوعي). وهذه الموضوعات تتعرض لحملات سافرة من جانب اعداء الشيوعية ولشتى التشويشات من جانب الايديولوجيين البرجوازيين. فهم يزعمون، مثلاً، ان هذا «المخطط الماركسي» لا يتطابق مع الواقع التاريخي لا في الماضي ولا في الحاضر، ومن باب الحجج والذرائع، يستشهدون بوجود ما يسمى اسلوب

(١) المجموعة اللينينية ١١. ص ٣٨٣. ملاحظات على كتاب بوخارين « اقتصاد المرحلة الانتقالية ».

الانتاج الآسيوي في التاريخ. اولاً، ان التسمية نفسها لا تدل البتة على ان « اسلوب الانتاج » هذا هو اسلوب خاص يتميز به تاريخ شعوب آسيا. فان بعض سماته قد تجلت كذلك في تاريخ شعوب القارت الأخرى. ان ما يسمى باسلوب الانتاج الآسيوي قد انبثق تاريخياً لدن انحلال النظام المشاعي البدائي (مع اجتماع الملكية المشاعية والملكية الفردية وملكية الجماعة الصغيرة). وهو يبرز، باحد اشكاله، كنظام من علاقات انتاج تقوم فيه ملكية الدولة الباكورة للأرض والادوات والبذر لأجل الانتاج الزراعي. وفي هذه الحال، تظهر الدولة بوصفها اداة بيد القبيلة السائدة لإدارة واستثمار الاتحادات القبلية العشائرية الخاضعة التي لا تزال تقوم فيها، على العموم، الملكية المشاعية.

وبديهي ان تكون قد نشأ في مجتمع كهذا تقسيم معين للعمل وتنظيم معين للانتاج، وتطور التمايز الاجتماعي الطبقي. يمكن القول ان هذا المجتمع يتميز بعلاقات انتاج انتقالية قائمة على العناصر المتناقضة في الملكية الاجتماعية (المشاعية) وعلى الملكية الخاصة الفردية والملكية الخاصة للجماعة الصغيرة. وتبعاً لذلك، ظهرت في هذا المجتمع ظاهرات اجتماعية تطورت اقصى تطورها في اشكال نظام الرق الكلاسيكية (مثلاً، في الرق البطريكي او الابوي) او في اشكال النظام الاقطاعي الكلاسيكية.

وللمناسبة نلاحظ هنا ان ماركس ولينين قد استشهدا غير مرة في مؤلفاتهما بهذه السمات الخاصة في التطور التاريخي. وبرأينا ان الاعتراف باسلوب الانتاج الآسيوي او باشكاله المختلفة لا يتناقض البتة مع المفهوم الماركسي بشأن درجات التطور التاريخي المحددة الاساسية الخمس. فعلاوة على النماذج الاساسية من علاقات الانتاج، تنبثق كذلك في الظروف التاريخية المعينة علاقات انتاج انتقالية تتركز في آن واحد على الملكية الاجتماعية وعلى الملكية الخاصة، وتشتمل بالتالي سواء على عناصر التعاون والتعاقد ام على عناصر السيادة والخضوع. ان علاقات الانتاج الانتقالية لم تظهر فقط لدن حلول هذا

الشكل او ذاك من التشكيلة القائمة على الملكية الخاصة (التشكيلة العبودية الكلاسيكية « الآسيوية » المختلطة، او التشكيلة الاقطاعية) محل النظام المشاعي البدائي، بل تلازم كذلك مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية، وذلك حين تقوم موقنا الى جانب القطاع الاشتراكي اشكال مختلفة من رأسمالية الدولة واشكال نصف اشتراكية من التعاون.

ومن هنا ينجم ان اصالة التعاقب التاريخي لعلاقات الانتاج واساليب الانتاج في تاريخ هذه الشعوب او تلك لا تبطل البتة الشرطية الاقتصادية الموضوعية لنشوء وتعاقب التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية. وان النظرية الماركسية تؤكد على المنطق الموضوعي لنشوء وتعاقب اساليب الانتاج الخمسة الاساسية علما بان هذا المنطق حدده تطور القوى المنتجة ذاته. وان تبيان هذا الميل الموضوعي في التطور الاجتماعي الاقتصادي يتيح لنا ان نقيم كذلك بصورة علمية اصالة تجلية في تاريخ هذه الشعوب او تلك، ناجمة عن اجتماع خاص متميز للمقدمات الجغرافية الطبيعية والظروف الاجتماعية التاريخية. ورغم كل اصالة تاريخ الشعب، كل شعب، يعود الدور المحدد في تطوره الاجتماعي في آخر المطاف الى اسلوب انتاج واعادة انتاج الحياة المادية.

ان الفهم المادي الديالكتيكي لمكان ودور اسلوب الانتاج في التطور الاجتماعي يعطي المفتاح لفهم وتقييم القضايا اليومية، المعروفة باسم الانفجارات الايكولوجية (الايكولوجيا - علم التبيؤ - فرع من علم الاحياء يدرس العلاقات بين الكائنات الحية وبيئتها) والانفجارات الديموغرافية (الديموغرافيا - الدراسة الاحصائية للسكان من حيث المواليد والوفيات والصحة والزواج الخ.) . ولقد سبق واشرنا الى ان علاقة الناس الاجتماعية بالطبيعة تتركز اجمالا في قواهم المنتجة. ومن شأن البيئة الجغرافية، باعتبارها مقدمة التاريخ البشري الطبيعية، ان تعجل او تعرقل تطور القوى المنتجة. ولكن الدور الحاسم من التفاعل بين المجتمع والطبيعة يعود الى نشاط البشر الفعال. وفي الظروف الراهنة، تجلت في العلاقات بين المجتمع والطبيعة

جوانب تستثير قلق البشرية اكثر واكثر. ومن هذه الجوانب، الجوانب التكنيكية الاقتصادية (نفوذ الموارد الطبيعية)، الجوانب الاجتماعي الايكولوجي (البيئي) (انتهاك التوازن البيولوجي في الطبيعة الحية وتلوث البيئة المحيطة)، الجوانب الاقتصادي السياسي (تبعية حل قضايا الطبيعة لجوهر بنیان النظامين الاجتماعيين العالميين الاجتماعي والسياسي).

وبرأينا انه يجب ان يركز الموقف الاجتماعي الفلسفي من هذه القضايا الحادة والمعقدة على الصلة المتبادلة الموضوعية بين مختلف اشكال حركة المادة، التي لا يمكن اطلاقا معارضة الاشكال العليا (الانسان، المجتمع) منها بالاشكال الدنيا. فان وجود الانسان بوصفه كائنا اجتماعيا يرتبط بعري لا انفصام لها بالطبيعة التاريخية والعضوية، ولهذا يجب ان يهيمن جانب البناء، لا جانب الهدم، في نشاطه التحويلي. ومما له دلالة في هذا المجال، مثال تكثيف الزراعة الراقية الحاد الذي اسمى « بالشورة الخضراء ». واحد الجوانب الفلسفية من هذه الظاهرة الاجتماعية يقوم في البرهنة على انه بمقدور الانسان ومن واجبه ان يستغل قوانين ثورات وتغير الانواع البيولوجية وكذلك قوانين زيادة خصوبة التربة الكامن والفعال. ان مجمل منجزات البيولوجيا المعاصرة والعلوم الزراعية والطرائق الزراعية يدحض بصورة مقنعة الآراء المتشائمة (الميتافيزيائية) بصدد وجود « قانون تناقض خصب التربة » المزعوم.

فمن الواضح ان قضية نفاذ الخامات المعدنية والموارد الطاقية، وتلوث البيئة المحيطة، وانتهاك توازن العمليات الطبيعية والبيولوجية انتهاكا حادا، والتقلبات الحادة في نمو عدد السكان في مختلف مناطق الكرة الارضية تتسم، بالمقارنة مع قضية الزراعة الراقية وخصب التربة، بقدر اكبر من الاهمية وبابعاد شاملة عالمية. ولكن تضخم هذه القضايا الى حد كارثة عالمية محتمة لا مناص منها يرتبط بوضوح بعدم الثقة في قدرة الناس العرفانية والتحويلية، بانكار الجوهر البناء لنشاط الانسان الاجتماعي العاقل.

لقد اثبت العلم المعاصر الامكانية المبدئية للحصول على موارد طاقة غير

محدودة عمليا في حال استخدام التفاعلات الحرارية النووية الموجهة، الامر الذي يتيح بدوره تأمين الدورة العادية للمادة والطاقة في الطبيعة. كذلك صيغت وتوضع موضع التطبيق اجراءات للحفاظ على التوازن البيولوجي في الطبيعة لكي يتطابق تطورها مع مطالب وحاجات الثقافة البشرية المعاصرة. ولكنه تجب الاشارة في الوقت نفسه الى ان الحل الحقيقي للتناقضات الناشئة بين الانسان والطبيعة، بين الانسان والانسان، لا يمكن الا في ظل الشيوعية، الا مع اقامة المساواة العامة والاخوة بين اناس احرار ومتساوين. وصحة هذا الاستنتاج الاجتماعي الفلسفي تثبتها التجربة المكثفة في الحرص على الطبيعة وفي الاستفادة العقلانية من مواردها في البلدان الاشتراكية المعاصرة.

واذا اوجزنا دراسة هذه العناصر البنيوية الاساسية للتشكيلات الاجتماعية الاقتصادية كالقوى المنتجة وعلاقات الانتاج واسلوب الانتاج، يمكن استخلاص بضعة استنتاجات عامة. اولا، ان وجود وتطور المجتمع البشري لا تحددهما قوة قائمة فوق الطبيعة، ولا دوافع فكرية، ولا ارادة الناس ورغائبهم، بل يحددهما نشوء وتطور انتاج واعادة انتاج الخيرات المادية. ان الصلات الضرورية الجوهرية والمتكررة بين جميع المظاهر الاجتماعية والاساس المادي والاقتصادي انها يشملها القانون الاجتماعي العام القائل بالدور المحدد للانتاج المادي في التطور الاجتماعي.

ثانيا، ان الانتاج المادي نفسه يتغير ويتطور بفضل القوانين الملازمة له، والتي يبرز بينها الدور المحدد للقوى المنتجة في تطور اسلوب الانتاج، والدور الفعال لعلاقات الانتاج في تطور القوى المنتجة.

ثالثا، ان حلول اسلوب الانتاج محل آخر يشكل الاساس الاقتصادي الموضوعي للحركة التاريخية الطبيعية للتشكيلات الاجتماعية الاقتصادية التي تشكل كل منها درجة معينة تاريخيا من درجات تقدم الانسان. ان العملية الطبيعية التاريخية لتطور وتعاقب التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية تخضع

لقانون اجتماعي عام هو قانون تطابق علاقات الانتاج مع طابع ومستوى تطور القوى المنتجة.

رابعا، صحيح ان التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية تتصف، بصورة رئيسية، باسلوب الانتاج الملازم لها (علاقات انتاج معينة)، ولكنها لا تنحصر فيه، بل تشكل عضوية اجتماعية معقدة ذات عناصر بنيوية متعددة ومتنوعة. وفي عداد العناصر البنيوية الهامة الاخرى للتشكيلات الاجتماعية الاقتصادية، يجب ان تؤخذ بالحسبان مكان البناء التحتي والبناء الفوقي ودورهما الاجتماعي.

البناء التحتي والبناء الفوقي

في العرض السابق، تركز الاهتمام الرئيسي على استيضاح الاساس المادي والاقتصادي للتطور الاجتماعي، والدور المحدد لاسلوب الانتاج، الذي يشترطه التفاعل الموضوعي بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج. ولكن علاقات الانتاج هي اهم عامل من عوامل بنية التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية لا بفضل صلتها بالقوى المنتجة فقط. ان نظام العلاقات الاقتصادية الموضوعية يشغل اهم مكان في حياة المجتمع كذلك لسبب انه يحدد جميع العلاقات الاجتماعية الباقية - الطبقة والسياسية والايديولوجية. والصلة المتبادلة الموضوعية بين العلاقات الاقتصادية وجميع العلاقات الاجتماعية الاخرى تتكشف في مفهومي البناء التحتي والبناء الفوقي الفيلسفين. وقد قال ماركس: «... ومجموع علاقات الانتاج هذه يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع اي الاساس الذي يقوم عليه بناء فوقي حقوقي وسياسي وتطابقه اشكال معينة من الوعي الاجتماعي»^(١)

(١) ماركس انجلس. مختارات اربعة اجزاء. الجزء الثاني. دار التقدم. موسكو ١٩٦٩. ص ٨ (مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي. المقدمة).

خلافًا لاسلوب الانتاج الذي يمثل الاساس المادي لكامل التطور الاجتماعي، يبرز البناء التحتي الاقتصادي بوصفه اساس المظاهر الاجتماعية المثقفة، الثانوية، « الفوقية ». والبناء الفوقي هو مجموع معين تاريخيا من آراء اجتماعية وعلاقات ايدولوجية ومؤسسات ومنظمات مناسبة لها. وهذا يعني، بتعبير آخر، ان البناء الفوقي يشمل المشاعر والتصورات ومنظومة الافكار التي تعكس بناء تحتيا اقتصاديا معينًا، وعلاقات ايدولوجية مناسبة : سياسية، وحقوقية، ودينية، واخلاقية، وجمالية، ومؤسسات ومنظمات ينشئها الناس : حقوقية، وسياسية، ومهنية، ودينية، وثقافية تنويرية، وللدولة.

ان الاشكال التاريخية من علاقات الانتاج، المدروسة اعلاه، تبرز بوصفها ابنية تحتية اقتصادية للتشكيلات الاجتماعية الاقتصادية - المشاعية البدائية، العبودية، الاقطاعية، الرأسمالية، الشيوعية. ولكنه توجد، كما اشير اعلاه، انواع مختلفة من علاقات الانتاج في مختلف مراحل تطور التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية. وفي هذا الصدد يبدو من الضروري تحليل مضمون مفهوم البناء التحتي بوصفه مجموعا من علاقات الانتاج.

ان هذا التحليل، ان استيضاح المعنى الحقيقي لمفهوم البناء التحتي الاقتصادي يكتسب اهمية خاصة بالنسبة للثوريين في الظروف الراهنة لسببين. اولًا، في جميع بلدان العالم غير الاشتراكي تستمر وتتفاقم ازمة بنيتها الاقتصادية الاجتماعية، وتحليل هذه الازمة تحليلًا علميًا يحدد سلفًا استراتيجية وتكتيك النضال الثوري. ثانيًا، تتسرب الى وعي قسم من الثوريين اخطاء سوسيولوجية (اجتماعية) فظة للغاية وواسعة الانتشار في المطبوعات غير الماركسية، وتشوهات متعمدة لمكان ودور علاقات الانتاج.

ان السوسيولوجيين (علماء الاجتماع) البرجوازيين في الدول الامبريالية ولاسيما في الولايات المتحدة الاميركية، يشبهون البناء التحتي الاقتصادي بالعمليات التكنيكية والتكنولوجية، بتنظيم الانتاج المادي وادارته. وعلى سبيل المثال، نستشهد باستعمال التعبير الدارج في كل مكان « انفرستروكتور »

(البنية التحتية) عوضًا عن تعبير « البناء التحتي الاقتصادي ». فان تعبير « انفرستروكتور » (البنية التحتية) لا تعلق في الواقع الا بالعلاقات التكنيكية والتنظيمية الضرورية لأجل عمل العمليات الانتاجية (الطرف وسائر سبل المواصلات، وسائل المواصلات التكنيكية، الجوانب التكنولوجية من التخصص والتعاون، وغير ذلك).

ولهذه القضية جانب آخر، قوامه العلاقة بين البناء التحتي الاقتصادي والنماذج الاقتصادية. ان النموذج الاقتصادي هو عبارة عن نوع معين من علاقات الانتاج، موجود اما كبقية من اشكال اقتصادية ماضية، واما كجنين اشكال اقتصادية مقبلة. كذلك يستعمل مفهوم النموذج الاقتصادي في تعيين نظام من الاقتصاد الاجتماعي محدد تاريخيا.

ان تعبير « تعدد النماذج » يستعمل احيانا كثيرة جداً لأجل وصف التأخر الاقتصادي التكنيكي للبلدان النامية في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية. وفي هذه الحال، يتشوه، عفا او عمدا، وضع البنية الاقتصادية الفعلي واتجاه تطورها، وتشوه بالتالي الاجراءات الضرورية لتحويله الثوري. وكنه المسألة لا يمكن حصره في استعظام شأن تعدد النماذج، ولا في انكار واقعيته. فان هذه او تلك من بقايا الانواع السابقة من علاقات الانتاج، ومنها مثلاً، الانتاج البضاعي الصغير، توجد حتى في اكثر البلدان تطورا من بلدان رأسمالية الدولة الاحتكارية. وفضلاً عن ذلك، يلزم تعدد النماذج مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية سواء في البلدان الزراعية الصناعية ام في البلدان الصناعية الزراعية. فمن جراء الاقتصاد المتعدد النماذج في روسيا ما قبل الثورة، مثلاً، تواجدت خلال مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي مجموعة كاملة من النماذج الاقتصادية، خمسة نماذج، ادى تحويلها الى انشاء البناء التحتي الاقتصادي الاشتراكي.

ويبدو لنا من الاصح ان ندرج في مفهوم البناء التحتي الاقتصادي، لا جميع انواع علاقات الانتاج القائمة شكلاً، بل فقط مجمل العلاقات السائدة -

علاقات الملكية، العلاقات في حقل تبادل النشاط، علاقات التوزيع. وفي هذه الحال، يكتسب مفهوم البناء التحتي الاقتصادي معنى اجتماعيا (وسياسيا) محددا بدقة ويتيح فهم تعدد نماذج الاقتصاد فهما صحيحا. وتبعاً للمستوى التاريخي للتطور الاجتماعي الاقتصادي يمكننا ان نفرز انواعاً تقريبية من العلاقة بين تعدد النماذج والبناء التحتي الاقتصادي السائد. ومن هذه الانواع، سيادة الاقتصاد المشاعي التي لا يزال قائمة حتى الآن في بعض البلدان، والتي تقوم الى جانبه العلاقات البطيركية العبودية والعلاقات القطاعية (وحتى العلاقات الرأسمالية احياناً) وتبادل النشاط والتوزيع. والنوع الثاني هو تعدد النماذج في ظل البناء التحتي القطاعي، المرفق بعناصر من علاقات الانتاج المشاعية (واحياناً العبودية) الماضية وكذلك بعناصر من علاقات الانتاج الرأسمالية النامية. اما النوع الثالث فيمكن القول انه يشمل مختلف مظاهر تعدد النماذج في ظل سيادة البناء التحتي الرأسمالية الذي تتشابه معه عناصر من علاقات الانتاج الماضية.

ولنلاحظ في هذا الصدد ان احادية طراز علاقات السيادة والخضوع في التشكيلات القائمة على الملكية الخاصة تشترط امكانية التعايش خلال مرحلة طويلة نسبياً بين علاقات الانتاج العبودية والقطاعية والرأسمالية التي نشأت على التوالي في احشاء التشكيلات السابقة.

ولكنه ينجم على العكس من التضاد الجذري بين علاقات السيادة والخضوع وعلاقات التعاون والتعاقد انه لا يمكن لعناصر علاقات الانتاج الاشتراكية ان تنبثق وتتكون في احشاء التشكيلات التناحرية. فان هذه التشكيلات لا تخلق غير المقدمات المادية والتكنيكية الضرورية لأجل تطوير الاقتصاد الاشتراكي بعد الثورة الاشتراكية. ومن هنا ينجم البطلان العلمي للنظريات الطوبوية المتعلقة بما يسمى الاشتراكية «التعاونية» التي تزعم انه يمكن لعلاقات الانتاج الاشتراكية ان تنبثق كذلك في اطار المجتمع الرأسمالي المعاصر. فان اشكال اتحادات المنتجين التعاونية في ظروف البناء التحتي

الرأسمالي السائد، ايا كانت هذه الاشكال، تخضع بشكل او بآخر للقوانين الاقتصادية للسوق الرأسمالي الداخلي ولا يمكن اعتبارها اجنة للاشتراكية. وفي الوقت نفسه، تجدر الاشارة الى ان الثوريين الماركسيين يسيرون ويدعمون بجميع الوسائل التعاون بين صغار المنتجين لأن الاشكال التعاونية تحسن اوضاعهم الاقتصادية وتوسع امكانيات النضال ضد الاستعمار الرأسمالي. ناهيك عن ان دعم الاشكال التعاونية ضروري ايضاً لأجل رص وتنظيم صفوف المنتجين، لأجل تنشيطهم في النضال الطبقي.

ومن هنا ينجم ان جميع التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية تلازمها ابنية تحتية اقتصادية خاصة بها، ولكن هذه الابنية تملك في كل من التشكيلات مضمونها تاريخياً ملموساً وعلاقة تاريخية ملموسة بسائر انواع علاقات الانتاج. ومن المهم استيضاح ذلك لأن العلاقات الاقتصادية السائدة، او البناء التحتي، تولد بناء فوقياً مناسباً له. ان الطابع التناحري للبناء التحتي الاقتصادي يعكس في تضاد ظاهرات البناء الفوقي، في تضاد نظرات وتنظيمات الطبقة السائدة والطبقة المسودة. ففي التشكيلات القائمة على الملكية الخاصة، تعود السيادة الى افكار وتنظيمات الطبقة الاستشارية. وان سعي الطبقات المظلومة الى توطيد افكارها ومؤسساتها وتنظيماتها هي بالذات يؤدي الى نضال طبقي حاد في ميدان البناء الفوقي. وفي النضال بين مختلف الطبقات على وجه الضبط تتحقق الصلة المنطقية بين البناء التحتي والبناء الفوقي التي تتجلى في صياغة القانون السوسيولوجي (الاجتماعي) المناسب القائل ان البناء التحتي يحدد البناء الفوقي.

ومن الخطأ تفسير هذا القانون القائل ان البناء التحتي يحدد البناء الفوقي بمعنى ان البناء الفوقي لا يبرز الا بصورة عاقبة هامة للبناء التحتي. فالأمر بالعكس. فهما يتفاعلا على الدوام بحكم الضرورة الاقتصادية التي تشق دائماً لنفسها طريقاً في آخر المطاف. ان البناء التحتي يحدد طابع البناء الفوقي ويحدد الاتجاه الذي يتغير به مضمونه. وفضلاً عن ذلك، لا يجري الانقلاب في

البناء الفوقي بصورة اوتوماتيكية ومباشرة اثر تحويل البناء التحتي الاقتصادي . وهذا ما تدل عليه ، مثلاً ، التجربة التاريخية لنشوء البناء التحتي الرأسمالي بطريقة عفوية في احشاء الاقطاعية التي يتم تحويل بنائها الفوقي القديم الى نتيجة الثورة السياسية البرجوازية .

ويجب ان لا يغيب عن البال انه في حال تعاقب التشكيلات الوحيدة الطراز القائمة على الملكية الخاصة لا تتحول جميع عناصر البناء الفوقي القديم معا في آن واحد . فان التعاقب في تطور البناء الفوقي الجديد في المجتمعات التناحرية يشترطه تعاقب الجوهر الاجتماعي لهذه الابنية التحتية كما يشترطه حفظ واستعمال المادة الفكرية المتراكمة وجملة من المؤسسات السياسية والحقوقية والاجتماعية وغيرها . ولهذا لا تدمر الطبقة الاستثنائية الجديدة ، في المعتاد ، العنصر الاساسي في البناء الفوقي - اي آلة الدولة - بل تكيفها لحاجاتها ومصالحها . والقول نفسه يصح على سائر الاشكال والمؤسسات الايدولوجية ، ومنها مثلاً ، الدين والكنيسة . كذلك تتجلى خصائص البناء الفوقي في التفاعل المعقد بين اقسامها المكونة الداخلية ، ولاسيما في التأثير المعاكس الفعال على تطور البناء التحتي . ان التناقض بين عناصر البناء الفوقي في المجتمع التناحري يتبدى في كون بعضها يسهم في توطيد البناء التحتي او في تعجيل تطوره ، بينما يمارس بعضها الآخر ، على العكس تأثيراً مدمراً .

ان نشاط مختلف عناصر البناء الفوقي والتناقض بينها يتبديان بقوة خاصة لدن تحويل المجتمع تحويلاً ثورياً . فان الانقلاب الثوري المادي في ظروف الانتاج الاقتصادية يعني الاستعانة الزاما عن اشكال الملكية السائدة واقامة مجموع من علاقات الانتاج الجديدة . وفي التشكيلات السابقة للاشتراكية ، كان هذا الانقلاب يتم دائماً بصورة عفوية ولهذا لم يكن يتطابق ابداً من حيث الزمن مع الانقلاب السياسي . والانقلاب الثوري في البناء الفوقي يتجلى في اقامة السلطة السياسية للطبقة الثورية الجديدة تاريخياً ، في توطيد سيادتها السياسية والايدولوجية ، التي يرافقها تحويل المؤسسات والتنظيمات السياسية

والحقوقية والثقافية التنويرية والاجتماعية . وتلك هي القوانين العامة للتفاعل بين البناء التحتي والبناء الفوقي ، التي تميز العمليات الطبيعية التاريخية لنشوء وتعاقب التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية والتي يؤكد صحتها كل مجرى التاريخ العالمي الماضي .

ان هذه القوانين العامة تغير كثيراً اشكال تجليها في ظروف العهد الثوري الانتقالي المعاصر . فان خصائص نشوء وتفاعل البناء التحتي والبناء الفوقي في المجتمع الاشتراكي ذا دلالة واسعة جداً بالنسبة لممثلي جميع فصائل العملية الثورية العالمية . ان الفهم العلمي لهذه الخصائص يرتبط بعري لا انفصام لها بدراسة القضايا الفلسفية الناجمة عن العلاقة بين الضرورة التاريخية وحرية الفرد ، بدراسة القوانين الموضوعية للتاريخ وللنشاط الثوري التحويلي .

قوانين التاريخ وحرية العمل الثوري

ان دراسة العناصر البنوية الاساسية للتشكيلات الاجتماعية الاقتصادية ، وصلتها الموضوعية ، ونظام تفاعلها الازمائي ونتائجه ، تعطي فكرة عامة عن الضرورة التاريخية ، والضرورة تعني على العموم ما يجب الزاما ان يحدث وما يحدث فعلاً في الطبيعة او في المجتمع في ظروف ملموسة معينة . والضرورة تعبر عنها دائماً قوانين الطبيعة والمجتمع . والضرورة التاريخية تعني النتيجة الازامية لفعل القوانين الاجتماعية الموضوعية لحركة الحوادث التاريخية في اتجاه معين . ومن وجهة النظر هذه ، تبرز العملية الطبيعية التاريخية لنشوء وتعاقب التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية كتحقق للضرورة التاريخية ، كنتيجة اجمالية لفعل قوانين التطور الاجتماعي الموضوعية . في الطبيعة (قبل تدخل الانسان) ، تتجلى الضرورة دائماً كقوة عفوية

عمياء. والضرورة التاريخية تولد (وتحل) قضية حرية الانسان، والعلاقات بين نشاطه والقوانين الموضوعية. ولئن كانت الانسانية في مستهل تاريخها عبدة للضرورة الطبيعية والتاريخية المجهولة، اخذ نشاطها يزداد وعيا وحرية بقدر التقدم التاريخي ومعرفة واستعمال القوانين الموضوعية. وهذه الموضوعية تصح مبدئيا على الضرورة الطبيعية وعلى الضرورة التاريخية، ولكن مع التحفظ الهام التالي، وهو ان الحد من الحرية البشرية (بما فيها مستوى المعرفة) مشروط باسباب اجتماعية واقتصادية وسياسية. وفي المجتمعات التناحرية تبرز العلاقات الاجتماعية كقوة سائدة على الناس ومعادية لهم. وفي هذه الاحوال، لم يكن الناس احرارا من العوامل الموضوعية، رغم انهم كانوا يصنعون التاريخ بانفسهم، بل كانوا تابعين كليا لهذه العوامل، ولذا كانت الضرورة التاريخية تتحقق بصورة عفوية.

وتجدر الاشارة الى ان وجود الوعي، والعالم الروحي الغني نسبيا، وكذلك الاختيار المستقل للاهداف الشخصية لا يعنinan البتة الحرية الحقيقية. فلا يوجد البتة للحرية المطلقة لأن وعي الانسان، واهدافه، واعماله تخضع في آخر المطاف للضرورة بنحو او آخر.

واحيانا يفسرون مفهوم الحرية شتى التفسيرات المتباينة : بالمعنى الاقتصادي (فينحصر في الكفاية المادية)، وبالمعنى السياسي والحقوقى (ابداء الارادة بصورة مستقلة والاعمال المستقلة في الحياة السياسية، المساواة، وما الى ذلك)، بالمعنى العملي الشخصي (حرية الابداع، وما اليها)، بالمعنى العرفاني. ان تجاهل الضرورة التاريخية وازفاء صفة الاطلاق على الحرية البشرية (حرية الارادة) يلازمان مختلف اشكال الاتجاهات الارادية في الفلسفة المثالية، وهما يشكلان اساسا فلسفيا للارادية السياسية (الفوضوية، المغامرة اليسارية، الفاشية، وسائر اشكال التطرف). والمحدودية المضادة تنعكس في مختلف المفاهيم الفلسفية عن الجبرية (الايمان بالقضاء والقدر)، المنطلقة من التحديد المسبق لوعي الانسان وارادته وحياته ولاحداث التاريخية

من قبل ارادة عليا خرافية، من قبل القدر، وفي بعض الصور الاخرى، من قبل ظروف خارجية عفوية وحتى من قبل قوانين اقتصادية كلية الجبروت. وعلى نقيض هذه المفاهيم المثالية والميتافيزيائية، صاغت الفلسفة الماركسية - اللينينية المفهوم المادي الديالكتيكي عن الحرية. ان الحرية تعني قدرة الناس على اتخاذ القرارات على اساس الضرورة المدركة، وعلى معرفة بالامر، وتعني سيادة الانسان على الطبيعة وعلى العلاقات الاجتماعية وعلى نفسه بالذات. ان هذا المفهوم يشمل الجانب العرفاني، والاجتماعي العملي، والسياسي من الحرية البشرية. ان الحرية البشرية لا تنفي الضرورة التاريخية، وليس هذا وحسب، بل هي كذلك، بمعنى معين، تجليها. فان معرفة القوانين الموضوعية للطبيعة والمجتمع تجعل من الممكن الاستفادة من هذه القوانين بصورة منهجية (وبهذا المعنى، بصورة حرة) لأجل بلوغ الاهداف التي يبتغيها الناس. ان الاستفادة الواعية من قوانين التطور الاجتماعي، وبلوغ النتائج المنشودة انما يعني الحرية الحقيقية. وهذه القفزة من ملكوت الضرورة الى ملكوت الحرية تتحقق بقدر ما تتطور التشكيلة الاجتماعية للاقتصادية الشيوعية.

وهذا ما تدل عليه، فيما يدل عليه، خصائص تكوين، وانشاء البناء التحتي والبناء الفوقي في التشكيلة الشيوعية. ان البناء التحتي والبناء الفوقي في طورى التشكيلة الشيوعية الاساسيين (الاشتراكية والشيوعية) يبرزان كتحقق منظور سلفا، واع للضرورة التاريخية التي اكتشفتها النظرية الماركسية - اللينينية. ان نشوء وتطور البناء التحتي والبناء الفوقي هما نتيجة لنشاط الجماهير الشعبية الواعي، ولا بداعها الثوري. ان البناء التحتي للاشتراكية والشيوعية هو عبارة عن درجتين مختلفتين من تطور علاقات التعاون والتعاقد بين اناس احرار من الاستثمار. وهذه الخاصة تؤدي الى نشوء ظروف موضوعية جديدة ولا حد لها لتطور الاقتصاد والعلم والثقافة مع توفير امكانيات واسعة لأجل الجماهير الشعبية لكي تعي القوانين الموضوعية واسمى منجزات العلوم الطبيعية

والاجتماعية وتحول نفسها بالذات في مجرى نشاط خلاق وفعال ونافع اجتماعيا .
وهذه الامكانيات تتعزز وتتسع وتتزايد بفضل خاصة نشوء البناء الفوقي
الاشتراكي ، ومفادها ان عنصره الرئيس ، اي الدولة الاشتراكية تتطور بعد
تحويل آلة الدولة الاستثمارية تحويلا جذريا ، بعد تحطيمها ، لأجل الدفاع عن
مصالح الكادحين وتربية ناس المجتمع الشيوعي المتطورين من جميع
النواحي .

ان الاشكال العصرية لتجلي الضرورة التاريخية ، الاشكال المعبر عنها في
خصائص نشوء وتطور البناء التحتي والبناء الفوقي في ظل الاشتراكية ، تكتسب
اهمية خاصة لأجل الممارسة الثورية . ففي استراتيجية وتكتيك الاحزاب الثورية
في مختلف البلدان ، يجب ان تؤخذ بالحسبان الدقيق القوانين التاريخية العامة
والاشكال الخاصة (بما فيها الاشكال الوطنية) لتجليها وتطبيقها ، وقد سبق
وقلنا ان التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية هي انظمة اجتماعية خاصة ،
عضويات اجتماعية مع ما يلازمها من قوانين عامة وخاصة للنشوء والعمل
والتطور . وفي عداد القوانين الاجتماعية (السوسولوجية) العامة ، نذكر قانون
التفاعل بين الوجود الاجتماعي والادراك الاجتماعي ، وقانون التوافق بين
علاقات الانتاج وبين طابع القوى المنتجة ومحتوى تطورها ، وقانون الدور
الحاسم للانتاج المادي في تطور المجتمع ، وقانون النضال الطبقي بوصفه القوة
المحركة في التشكيلات التناحرية القائمة على الملكية الخاصة . وقانون الثورة
الاجتماعية الذي يشترط تعاقب هذه التشكيلات .

ان القانونين الاجتماعيين العاملين ، قانون النضال الطبقي وقانون الثورة
الاجتماعية ، يتسمان بمضمون تاريخي ملموس تبعا للضرورة الاقتصادية ،
ولقوام القوى الطبقية والنسبة بينها ، ولاجتماع المقدمات الموضوعية والذاتية .
ان كل طراز تاريخي من الثورات الاجتماعية (مثلا ، الثورة البرجوازية ، الثورة
البرجوازية - الديمقراطية ، الثورة الاشتراكية) تلازمه قوانينها العامة التي من
شان اهمالها الحاق ضرر جسيم بالممارسة الثورية . ولنلاحظ هنا انه من المهم

بخاصة في العهد التاريخي المعاصر ان لا يغيب عن البال وجود قوانين عامة
للثورة الاشتراكية ، وكذلك وجود قوانين معينة للثورات الديمقراطية المعادية
للالبريالية اي ثورات التحرر الاجتماعي والوطني .

ان استراتيجية الاحزاب الثورية لا تركز على القوانين الاجتماعية العامة
لعمل هذه التشكيلة او تلك وحسب ، بل تركز ايضا على قوانينها الخاصة .
فبدون تحليل القوانين الخاصة لعمل التشكيلة المعنية ، لا يمكن فهم النسبة
بين ميول استقرار وتوازن النظام الاجتماعي المعني وبين الميل الموضوعي الى
ضرورة الاستعاضة عنه . ان قوانين العمل ، التي تفصح عن العلاقة المتبادلة
بين مختلف جوانب الحياة الاجتماعية ، بين مختلف جوانب نشاط العفوية
الاجتماعية ، تتضمن دائما عامل التطور . تلك هي ، مثلا ، قوانين عمل
التشكيلة الرأسمالية (قانون المزاومة وفوضى الانتاج ، قانون القيمة الزائدة ،
الخ . .) . وخلافا لها ، تفصح القوانين الاجتماعية العامة او المشتركة بين عدد
من التشكيلات ، بصورة رئيسية ، عن الميول الموضوعية لتلك التغيرات التي
تختم الانتقال الى طور آخر داخل التشكيلة او من تشكيلة الى اخرى .

ومن المهم بخاصة ان تؤخذ بالحسبان العلاقة والنسبة بين القوانين
الاجتماعية والقوانين الخاصة لعمل وتطور التشكيلات ، وكذلك المقدمات
والظروف التاريخية الطبيعية ، في خصائص تاريخ وآفاق كل شعب من
الشعوب . ففي تاريخ الاغلبية من الشعوب المعاصرة ، وقعت انحرافات معينة
عن المنطق الموضوعي للعملية التاريخية الطبيعية لنشوء وتعاقب التشكيلات
الاجتماعية الاقتصادية .

فان شعوب امريكا اللاتينية ، مثلا ، قد انتقلت باغليبيتها من النظام المشاعي
البداي والنظام الباكر الى الاقطاعية التي كان الغزاة الاسبانيون والبرتغاليون
ناقليها وحاملوها . وسلاف اوربا الشرقية والشعوب الرحل في آسيا وافريقيا لم
نعرف العبودية الكلاسيكية ، وشعوب الولايات المتحدة الاميركية وكندا
واستراليا لم تعرف الاقطاعية المتطورة .

الفصل الخامس

الطبقات والنضال الطبقي

ان نظرية الطبقات، والنضال الطبقي، ذات أهمية فائقة من أجل فهم التاريخ كعملية تاريخية - طبيعية، ومن أجل فهمه كنتيجة لنشاط الناس. وبصرف النظر عن أهمية مفهوم التشكيلة الاقتصادية - الاجتماعية كعامل مهم من أجل دراسة العملية التاريخية، فانه لا يكفي، وحده، من أجل دراسة التاريخ كله، منذ النظام البدائي، بدون مفهوم الطبقات والنضال الطبقي. فبدون هذين المفهومين لا يمكن تحديد القوى المحركة لتطور التشكيلات الطبقة المتناقضة. وبالإضافة الى هذا، فنحن عندما ندرس مفهوم التشكيلة الرأسمالية، مثلاً، نبرز تلك الخصائص العامة المميزة لانكسار الرأسمالية ولألمانيا الرأسمالية، ولفرنسا الرأسمالية و... الخ. لكننا نتساءل: لماذا تختلف النظم السياسية الاجتماعية والأفكار المنتشرة في المجتمع...، وغير ذلك من الأمور الأخرى، من بلد الى آخر؟ اننا لانستطيع الجواب عن هذا السؤال باعتمادنا على مفهوم التشكيلة العام، بيد أننا نجيب عندما ندرس أصول تلك الطبقات وخصائص علاقاتها المتبادلة فيما بينها، في زمن ما، وفي بلد معين. ولهذا، فان مفهومي الطبقات والنضال الطبقي يسمحان بتجسيد مفهوم التشكيلة، لا عن طريق ابراز الفوارق بين التشكيلة الاقطاعية والتشكيلة الرأسمالية، مثلاً، من وجهة البنية الطبقة فحسب، بل وبكشف كل ما يشرط تلك الفوارق بين البلدان الموجودة على درجة واحدة من التطور الاجتماعي. لقد أكد لينين أن «النظام الاجتماعي» و«التشكيلة الاجتماعية» لا يمكن تجسيدها تجسيداً كافياً بدون مفهوم الطبقات والمجتمع الطبقي.

ان اسباب وطرائق وعواقب تشوه العملية التاريخية لكل شعب بعينه انها يجب ان تكون موضع تحليل علمي دقيق ومفصل. وهذا هام بخاصة لأن التشوهات الماضية كانت، على العموم، عاقبة للطابع التناحري للتقدم التاريخي، وانعكست بصورة معينة في ثقافة الشعوب وادراكها وذاكرتها. ومن جهة اخرى انبثق في العهد التاريخي المعاصر واخذ يتطور ولا يزال يتطور قانون موضوعي جديد، هو قانون الانتهاك الواعي للعملية التاريخية الطبيعية عن طريق الانتقال الى الاشتراكية بدون المرور بالتشكيلات التناحرية التي ولى زمانها تاريخياً والقائمة على الملكية الخاصة (الاقطاعية، ولا سيما الرأسمالية).

ان هذا التسريع للتقدم التاريخي ليس الذاتية والعنف بحق التاريخ، بل نتيجة لابداع الجماهير الثوري الواعي، نتيجة للعمل المرتكز على معرفة بالقضية وعلى استيعاب قوانين التطور الاجتماعي الموضوعية وتطبيقها بمهارة. وفي هذا العمل الثوري، يتجلى، فيما يتجلى، القانون الاجتماعي العام القائل بتعاضد دور العامل الذاتي في التاريخ. ومن هذا القانون، ينجم، فيما ينجم، استنتاج من اجل الثوريين يقول بضرورة تفهم نظرية التطور الاجتماعي العلمية تفهما عميقاً، واستيعاب التجربة الثورية في النضال الطبقي والاعداد النظري والسياسي والتنظيمي للتحويلات الثورية واجرائها، وتطبيق هذه التجربة في بلدانها بمهارة. والمهمة الاولى في هذا السبيل هي مهمة امتلاك ناصية الديالكتيك المادي - اي نظرية التطور العلمية وطريق معرفة الواقع وتحويله تحويلاً ثورياً.

ان نظرية الطبقات والتناقض الطبقي ذات أهمية خاصة من أجل فهم التاريخ كنتيجة لنشاط الناس. وبالفعل، اذا كان التاريخ هو تاريخ الناس، وفيه يعمل ملايين وملايين من البشر الذين تتضارب أعمالهم ورغباتهم فان من الطبيعي أن نسأل: كيف تتسنى دراسة هذه الأعمال الفردية في خضم هذه الفوضى؟ وكيف نربط بين تصرف فردي وتصرف ذي شأن اجتماعي؟ في هذا تتجلى أهمية نظرية الطبقات اذ هي تسمح لنا بربط عمل أشخاص معينين في حدود تشكيلة اجتماعية ما مع أعمال طبقات وفئات اجتماعية كبيرة يحدد نضالها تطور المجتمع.

ان نظرية الطبقات والنضال الطبقي تعطينا الخيط الرئيسي لبحث تاريخ المجتمع، ولمعرفة العصر الحديث، وتحديد طرق ووسائل التحويل الثوري من الرأسمالية الى الاشتراكية.

فبدون مفهوم « الطبقة » لا يمكن فهم فترة كبيرة من تاريخ الانسانية، ولهذا فان هذا المفهوم هو من أهم المفاهيم المادية التاريخية. فما هو المحتوى الموضوعي لمفهوم الطبقات، وما هي أهميته المنهجية؟

١ - جوهر الطبقات ونشؤها

نظريات الطبقات قبل ماركس

ثمة كثير من الفوارق بين الناس في المجتمع: من حيث تنوع النشاط، والثقافة والدخل، والعمل... الخ. لكن انقسام الناس الى طبقات اجتماعية يؤلف الفارق العظيم، من بين تلك الفوارق جمعاء، ذا الاهمية الجوهرية من أجل التطور التاريخي. بهذا تشهد تجربة التاريخ ذاتها. لقد كان التقسيم الاجتماعي لهذا المجتمع أو ذاك ملحوظاً من قبل الجميع. ففي عهد الرق كانت تفضل الأحرار عن الارقاء حدود كبيرة صارمة. وفي

المجتمع الاقطاعي كان يحدد وضع الانسان حسب انتهائه الى هذه الفئة من الناس أو تلك. لكن الناس كانوا يتصورون هذه الفوارق من صنع الطبيعة أو من وضع الاله. والمجتمع البورجوازي الذي أكد على المساواة الشكلية بين الناس أمام القوانين أوجد أساساً اقتصادياً للفوارق بينهم. ولهذا، فلم تكن من قبيل الصدفة، في فترة سيطرة الرأسمالية، الاشارة الى أن الاقتصاد يحدد انقسام المجتمع الى مجموعات اجتماعية كبيرة - الى طبقات. ولقد اكتشف العلماء البورجوازيون وجود الطبقات قبل ماركس. وكان كلاسيكيا الاقتصاد السياسي الانكليزي « أ. سميث »، و « د. ريكاردو »، يعتبران أن المجتمع يحتوي على ثلاث طبقات: طبقة البرجوازية، وطبقة ملاكي الأراضي، وطبقة العمال، وأن الفارق بينهم مشروط بمصادر دخلهم. فالبورجوازيون يبتزون الربح، وملاكو الأراضي - الربح، والعمال - أجور عملهم.

ان تحليل سميث وريكاردو لوضع الطبقات يربطه باقتصاد المجتمع هو أحد منجزات الفكر الاجتماعي. لكنها كانا عالمين بورجوازيين، وهذا ما جعل تفكيرهما محدوداً. فقد كان التمايز الاجتماعي، وانقسام المجتمع الى طبقات، بالنسبة اليهما ظاهرة ضرورية وقانونية. فهما لم يتمكنوا من رؤية التناقض الطبقي بين البروليتاريا والبورجوازية. وكانا عاجزين عن اظهار أساس هذا التناقض. وعلاوة على ذلك، ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار، أن توزيع سلع الانتاج هو نتيجة لتوزيع وسائل الانتاج، ولهذا ينبغي أن نبحث عن أسباب انقسام المجتمع الى طبقات في الانتاج ذاته لا في ميدان التوزيع كما فعل الاقتصاديان الانكليزيان. لقد كانا مؤسسين لما يسمى « بنظرية التوزيع » الى طبقات، التي أوضحت في وقتنا هذا « مودة » بالنسبة للايديولوجيين والاصلاحيين البورجوازيين.

فاذا كان كلاسيكيا الاقتصاد السياسي الانكليزي قد انتبهوا الى وجود الطبقات، فان المؤرخين الفرنسيين - تري، غيزو، مينيه - قد حاولوا دراسة التاريخ، ولا سيما، تاريخ الثورة الفرنسية، من وجهة نظر نضال الطبقات

فقد انطلقا من أن نضال الطبقات من أجل ملكية الأراضي هو الذي حدد سير الثورة الفرنسية. وهم، اذ قدموا وصفاً تاريخياً لنضال الطبقات، لم يتمكنوا من تفسير منشأ الطبقات ولا النتيجة الواقعية لنضالها. لقد اعتبروا أن الطبقات نتيجة للمكتسبات القائمة على الجهد، وأعلنوا أن نضال الطبقات صالح للمجتمعات السابقة فقط لا للمجتمع الرأسمالي. واعتبروا النضال الطبقي، في المجتمع الحديث، أي نضال العمال ضد البورجوازية، نضالاً غير نضال غير قانوني ولا يمكن السماح به.

هكذا تم اكتشاف وجود الطبقات والنضال الطبقي قبل ماركس. وقد استند مؤسس الماركسية إلى منجزات العلم الاجتماعي البورجوازي في دراسة البنية الطبقة للمجتمع ونضال الطبقات. لكن هذا لا يعني أن العلم الماركسي عن الطبقات هو استمرار وتطور بسيط للنظريات السابقة.

الفرق الجذري بين النظرية الماركسية للطبقات والنظريات السابقة

إن النظرية العلمية للطبقات والنضال الطبقي وضعت، لأول مرة، من قبل الماركسية. لقد حدد ماركس جوهر النظرية الماركسية للطبقات والنضال الطبقي واختلافها المبدئي عن النظريات البورجوازية في رسالته الشهيرة إلى فيديجير، في ٥ آذار ١٨٥٣، حيث كتب متناولاً قضية الطبقات: « فالجديد عندي يتجلى في الأشياء التالية: (١) أن وجود الطبقات مرتبط فقط بالمراحل التاريخية المعينة لتطور الإنتاج، (٢) وأن النضال الطبقي يؤدي حتماً إلى دكتاتورية البروليتاريا، (٣) وأن هذه الديكتاتورية ذاتها عبارة فقط عن الانتقال إلى تخطيط الطبقة، وتؤدي إلى مجتمع لاطبقي... »^(١).

وهذا يعني، أولاً، أن ماركس، اذ أرجع ظهور الطبقات ونشوءها إلى

(١) ماركس وإنجلز. مؤلفات مختارة. الجزء ٢ ص ٤٣٣.

متطلبات الإنتاج المتطور، أعطى، لأول مرة، تفسيراً مادياً علمياً للطبقات، ويعني ثانياً، أنه توصل، عن طريق تبيان أن الطبقات ظاهرة مؤقتة وليست خالدة، وأنها نشأت بالضرورة، وبالضرورة ستختفي بعد تحقيق دكتاتورية البروليتاريا، توصل إلى معالجة قضية الطبقات، انطلاقاً من مواقع الوجهة التاريخية، أي بصورة دياكتيكية.

وهذا، كونه ماركس نظرية مادية دياكتيكية علمية حول الطبقات والنضال الطبقي تختلف، من حيث المبدأ، عن النظريات البورجوازية التي كانت تعتمد على المثالية والميتافيزيك.

إن النظرية الماركسية للطبقات هي جزء عضوي من المادية التاريخية والاشتراكية العلمية.

تعريف لينين للطبقات الاجتماعية

لا بد لنظرية الطبقات، قبل كل شيء، من وضع مقياس علمي لتقسيم المجتمع إلى طبقات، وتحديد السمات الجوهرية للفوارق الطبقة وفقاً له. ولقد أبرز لينين هذه السمات وصاغها بدقة في مؤلفه « المبادرة العظمى ».

يقول لينين: « إن الطبقات هي تسمية لفئات كبيرة من الناس تختلف بالمكان الذي تحتله تاريخياً في نظام معين للإنتاج الاجتماعي وعلاقتها (التي تتعزز في أغلب الأحيان وتشكل في القوانين) بوسائل الإنتاج، وبدورها في التنظيم الاجتماعي للعمل، بطرق الحصول على حصصها من الثروة الاجتماعية وبمقدار هذه الحصص. والطبقات هي فئات من الناس يستولي بعضها على عمل البعض الآخر وذلك لاختلاف المكان الذي تحتله في قطاع معين من الاقتصاد الاجتماعي ». فلندرس هذا التعريف.

إن المجتمع لا يمكن أن يتكون من طبقة واحدة فقط، فهو إما مجتمع طبقي وإما مجتمع لاطبقي. فالمجتمع الطبقي موزع إلى فئات كبيرة من الناس يناقض

بعضها البعض. وان الفوارق بين الطبقات تنفذ الى جميع مادين الحياة الاجتماعية من الاقتصاد الى الايديولوجية، ولكنها تنشأ في الانتاج. ان الطبقات هي ظاهرة تاريخية ملازمة للتشكيلات الطبقة المتناقضة. وتكون الطبقات في كل منها أصيلة ومختلفة من حيث مكانها في الانتاج: فبعض الطبقات تكون مهيمنة وأخرى مضطهدة. ان وضع الطبقات هذا مشروط بعلاقتها المختلفة بوسائل الانتاج. هذه هي أهم سمة محددة للفوارق الطبقة. فليس ثمة طبقات في المجتمع الذي يكون الناس فيه ذوي علاقة واحدة بوسائل الانتاج. ان الملكية الخاصة لوسائل الانتاج هي الأساس الاقتصادي لانقسام المجتمع الى طبقات، أساس استغلال مالكي وسائل الانتاج للطبقات الكادحة المنتجة للخيرات المادية. وهكذا، فان السمتين الأولين للفوارق الطبقة اللتين أشار اليهما لينين تعبران عن جوهر وخصائص النظرية الماركسية للطبقات. إنها تكشفان عن الرابطة بين وجود الطبقات وبين التشكيلات الاجتماعية المعينة، وتبرزان المقياس الرئيسي لتحديد الفوارق الطبقة، ذلك المقياس هو العلاقة بوسائل الانتاج. أما السمات الأخرى فهي سمات فرعية.

ان العلاقة بوسائل الانتاج تحدد دور الطبقة في التنظيم الاجتماعي للعمل. ان البورجوازية في العهد الرأسمالي هي منظمة الانتاج، بينما العمال يكونون مضطرين للخضوع الى نظام العمل الرأسمالي. وينبغي القول بأن الرأسماليين ليسوا رأسماليين لأنهم ينظمون الانتاج. وانما الأمر على العكس من ذلك، فهم يقومون بتنظيم الانتاج لأنهم رأسماليون - مالكون لوسائل الانتاج الرئيسية. ويتسع استخدام الرأسماليين للناس الاختصاصيين من أجل تنظيم الانتاج. فيقدمون لهم الرواتب الباهظة والمراكز العالية كرؤساء للشركات ومدراء ومراقبين... الخ.

أما الانتهازيون في الرأسمالية المعاصرة، وكذلك الاصلاحيون والتحريفيون فهم يصورون حقيقة عدم قيام مالكي وسائل الانتاج بالادارة المباشرة للانتاج

على أنها، أولاً، تغيير لشكل الرأسمالية الى ما يدعى بـ «مجتمع المديرين»، كما لو كان الاختصاصيون التقنيون هم أصحاب الحل والربط وليس الرأسماليون. ويفسرون هذه الحقيقة، ثانياً، على أنها تصفية للاستغلال. ويعتبر هذا الرأي نموذجاً بالنسبة للنظرين البورجوازيين، وهذا انتشار واسع بينهم.

صحيح، ان الرأسمالية المعاصرة تختلف عن رأسمالية القرن الماضي، لكنها لا تتعدى كونها رأسمالية. ان «المديرين» ينفذون ارادة الرأسماليين المالكين، ويبقى الربح هدف الانتاج، كما وان الاستغلال يبقى بكمليته. لكنه ثمة نتيجة مهمة لتحليل هذه العملية - فهي تبرهن على التطفل المتزايد لطبقة البورجوازية وعدم لزومها مطلقاً للانتاج. وكما تدل تجربة الاتحاد السوفيتي وبلدان المعسكر الاشتراكي الأخرى، فان الكادحين، وفي طليعتهم الطبقة العاملة، ينظمون، بعد سيطرتهم على وسائل الانتاج، الانتاج الاجتماعي بنجاح وبدون الرأسماليين.

والسمة الأخيرة التي أشار اليها لينين هي - أشكال ومقدار الدخل. هذه السمة تنبغي دراستها بربطها مع كل السمات الأخرى. ثم لا ينبغي نسيان أن هذه العلاقة بوسائل الانتاج تحدد طريقة تحصيل الدخل ومقداره لهذه الطبقة أو تلك. وهكذا، فان البورجوازي والبروليتاري يختلفان بشكل الدخل، إذ هو الربح عند الأول، وأجور العمل عند الثاني. وان حفنة الرأسماليين ينفردون بحصة الأسد من الثروة الاجتماعية وذلك على شكل أرباح، بينما لا تتعدى اجرة العمل للملايين العمال قيمة قوة عملهم، وكثيراً ما يعجزون عن نوال هذا أيضاً.

ان مسألة التوزيع تلعب دوراً مهماً في حياة المجتمع لأن طابع التوزيع يحث على الانتاج مباشرة ويحدد مستوى حياة الفئات المختلفة من السكان. ان الايديولوجيين البورجوازيين يصورون الرأسمالية المعاصرة كلوحة شاعرية. إنهم يذهبون الى أن التوازن في البلدان الرأسمالية المتطورة يتحقق بين

الدخل وبين مستوى المعيشة: فيتلصص دخل الأغنياء، ويزداد دخل الفقراء، وتتسع « الطبقة الوسطى » التي تبتلع الفئات العلوية والسفلية. ومن هنا ينتهون الى القول « باختفاء » الفوارق الطبقية والنضال الطبقي في المجتمع الرأسمالي، وبالطبع، بعدم ملائمة الماركسية للنظام الرأسمالي.

لكن هذه اللوحة تشوه الواقع. لنأخذ، على سبيل المثال، الولايات المتحدة الأمريكية أغنى بلد رأسمالي في العالم، حيث تمكنت الطبقة العاملة في نضالها ضد الرأسمالية الأخرى. فهل هناك ثمة تساوي في الدخل؟ هاكم بعض الأرقام: في عام ١٩٥٧ كان متوسط الدخل لـ ٢٠٪ من الأسر الأمريكية ذات الدخل المنخفض يؤلف حوالي ١٥٠٠ دولار في العام، ومتوسط الدخل لـ ٥٪ من الأسر الأوفر سعة كان يؤلف ٢٥,٠٠٠ دولار في العام - أي ان الفرق ١٧ ضعفاً تقريباً. فأي توازن هذا؟ لكن متوسط الأرقام لا يكفي دائماً. ففي ذلك العام كانت أجور الزنوج في الولايات المتحدة الأمريكية أقل بـ ٣٦,٦٪ والزنوجيات بـ ٤٠٪ من أجور البيض. وان ٣٣٪ من سكان الولايات المتحدة الأمريكية يعيشون في الأكواخ. ان الرأسماليين يضعون أيديهم على الكمية الرئيسية من الدخل القومي. فلو أخذنا العالم الرأسمالي ككل لوجدنا أن الهوة بين الغني والفقير أشد عمقاً.

وهنا ينبغي التأكيد على ان الطبقات المستغلة كلها تملك دخلاً ناتجاً لا عن عملها وانما عن ابتزاز عمل الغير. وان النشاط الانتاجي المادي للكادحين هو ينبوع غنى الطبقات المستغلة. وتحيط الطبقة المسيطرة الشكل المعين للملكية الخاصة التي تشرط سيطرة طبقة على أخرى، باطار قدسي، وتعززه بطريقة سن القوانين، وتحميه بكل مالدى الدولة من قوة.

نشوء الطبقات

في مرحلة معينة من تطور الانتاج تنشأ امكانية بل حتمية ظهور الطبقات.

ان لامكانية ظهور الطبقات جذورها العميقة في مستوى معين لانتاجية العمل حيث يظهر العمل الفائض ويصير استغلال قوى الانسان العاملة أمراً مريحاً اقتصادياً. ولقد أشار ماركس، لدى توضيحه هذه الفكرة في « رأس المال » الى أنه طالما لم تبلغ انتاجية العمل الحد الأدنى المطلوب بعد، فلن يكون عند العمال وفر زمني لا بد منه لتوفير العمل الفائض، وبالتالي لن يكون هناك رأسماليون أو اقطاعيون أو مالكو عبيد، وبكلمة أخرى، لن توجد تلك الطبقة من الملاكين الكبار الذين يعيشون على حساب عمل الغير.

ان لحتمية ظهور الطبقات جذورها في مستوى معين لتطور الانتاج حيث يكون تطوره مستحيلاً بدون تقسيم العمل. ولقد أشار أنجلز، عند توضيح هذه الفكرة في كتابه « أنتي دهرينغ »، الى أنه طالما أن العمل الاجتماعي يعطي المتاجراً عامداً يفوق حد الوسائل الضرورية لوجوده، وطالما ان العمل يستهلك معظم وقت غالبية أفراد المجتمع او كل هذا الوقت، فان المجتمع لا بد وأن يتقسم الى طبقات. وإلى جانب هذه الغالبية العظمى - المهمة في العمل الاكراهي تنشأ طبقة متحررة من العمل الانتاجي وتقوم ببعض الاعمال الاجتماعية كادارة العمل أو الحكم أو القضاء أو في مجالي العلم والفن الخ... وعن هذا ينتج أن قانون تقسيم العمل كامن في أساس نشوء الطبقات.

ان ظهور الطبقات يعني تقسيم المجتمع الواحد. كيف تتكون الطبقات نتيجة لتطور الجماعة القبلية البدائية؟

ان تطور قوى الانتاج، ونمو انتاجية العمل، وتقسيمه، تخلق المنطلقات الاقتصادية من أجل ظهور الطبقات. فهي تتكون بادئ ذي بدء عن طريق تقسيم الجماعة البدائية الى فئات طبقية. فتتشكل الطبقة المسيطرة من تلك الأسر التي كانت تقوم بالوظائف الاجتماعية وتستخدمها من أجل تجميع الثروات الضخمة بين ايديها.

ان الناس المختارين من أجل ادارة وظائف اجتماعية معينة في ظروف تقسيم

العمل والملكية الخاصة لا يفتنون يسيئون استخدام الوظائف الاجتماعية ليجعلوها وقفاً عليهم مدى الحياة ثم يتوارثها أحفادهم من بعدهم . وهكذا يتحول خدم المجتمع الى سادته .

ان كثيراً من نظريي البورجوازية والبورجوازية الصغيرة كانوا يؤكدون أن المصدر الأول لتقسيم المجتمع الى طبقات هو العنف، كالفتح، مثلاً. صحيح لقد لعب العنف دوراً كبيراً في عملية نشوء الطبقات، لكنه لا يستطيع لوحده أن يولد الطبقات. فعندما كان الناس يستخدمون الفأس الحجرية لم يكن أي عنف قادراً على خلق الانتاج الفائض، وبالتالي: على خلق الشروط لموجود علاقات استغلالية. إن العنف ليس سبباً ولكنه نتيجة! وان الأسباب الاقتصادية هي التي مهدت السبيل لنشوء الطبقات.

ان أول تقسيم طبقي للمجتمع كان الى فئتين: فئة الأرقاء، وفئة ملاكي الأرقاء.

ولكن قضية نشوء الطبقات لا تفسر بهذا فقط، فالانتقال من مجتمع عهد الرق الى المجتمع الاقطاعي، ومن المجتمع الاقطاعي الى الرأسمالي لا يعني تحولاً بسيطاً، لتلك الطبقات التي نشأت من قبل، الى طبقات التشكيلة الجديدة، أي تحول الأرقاء الى فلاحين أقنان، وأسياد الرقيق الى اقطاعيين. لقد كان تغير تشكيلة عهد الرق الى تشكيلة اقطاعية مرتبطاً بعملية جد معقدة.

وعندما درس ماركس عملية التكدنيس الرأسمالي الأول في « رأس المال » أعطى وصفاً لظهور الطبقتين الرئيسيتين في التشكيلة الرأسمالية: البورجوازية والبروليتاريا.

ولقد بلغ المجتمع في وقتنا هذا مستوى من التطور نضجت فيه مسألة القضاء على الطبقة. وان البلدان الاشتراكية تقوم بحل هذه المسألة حلاً عملياً.

٢ - تحليل البنية الطبقة للمجتمع

طريقة التحليل الطبقي: ان النظرية الماركسية اللينينية للطبقات تمكننا من فهم دوافع الناس الكثيرة والمتنوعة، وربطها بالمصالح المادية المعينة للفئات الاجتماعية الكبيرة - الطبقات، ربط الفردي بالاجتماعي العام. ويسمح لنا تحليل الجذور الاجتماعية لتلك الدوافع بكشف الأسباب المادية التي تحدد أفكار الطبقات وعلاقاتها السياسية، وحركة الجماهير الواسعة وتصادمها. فمثلاً يمكن أن يكون الرأسمالي رب أسرة صالحاً، يحب أولاده، ويهوى جمع التحف والأشياء الصغيرة الجميلة الأخرى، بينما الآخر يكون شريراً حقوداً شيطانياً لايهمه أمر أسرته أو ماعداها... بيد أن الأمر الرئيسي الذي يجمع بينهما هو أن لكل منهما ملكية، وكلاهما رجل أعمال يبتز الأرباح ويقوم بتمثيل طبقته الاجتماعية. فلكي تشخص طبقة الرأسماليين لاتهم الجدارة الشخصية، وعيوب ممثلي هذه الطبقة، بل المهم هو أن نشاطها يحفز الركن وراء الربح وأنها تعيش على استثمار البروليتاريا، وتهتم في حفظ وتمتين علاقات السيد والمسود. وبالمطبع، ان هذه العلاقات والمصالح الطبقة تنفذ الى العلاقات الشخصية في المجتمع البورجوازي وتترك أثرها الواضح على الصفات الخاصة بتمثلي الطبقات البورجوازية. ان تأثير هذه المصالح الضار، وعدم انسجامها مع العلاقات الانسانية الصحيحة تنعكس في مؤلفات كثير من الكتاب الواقعيين. والحقيقة أن تلك المصالح بالذات هي الدافع المحرك الأساسي لنشاط البورجوازية كطبقة، وينبغي ألا ننسى هذا لدى تحليلنا للمجتمع الرأسمالي.

وهكذا فنحن، اد نحدد المصالح الرئيسية للطبقات، المشروطة بمكانها التاريخي في نظام معين للانتاج، نستطيع أن نبين بجلاء إليهم تهدف كل طبقة بالنسبة لشروط حياتها، وماذا تحقق من تلك الأهداف، وأن نفهم كذلك العمليات العميقة التي تحدث في المجتمع. وعند تحليلنا للبنية الطبقة لمجتمع

أو لبلد ما ونحدد مصالح كل طبقة فيه ، فاننا نحصل على لوحة موضوعية للعلاقات بين قوى ذلك المجتمع ، ونبين الجانب الجوهري لتناقضاته ومنازعاته . ان طريقة الدراسة الطبقة والتحليل الطبقي التي وضعتها النظرية الماركسية - اللينينية عن الطبقات والنضال الطبقي ، هي المرشد الضروري في دراسة التاريخ ، والوسيلة الكفيلة لاهتدائنا في شبكة النضال المعقدة . ولقد استخدمت هذه الطريقة عملياً في أعمال ماركس وإنجلس ولينين . وتسير على هديها الأحزاب الشيوعية في العالم كله عند تحديد سياستها في ظروف النضال الحسية المختلفة .

البنية الطبقة للمجتمع الرأسمالي

ان البنية الطبقة لأي مجتمع كان هي لوحة شديدة التعقيد . ومن أجل تحليلها تحليلًا صحيحاً ينبغي ، قبل كل شيء ، تحديد الطبقات الرئيسية التي تعبر العلاقات فيما بينها عن الخط الرئيسي لتطورها ، منطلقة من قاعدة ذلك المجتمع . وينبغي أيضاً أن نعرف بوجود طبقات ثانوية غير أساسية في المجتمع مرتبطة بوجود قطاعات الاقتصاد ، وفئات اجتماعية متوسطة تختلف بتركيبها عن الطبقات . فلنأخذ ، على سبيل المثال ، البنية الطبقة للمجتمع الرأسمالي المعاصر . ان الطبقتين الرئيسيتين فيه هما البورجوازية والبروليتاريا . وان وجود هاتين الطبقتين في المجتمع مشروط بعلاقات الانتاج الرأسمالية . وخلال التأثير المتبادل بين هاتين الطبقتين تتم حركة الانتاج الرأسمالي . ان البورجوازية والبروليتاريا هما قطبا المجتمع الرأسمالي المتباعدان ، ومصالحهما تقف مباشرة على طرفي نقيض ، فبينما ينحصر اهتمام البروليتاريا في القضاء على النظام الرأسمالي ، نرى البورجوازية تجهد للحفاظ عليه . ان الأحزاب الشيوعية تعبر عن مصالح البروليتاريا الطبقة كقوة ثورية رئيسية للمجتمع الرأسمالي المعاصر .

ان القطاع السلمي الصغير يمثل الحرفين والتجار الصغار والفلاحين . إن الفلاحين هم طبقة وسطية لا أساسية في المجتمع الرأسمالي ، موجودة ، تقريباً ، في جميع البلدان الرأسمالية . . . وتحت تأثير العلاقات الرأسمالية ينقسم الفلاحين الى بورجوازية ريفية وبروليتاريا . ان ملكية الفلاحين الخاصة تختلف عن الملكية الرأسمالية الخاصة بكونها قائمة على أساس العمل الشخصي . فالفلاحون لا يستثمرون عمل الآخرين بل هم أنفسهم يخضعون للاستغلال الرأسمالي .

وبالإضافة الى الرأسماليين والعمال والبورجوازية الصغيرة في المجتمع الرأسمالي ثمة فئة كبيرة من المثقفين والمستخدمين . وهذه الفئة ليست مالكة لوسائل الانتاج ، ولا منتجة للخيرات المادية ، ولهذا فهي تمثل فئة اجتماعية ، لطبقة اجتماعية . فالمستخدمون هم عمال مأجورون في قطاع الانتاج الاجتماعي اللامادي ، أي في مؤسسات الدولة ، والأجهزة الادارية للشركات ، والتجارة . . . وغيرها . والمثقفون هم العاملون الفكريون : المهندسون والأطباء والمعلمون ورجال الأدب والفن . . . وهم من حيث عملهم يؤلفون حداً وسطاً بين الطبقات ، ويخدمون أغراض الانتاج والمجتمع والطبقة المسيطرة . وهكذا فبالإضافة الى الطبقات الرئيسية والثانوية في المجتمع ثمة فئات اجتماعية ومختلفة قائمة بين الطبقات .

وينبغي علينا ، اذ نواصل تحليلنا للبنية الطبقة في المجتمع الرأسمالي ، أن نتبين أن تلك الطبقات والفئات الاجتماعية جميعاً مختلفة في أصولها . ففيها ثمة فئات ومجموعات ذات مصالح متباينة . ان تحديد الفروق بين البورجوازية الصغيرة ، والكومبرادور ، في البلدان المتخلفة ، وبين البورجوازية الصغيرة والبورجوازية الاحتكارية الكبيرة ، في البلدان الرأسمالية المتطورة ، ذو أهمية جوهرية . ففي وقتنا الحاضر نجد أن القوة الاقتصادية والسياسية للعالم الرأسمالي تنحصر في أيدي البورجوازية الاحتكارية - في أيدي حفنة صغيرة من أساطين رأس المال الذين ينفردون بالكمية الأساسية من الربح . ان مصالحهم

تتناقض مع مصالح أغلبية الناس المطلقة. إنهم يعلنون العداء للشيوعية، ويؤثرون نار الحرب الباردة، ويركضون وراء التسلح. إن البورجوازية الاحتكارية هي القوة الرجعية الرئيسية في زمننا المعاصر، المعادية لقضية السلم، والديمقراطية، والتقدم الاجتماعي.

أما فيما يتعلق بالبورجوازية المتوسطة فهي لا تهتم دائماً بالركض وراء التسلح، وإن البورجوازية الوطنية في البلدان المستعمرة أو التي كانت مستعمرة يمكن أن تكون، في مراحل معينة، قوة تقدمية وحليفة للطبقة العاملة في نضالها ضد الاستعمار.

وتنقسم البورجوازية الصغيرة إلى بورجوازية المدينة الصغيرة وبورجوازية الريف، وتنقسم هذه الأخيرة إلى ريفية متوسطة وفقيرة... وهكذا.

وفي الطبقة العاملة ثمة فئات العمال الصناعيين والعمال الزراعيين، فئات العمال المهرة، والعمال العاديين... الخ. وهناك فئة الارستقراطية العمالية التي تعتبر الأساس الاجتماعي للانتهازية، ومن الملاحظ تضاد عددها وانحسار تأثيرها، في وقتنا الحاضر، نتيجة انهيار النظام الاستعماري. فقد أدى هذا إلى استغناء البورجوازية الاحتكارية في الدول الاستعمارية عن العدد الضخم الذي كانت تشكله الارستقراطية العمالية. وبالإضافة إلى هذا، فإن من نتائج التقدم التكنيكي المرتبط بأتمتة الانتاج في النظام الرأسمالي تقلص الحاجة إلى العمال ذوي الكفاءات العالية والاختصاصات القديمة. وبنتيجة ذلك تفقد الوظائف المرتفعة الأجور، التي كانت تتمثل في الارستقراطية العمالية، تفقد أهميتها.

وثمة فئات أخرى مختلفة من المثقفين والمستخدمين يتميز من بينهم مديرو المؤسسات، وكبار الموظفين، والاختصاصيون التكنيكيون... وغيرهم. وهذه الفئات تندمج في الواقع مع البورجوازية، أو تلتقي معها بنمط وطريقة التفكير. وإن الفئات الدنيا من المثقفين والمستخدمين يستغلهم الرأسماليون. إن معدل الأجور الوسطي لتلك الفئات من المثقفين هو أدنى من الحد

الوسطي لأجور العمال ذوي الكفاءات. وبموجب مكننة الحسابات وأعمال المحاسبة وأشكال النشاط الأخرى في القطاع اللاتجاري تتقارب شروط عمل العمال والمستخدمين. ويزداد الآن بسرعة عدد وأهمية المستخدمين والمهندسين التكنيكيين في المؤسسات الرأسمالية. ولهذا فقد اعتبر الماركسيون في كثير من البلدان أن أهمية هذه الفئة من الكادحين يمكن أن تعد صفراً من صفوف الطبقة العاملة في وقتنا الحاضر. فهم يقولون إن المستخدمين هم أيضاً عمال لكنهم لا يرتدون بدلات زرقاء وإنما ذوو ياقات بيضاء، وإن الوظائف التي يقومون بها تؤلف جزءاً هاماً في بنية الانتاج بموجب مهام الأتمتة الجديدة للتكنيك. وثمة فريق آخر يعتبر أن هذه النظرة غير صحيحة البتة. صحيح أنه يلاحظ، في البلدان الرأسمالية، عملية «إزالة الحدود» بين العمال وقسم من المستخدمين، وتحول المستخدمين إلى بروليتاريين، واقترابهم من الطبقة العاملة، ولكنه، مع هذا، يبقى بين العمال والمستخدمين حد مبدئي لا يسمح بادخال المستخدمين ضمن الطبقة العاملة. إن الطبقة العاملة تنتج فضل القيمة أما نشاط المستخدمين فمرتبط بحسابات فضل القيمة المنتج وتبادلته وتوزيعه... الخ. أما ما يتعلق بالمهندسين والتكنيكيين الذين يعملون مباشرة في ميدان الانتاج المادي فإنهم يقومون بوظيفة المراقبة رغم توفر أمور كثيرة تقرهم من الطبقة العاملة.

هذه القضية ما تزال اذن موضع نقاش. لكن الجميع يتفقون على أن البروليتاري الصناعي هو نواة الطبقة العاملة، والقوة الرئيسية للحركة الثورية. إن الحدود التي تفصل بين الطبقات والفئات الاجتماعية هي، في الغالب، حدود نسبية وغير ثابتة، ويكون الانتقال تدريجياً، ولكن هذه الفوارق موجودة فعلاً، ويتمتع ابراز الكتل الاجتماعية الأساسية بأهمية فائقة من أجل التطبيق ومن أجل العلم الاجتماعي. إن البنية الاجتماعية للمجتمع الرأسمالي جد معقدة، لكننا نستطيع أن نبرز منها ثلاث فئات رئيسية: البورجوازية، والبروليتاريا، و«الفئات المتوسطة» التي تضم جميع الفئات الاجتماعية

المتوسطة والطبقات الثانوية.

إن تحليلنا للبنية الاجتماعية ولمصالح الفئات الاجتماعية المختلفة ووزنها في المجتمع، ودرجة وطابع تأثيرها على الحياة الاجتماعية، نستطيع متابعتها، وتجسيدها في بلد ما وفي فئات بلد ما، آخذين، بعين الاعتبار، تأثير الخصائص القومية على الطبقات والعلاقة المتبادلة فيما بينها... الخ. وستكون لدينا، في النهاية، لوحة موضوعية لوضع نسبة القوى في المجتمع تنبغي معرفتها لدى تفسير سير الأحداث التاريخية، ولدى تحديد الخط السياسي لحزب البروليتاريا في هذه الشروط المشخصة أو تلك.

نقد النظريات البورجوازية «التنضيد الاجتماعي»

إن علماء الاجتماع البورجوازيين، إذ يستغلون تعقد البنية الطبقية للمجتمع الرأسمالي الحديث يحالون نفي وجود طبقتين رئيسيتين في المجتمع، وتغطية التناقض القائم بين البورجوازية والبروليتاريا، ويقابلون الماركسية بما يسمى بنظرية «التنضيد الاجتماعي»، التي ينقسم المجتمع بموجبها إلى فئات. ومهمة عالم الاجتماع، في نظرهم، هي تقصي تقسيم المجتمع إلى هذه الفئات - تنضيد المجتمع وحركة الناس ضمن الفئات وفيما بينها - أي الحركة الاجتماعية.

هنا نتساءل: ما هو المقياس المستخدم لتبيان الفوارق بين هذه الفئات؟ ولدى الإجابة على هذا السؤال ليس ثمة رأي واحد بين علماء الاجتماع البورجوازيين. لكنهم جميعاً يتفقون على نفي القول بأن «العلاقة بوسائل الانتاج هي الدليل الحاسم في تقسيم المجتمع إلى طبقات. وعندما يأتون بمقياس اقتصادي فانهم لا يتعدون مجال التوزيع (مقدار الدخل) أو الشروط الحياتية المادية (المعيشة)، أي تلك الجوانب من الحياة التي ترتبط بالانتاج. وكمثال على ذلك يمكن أخذ نظرية «التنضيد ذي المقاييس

الكثيرة» الصادرة عن عالم الاجتماع الألماني «م. فيبر» (توفي عام ١٩٢٠). كان هذا العالم يعتبر أن المجالات الاقتصادية الاجتماعية («نمط الحياة») والسياسة هي «مقاييس» مختلفة وقائمة بذاتها للحياة الاجتماعية، ويفترض أنه من الممكن دراسة الفوارق الاجتماعية في كل من هذه المقاييس على حدة. وبهذه الطريقة يحصل على عدة «تنضيدات»: ففي المقياس الاقتصادي ينقسم الناس إلى طبقات، وفي المقياس الاجتماعي - يتكون النظام الـ «ستاتوس»^(١)، وفي المقياس السياسي - يظهر الانقسام إلى أحزاب. إن عيب هذه النظرية هو في نفيها الإلتباط مجالات الحياة الاجتماعية المختلفة بالاقتصاد، وفي استبدالها النظرة الموحدة العميقة للحياة الاجتماعية بنظرة شكلية ظاهرية، وهذا ما يتسم به علم الاجتماع البورجوازي المعاصر بوجه عام. وليس من قبيل الصدفة جعلهم مبدأ «التنضيد الاجتماعي» كأحد منجزات العلم الاجتماعي. وعلى أساس هذا المبدأ قام كثير من النظريات التي تختلف عن نظرية فيبر، والواحدة منها عن الأخرى، بعدد المقاييس وطابع السمات الموضوعية في أساس التنضيد وقد قال عالم الاجتماع البورجوازي الانكليزي «ت. مارشال» بصدد هذا المبدأ، في المؤتمر الدولي الثالث لعلم الاجتماع، عام ١٩٥٦،: «لم يعد ثمة ريب الآن أن في كل مجتمع تقدمي، حيث النشاط الاجتماعي والثقافي على مستوى جيد من التطور تعمل بعض مقاييس التنضيد».

إن نظريات «التنضيد الاجتماعي» ليست علمية إجمالاً. إن ما يميزها جميعاً، هو نبذها الاعتماد على مقياس اقتصادي موحد من أجل تحديد بنية المجتمع الطبقية؛ وخلطها ما بين التقسيم الطبقي الرئيسي للمجتمع وبين الحواجز الانتاجية الثانوية بين الناس؛ وأنها تفضي بنا حتماً إلى الذاتية في فهم التاريخ؛ كما يميزها أيضاً تغطيتها للتناقض القائم بين الطبقتين الرئيسيتين في

(١) قواعد موضوعية من أجل تحديد سلوك جماعة ما.

المجتمع الرأسمالي، وهي أمور ترفضها المادية التاريخية. وفي هذا تتجلى الطبيعة الطبقيّة لنظرية «التنضيد الاجتماعي»، ودورها المفيد بالنسبة لمصالح البورجوازية.

إن حماة الرأسمالية المعاصرة لن يفلحوا، مهما حاولوا، التهرب من الحقيقة القائلة بأن علاقات الانتاج الرأسمالية تحمل طابعاً تناقضياً، ذلك لأن علاقات الاستغلال والسيطرة والاختصاص، لا بد لها وأن تولد النضال الطبقي.

٣ - النضال الطبقي، ودوره في التاريخ خصائص النضال الطبقي للبروليتاريا

النضال الطبقي - قوة محرّكة لتطور التشكيلات المتناقضة

مع انقسام المجتمع الى طبقات ينشأ النضال الطبقي الذي يؤلف - كما رأينا - خاصة التطور لكل التشكيلات الاجتماعية المتناقضة. ان النضال الطبقي، اذ ينشأ عن علاقات الملكية الخاصة، يصبح وسيلة في يد الطبقة المستغلة من أجل تعزيز سيطرتها، والطريقة الوحيدة للتحرر من يد الطبقة المظلومة المضطهدة. وثمة قطبان دائمان في النضال الطبقي: محافِظ رجعي - من جهة، وثوري من جهة أخرى. الأول يسعى للمحافظة على القديم، والثاني لتحطيم هذا القديم، وانشاء علاقات اجتماعية جديدة.

ان الطبقات تعمل حسب مصالحها المتبطة بالعلاقات الانتاجية. فمصلحة الطبقات المظلومة تدفعها الى النضال ضد المستغلين. وطالما أن الشروط المادية لقيام النظام الاجتماعي الجديد لم تنضج بعد، فان التشكيلة القديمة لا تستنفذ كل امكانياتها بعد، ويتسنى لها، بذلك، الابقاء على القديم في نضالها ضد الطبقات المظلومة.

ان القوى الثورية تنبصر عندما تنضج المنطلقات المادية اللازمة لهذا النصر، عندما يحدث النزاع بين قوى الانتاج الجديدة وعلاقات الانتاج القديمة في قلب المجتمع. وفي هذه الظروف يكون النضال القوى الشعبية الطبقي الثوري، التي يهيمها تحطيم العلاقات الاقتصادية المهترئة هو وحده القادر على حل هذا النزاع، وفتح الطريق أمام تطور قوى الانتاج. ان النضال الطبقي الثوري هو الوسيلة الوحيدة التي، بواسطتها، تحل القضايا الناضجة لتطور الاجتماعي في التشكيلات الطبقيّة المتناقضة، ويكفل انتصار الجديد على القديم. ولهذا فهو القوة المحركة لتطور التشكيلات الطبقيّة، وشكل حل التناقضات الاجتماعية في ذلك المجتمع.

ان خاصّة كل تشكيلة اجتماعية قائمة على الملكية الخاصة هي في أن تناقضاتها لا يمكن أن تحل في نطاق هذا الشكل من الملكية. ومع تطور التشكيلة تتعمق هذه التناقضات وتحتدم وتنعكس في النضال الطبقي، وتُحلّ بالثورة التي تحطم النظام القديم وتفتح الطريق أمام تطور اسلوب الانتاج الجديد. ان الثورة ذاتها هي أعلى نقطة في قمة النضال الطبقي. وعلى هذا، فان نضال الطبقات الثورية هو ذلك الشكل الضروري، تاريخياً، من أجل النشاط العملي الاجتماعي، الشكل الذي يؤدي الى الخروج عن نطاق التشكيلة الاجتماعية المتفسخة فيحرك بهذا المجتمع قدماً الى الأمام، ويرفعه الى درجة جديدة أعلى تكون شروطها المادية مهية لتطور الانتاج.

لقد قوض النضال ضد ملاكي الأرقاء بنيان مجتمع عهد الرق؛ وأدى نضال الفلاحين وحرّفي المدينة الصغار قيادة البورجوازية، الى سقوط النظام الاقطاعي وفتح الطريق للتطور الرأسمالي. وفي عهد الرأسمالية يتطور نضال البروليتاريا ضد البورجوازية.

ويؤثر النضال الطبقي كذلك على تطور قوى الانتاج. فكما أوضح ماركس، ان نضال العمال من أجل تقليص يوم العمل جعل الرأسماليين مضطرين للبحث عن وسائل مضاعفة الأرباح بطرق أخرى - كادخال الآلات مثلاً.

كما يؤثر النضال الطبقي أيضاً على الجوانب الأخرى للحياة الاجتماعية. فالتغيرات في البنيان الفوقي القانوني - السياسي، والظواهر الكثيرة في مجال الأدب والفن، وكل النضال الايديولوجي في المجتمع، يحددها جميعا النضال الطبقي.

جوهر النضال الطبقي للبروليتاريا ومهامه

ان ماثرة الماركسية اللينينية التاريخية هي في تحليلها العملي لنضال البروليتاريا الطبقي وأسباب نشوئه ومجالات تطوره. وان منطلقات المادية التاريخية بالنسبة لهذا الموضوع هي كما يلي :

ان التناقضات العنيفة الحادة بين البروليتاريا والبورجوازية تنشأ حتماً عن العلاقات الانتاجية الرأسمالية، علاقات استغلال رأس المال للعمل المأجور. وان ظروف الحياة، نفسها، تدفع البروليتاريا الى النضال ضد البورجوازية من أجل تحسين معيشتها. ومع تطور الرأسمالية لا تخف حدة هذه التناقضات بل تزداد احتداماً.

والى جانب هذا فالرأسمالية تطور الشروط المادية التي تحدد اتجاه نضال البروليتاريا الطبقي ونتائجه الحتمية. والرأسمالية، اذ تطور القوى الانتاجية الجبارة، وتضيف على عملية الانتاج الطابع الاجتماعي، تخلق المنطلقات المادية للقضاء على استغلال واستبدال الملكية الخاصة بملكية اجتماعية ملائمة لطابع قوى الانتاج. ان وجود الطبقات، الذي كان ضرورة في احدى مراحل تطور الانتاج الاجتماعي، يتحول الى عائق للتقدم التاريخي. وفي مثل هذه الشروط لا يقدر البروليتاري أن يحرر نفسه الا بتحرير المجتمع، ككل، من الملكية الخاصة ومن الاستغلال. وان حل هذه المسألة الاجتماعية يؤلف المهمة العالمية التاريخية العظيمة للبروليتاريا - أكثر الطبقات ثورية في التاريخ.

هناك من يتهم الماركسيين بأنهم يجعلون من البروليتاريا صانعة المعجزات،

ويعتبرونها الطبقة « المختارة ». كلن هذه الاتهامات لا أساس لها، ذلك أن لكل طبقة خصائصها، وليس ثمة مستحيل في هذا. ان لطبقة البروليتاريا خصائصها اذن. فهي طبقة لا تمل شيئاً، وليست ملزمة بالدفاع عن أية ملكية خاصة حتى الملكية الصغيرة، وهي لا تفقد شيئاً غير قيودها. وليس من ريب اذن في أنها المناضل الذي لا يكل ضد كل ملكية خاصة. ثم ان البروليتاريا مرتبطة بأكثر أشكال الانتاج تقدمية - بالصناعة الضخمة؛ ولهذا فهي تتطور مع تطور الرأسمالية. وجهات البروليتاريا تتجمع بحشود ضخمة في المعامل والمصانع، وفي المدن والمراكز الصناعية. وان شروط العمل الجماعي تعلمها على النظام والتنظيم. وان وضع الطبقة في المجتمع الرأسمالي يحفزها الى النضال الحاسم من أجل الاشتراكية. وهكذا، فالأمر ليس دعاية لطبقة البروليتاريا وانما هو تقديم للواقع الموضوعي للأشياء. بيد أن البروليتاريا لا تخوض النضال لوحدها، فالرأسمالية، ولا سيما الاحتكارات الرأسمالية تظلم وتستغل الفلاحين وبورجوازية المدينة الصغيرة والقائمين بالعمل الفكري وكل شعوب المستعمرات والبلدان الدائرة في فلك الاستعمار. ولهذا فان مصالح البروليتاريا تلتقي مع مصالح الجذرية لكل الجماهير الكادحة، مع مصالح غالبية المجتمع، ويؤهلها وضعها هذا لأن تقود كل الجماهير المستغلة الى النضال من أجل الديمقراطية والاشتراكية. ثم إن مبادئ الماركسية - اللينينية هذه مؤيدة بالتطبيق العملي. ان المجتمع الرأسمالي المعاصر هو ميدان للنضال الطبقي الحاد. وتختلف خصائص هذا النضال من بلد الى آخر، فهو يتخذ أشكالاً حادة في بعض البلدان حسب ظروفها الموضوعية، ويكون أقل حدة في بعضها الآخر، لكنه قائم في كل مكان. وهو ينتج عن استغلال الكادحين وعن الضغط المستمر الذي قوم به رأس المال على مستوى المعيشة، وعن التهديد باسترداد المكتسبات الاجتماعية أو الحد منها، وعن هجوم الاحتكارات على الحقوق الديمقراطية والحريات، وعن السياسة العدوانية الخطرة التي تنتهجها البلدان الرأسمالية الكبرى، هذه السياسة القائمة على الركض وراء

التسلح واشعال نار حرب جديدة. . الخ . لقد جاء في البيان الصادر عن مؤتمر ممثلي الأحزاب الشيوعية والعمالية عام ١٩٦٠ : « أنه، في النتيجة، ومع احتدام التناقض الطبقي الرئيسي في المجتمع البرجوازي بين العمل ورأس المال، يزداد التناقض عمقاً بين حفنة الاحتكاريين وجميع فئات الشعب . . . ان الطبقة العاملة والفلاحين والمثقفين وبورجوازية المدينة، المتسولة والصغيرة، جميعاً، تلتقي في اهتمامها بالقضاء على سيطرة الاحتكارات وتصفيتها، وتنشأ الشروط الملائمة لتراض ووحدة هذه القوى جميعاً »^(١). ليس النضال ضد سيطرة الاحتكارات، في مرحلة معينة، نضالاً من أجل الاشتراكية، بل يكون ذا طابع ديمقراطي عام. وفي هذا النضال ينمو وعي الجماهير السياسي ويزداد تفاهم حول طبقة البروليتاريا، ويمهد الطريق لفهم ضرورة الثورة الاشتراكية.

ان النضال من أجل الديمقراطية هو جزء من النضال من أجل الاشتراكية. وعلى هذا، فان دياكتيك التاريخ يتبدى في أن الرأسمالية ذاتها تخلق عناصر فنائها، وتبيء المقدمات المادية لموتها. الا أن انهيار الرأسمالية لا يتم بصورة آلية تلقائية، ان القوة المحركة لهذه العملية هي النضال الطبقي الثوري الذي تخوضه البروليتاريا والجماهير الكادحة المنضوية تحت قيادتها، لاسيما اتحاد الطبقة العاملة مع الافلاحين.

المفهوم الماركسي والمفهوم الليبرالي في النضال الطبقي

ان نضال البروليتاريا الطبقي موجه ضد النظام البرجوازي بأكليته. لكنه من أجل تحطيم الرأسمالية لا بد للبروليتاريا من أن تنتزع السلطة من الرأسماليين. ولهذا فان مسألة السلطة هي المسألة الأساسية والرئيسية في

(١) وثائق النضال من أجل السلم والديمقراطية والاشتراكية ص ٧١ - ٧٢

النضال الطبقي. ان هدف نضال البروليتاريا الطبقي هو اقامة دكتاتورية البروليتاريا التي تستعملها هذه الطبقة كأداة لتحويل المجتمع، أي للقضاء على الرأسمالية وبناء الاشتراكية. وليس هذا الهدف تصوراً وخيلاً، وانما هو رؤية علمية صحيحة لاتجاه التطور التاريخي. ولما كانت مصالح البروليتاريا والبرجوازية متناقضة، وكان تطور الرأسمالية يبيء المنطلقات المادية للقضاء على الملكية الخاصة واستبدالها بملكية اجتماعية، ولما كان لا بد من مقاومة البرجوازية لقيام البناء الاجتماعي الجديد، وكانت البروليتاريا هي أكثر الطبقات تنظيمياً وثورية في المجتمع الرأسمالي، لذا فان الطريق الى الاشتراكية لا يمكن الا بقيام ديكتاتورية البروليتاريا. وهذا يعني أنه يجب على الطبقة العاملة تحقيق دكتاتورية البروليتاريا لا من أجل مصلحتها الخاصة وحسب، بل ومن أجل مصالح جميع الكادحين، من أجل مصلحة التقدم التاريخي. ولا يمكن أن تؤدي البروليتاريا هذه المهمة الا عن طريق النضال الطبقي العنيف ضد البرجوازية. ولهذا فان الماركسية تقرر ديكتاتورية البروليتاريا كنتيجة للنضال الطبقي الذي تشنه البروليتاريا في المجتمع البرجوازي. ان النضال الطبقي يؤدي حتماً الى ديكتاتورية البروليتاريا، وان النظرية الماركسية تعبر عن هذه الضرورة الموضوعية. « فالماركسي هو فقط ذلك الذي يوسع الاعتراف بالنضال الطبقي حتى يبلغ الاعتراف بديكتاتورية البروليتاريا »^(١). هذا هو المفهوم الماركسي حول النضال الطبقي.

وتسعى البرجوازية، وفقاً لمصالحها الطبقة، الى سحق الحركة الثورية التي تقوم بها الطبقة العاملة، وتستخدم من أجل ذلك، شتى أنواع العنف وطرق التأثير الايديولوجي على طبقة البروليتاريا من أجل حرمانها من وعيها الطبقي وربطها بايديولوجية ملائمة للبرجوازية. ويساعد الرأسماليين في هذا عمالؤهم المندسون في الحركة العمالية - الاصلاحيون والتحريريون. ان

(١) لينين المؤلفات. الجزء ٢٥. ص ٣٨٤

البورجوازية وعملاءها تسعى لاقناع البروليتاريا بأن التناقضات الطبقيّة يمكن حلها بسهولة في نطاق النظام البورجوازي ذاته، وبأنه إذا ما قام النضال كان عليه أن يؤدي لا إلى القضاء على الرأسمالية، وإنما إلى المصالحة بين الطبقات. وتعترف البورجوازية أحياناً بالنضال الطبقي، لكنها لا تقدر أبداً على الاعتراف بأن النضال الطبقي يؤدي إلى ديكتاتورية البروليتاريا. فقد كتب لينين فاضحاً هذا التشويه البرالي - البورجوازي قائلاً: « أن الليبرالية، عندما يشدد ساعد الحركة العمالية، لا تعزم على نفي النضال الطبقي، وإنما تسعى إلى تضييقه وحصره وتشديد الخناق عليه وتشويه مفهومه »^(١). وينحصر هذا « التضييق »، كما بين لينين، في انتزاع كل ما هو رئيسي في النضال الطبقي - مسألة انتزاع سلطة البروليتاريا. أن البورجوازية تعترف بالنضال من أجل المطالب الاقتصادية والإصلاحات الاجتماعية شريطة ألا يوجه ضد نظام الرأسمالية بالذات. وأن السياسيين والأيديولوجيين البورجوازيين يقابلون النضال الطبقي بالسلم الطبقي، بتعاون الطبقات، بالصدقة بين العمل ورأس المال. لكنه خلف هذه الكلمات « السلمية » تكمن المطالبة باستسلام البروليتاريا لوضعها القاسي، وبتخليها طوعاً عن أهدافها وبخضوعها للايديولوجية البورجوازية وتحويلها إلى أداة طيعة في يد السياسة البورجوازية. ويقوم الاشتراكيون الديموقراطيون اليمينيون والانتهازيون الذين هم عملاء للبورجوازية في الحركة العمالية بترويج شعارات التعاون الكاذبة المناقفة هذه. أن الاشتراكيين اليمينيين المعاصرين يرغبون عن ذكر النضال الطبقي في برامجهم ويرغبون عن الطريق الطبقي في حل كل القضايا السياسية والاجتماعية.

ومن أجل نفي النضال الطبقي في علم الاجتماع البورجوازي في وقتنا هذا تستخدم نظريات شتى حول الطبقات، معادية للماركسية، مثل « التنضيد

(١) لينين المؤلفات. الجزء ١٩. ص ٩٨.

الاجتماعي » و « الحركة الاجتماعية » وسواهما. ويؤكد علماء الاجتماع البورجوازيون، بعد أن ينكروا التناقض القائم بين الطبقتين الرئيسيتين في المجتمع الرأسمالي، أن التقدم ليس مرتبطاً بانتصار القوى الثورية، وإنما بنمو « الحركة الاجتماعية »، أي، بانتقال الناس من طبقة اجتماعية دنيا إلى طبقة أعلى. ويقدر ما يقدم هذا المجتمع من الامكانيات لهذه الحركة يكون أكثر تقدمة. وما فتئت الدعاية الاميركية تردّد وفقاً لنظرية « الحركة الاجتماعية » بأن كل أمريكي يستطيع أن يصبح مليونيراً. وهي إذ تحذع الناس بمثل هذه البدعة الكاذبة، تحاول صرف الجماهير عن النضال من أجل حقوقها.

الواقع أن « الحركة الاجتماعية » في الرأسمالية ليست هي التي تفتح المجال واسعاً أما الجماهير الكادحين من أجل تأمين حياة راغدة فعلاً وتحصيل العلم والثقافة والخبرات المادية الأخرى، وإنما القضاء على الرأسمالية ذاتها هو الذي يؤمن ذلك كله.

ولذا، ففي فهم النضال الطبقي ثمة وجهتان متناقضتان : وجهة النظر الماركسية التي تبين طريق تحرر البروليتاريا، وجهة النظر البورجوازية. وتنفي هذه الأخيرة القول بأن النضال الطبقي يؤدي حتماً إلى ديكتاتورية البروليتاريا، وهي لا تسمح للحركة العمالية أن تتعدى الحدود التي ترضى بها البورجوازية.

أشكال النضال الطبقي

يعتبر نضال البروليتاريا الطبقي لدى مقارنته بنضال الطبقات في التشكلات السابقة، أكثر تنظيمًا وتطوراً. أن تناقض الطبقات يتجلى في جميع ميادين الحياة الاجتماعية، لكنه يختلف من ميدان إلى آخر. وأن الشكل الاقتصادي والسياسي والأيديولوجي هي الأشكال الأساسية للنضال الطبقي. فلندرس خصائص هذه الأشكال والعلاقة المتبادلة فيما بينها بالنسبة لنضال البروليتاريا الطبقي. أن النضال الاقتصادي هو النضال الهادف إلى تأمين الحاجات

المعيشية اليومية للعمال، وتحسين شروط عملهم (رفع الأجور، تحسين شروط العمل وغيرهما) فقط، لا إلى القضاء على هذا الاستغلال. هذا النضال الاقتصادي هو الشكل الأول المبكر للنضال والذي يظهر عفواً كنتيجة مباشرة لظروف حياة العمال القاسية. وفي سير النضال الاقتصادي تنشأ المنظمات المهنية للعمال من أجل قيادته. ولهذا النضال أهمية بالغة باعتباره عملاً ضد الفقر، ويساعد على نمو التضامن الطبقي . . . ولابد لنا من فهم محدودية هذا النضال لتناوله اهدافاً جزئية معينة ولأنه لا يجعل القضاء على الرأسمالية مهمته الأساسية. ولقد بين لينين في نضاله ضد « الاقتصاديين » أن حصر نضال البروليتاريا في النطاق الاقتصادي يحكم على العمال بالعبودية الأبدية. وهذا هو الخط الذي ينتهجه قادة النقابات الرجعيون في الولايات المتحدة الأمريكية (ميني، رايتر وغيرهما). ان هؤلاء العملاء المخلصين لرأس المال يوجهون الحركة العمالية في طريق المطالب الاقتصادية، ويسعون الى المصالحة بين بالعمال والرأسماليين، والى اقامة « السلم الطبقي ». وقد قام في البلدان الرأسمالية نموذج خاص من رجال النقابات الرجعيين - البيروقراطيين الذين جعلوا من خيانة المصالح الرئيسية للطبقة العاملة مهمتهم الأولى، ويسعون لبث التفرقة في الحركة العمالية لمصالح الاحتكاريين. لكنه مع نمو وعي البروليتاريا في البلدان الرأسمالية يزداد تصميمها على توحيد صفوف الطبقة العاملة في النضال ضد هجوم الاحتكارات على مستوى حياة الشغيلة، في النضال من أجل الديمقراطية والاشتراكية.

ورغم أقوال وافعال الاصلاحيين والنقابيين البيروقراطيين وكل حماة الرأسمالية الآخرين فان النضال الطبقي في العالم الرأسمالي قائم على قدم وساق ويزداد احتداماً من حين لآخر، وهو أمر جلي في حقل النضال الاقتصادي. إن الوقائع تثبت زيادة عدد الاضرابات في الأعوام الأخيرة وزيادة عدد القائمين بها زيادة كبيرة، وأن الاضرابات غالباً ما تكون ذات طابع عنيد وطويل المدى. وهكذا، ففي البلدان الرأسمالية الرئيسية الست (الولايات المتحدة،

انكلترا، فرنسا، ألمانيا، إيطاليا، اليابان) كان متوسط عدد الاضرابات لكل خمس سنوات كما يلي : كان بين عامي (١٩٣٦ - ١٩٤٠)، ٥٧٩١؛ وبين عامي (١٩٤٧ - ١٩٥١)، ١٠٦٤٣؛ وبين عامي (١٩٥٢ - ١٩٥٦)، ١٢٣٩٠. وإذا ما قورنت هذه الزيادة بالنسبة الى فترة ما قبل الحرب عادت مثلين ونصف المثل. وفي قلعة الرأسمالية - الولايات المتحدة الأمريكية - قام أكثر من ٦٦ ألف إضراب خلال ١٦ عاماً من ١٩٤٥ حتى ١٩٦٠، اشترك فيها زهاء ٣٨,٥ مليون انسان.

ان الماركسية - اللينينية لا تعتبر النضال الاقتصادي هو النضال الممكن الوحيد، بل تعتبره كأحد أشكال النضال الطبقي للبروليتاريا وينبغي أن يبقى مرتبطاً بالنضال السياسي وخاضعاً لقضاياه.

أما النضال السياسي فهو الشكل الحاسم الرئيسي بين أشكال النضال الطبقي للبروليتاريا. يقول ماركس أن كل نضال طبقي هو نضال سياسي وهذا يعني أن نضال العمال ضد الرأسماليين بقدر ما يكون نضال طبقة ضد طبقة، يصبح نضالاً سياسياً ويتسع حتى يعم حقل السياسة. وفي النضال السياسي لا تبرز مصالح هذه الفئة من العمال أو هذه المهنة أو تلك بل لتبرز المصالح الطبقة العامة للبروليتاريا. ان النضال السياسي هو نضال طبقة العمال جميعاً ضد كل طبقة الرأسماليين أجمع.

ان الطبقة العاملة، اذ تقوم بنضالها السياسي، تُهب ضد الظلم الاقتصادي والسياسي الذي تمارسه البورجوازية مع كل الكادحين. وفي النضال السياسي بالذات تظهر الطبقة العاملة كمناضل حازم من أجل مصالح كل الشغيلة وتصيح قائدة لهم في النضال ضد الرأسمالية.

. وفي سير هذا النضال تبرز مطالب مختلفة : تحسين القوانين الاجتماعية، ضمان وتوسيع الحريات الديمقراطية، والاحتجاجات على التدابير الرجعية المختلفة للحكومات البورجوازية. . . الخ. هذه المطالب تتمتع بأهمية فائقة من أجل تأمين مصالح الطبقة العاملة. لكن مسألة السلطة هي أهم مسائل

النضال السياسي . ان أهمية الشكل السياسي للنضال تنحصر في كونه الوسيلة الوحيدة التي تتمكن بها الطبقة العاملة من انتزاع السلطة من يد البورجوازية واقامة دكتاتوريتها . وعندما تقوم الشروط المناسبة تبرز هذه المسألة لتكون أكثر مسائل العصر أهمية .

ثم إن نضال الجماهير الكادحة ضد هجوم الرجعية السياسية وانبعاث الفاشية في هذه الاشكال أو تلك ، ومن أجل الحقوق والحريات الديمقراطية وضد الروح العسكرية والحرب ، ومن أجل السلام والتعايش السلمي يشغل مدى واسعاً في الوقت الحاضر . إن هذه القضايا كلها ترتبط ببعضها ارتباطاً وثيقاً وتؤلف مجموعة المطالب الديمقراطية التي تنادي بها الحركة العمالية في كل مكان . ولا بد ، من أجل حلها ، توفر وحدة الطبقة العاملة محلياً ودولياً . ان النضال من أجل وحدة الطبقة العاملة ، وتصفية الانشقاقات في صفوفها ، هو أعظم المسائل السياسية والايدولوجية شأناً . وهكذا ، فبالرغم من أن النضال السياسي يأتي نتيجة لأسباب اقتصادية ويؤدي أخيراً الى تغيير ظروف الحياة المادية ، فهو يبقى الشكل الحاسم والرئيسي من بين أشكال النضال الطبقي ويلعب النضال الاقتصادي دور التابع بالنسبة له .

والشكل الثالث الأساسي للنضال الطبقي هو النضال الايدولوجي الذي يخضع كذلك لحاجات النضال السياسي . ومهمته نقد الايدولوجية البورجوازية ، والتشويهات التحريفية للنظرية الماركسية - اللينينية . وهو نضال من أجل التأثير على الجماهير وحمل الوعي الاشتراكي اليها . ولهذا فهو لا يفصل عن النضال السياسي وحاجاته ومتطلباته .

دور الحزب في نضال البروليتاريا الطبقي

ان الحزب السياسي هو ظاهرة اجتماعية أصيلة ، تلعب دوراً مهماً في حياة المجتمع الحديث . وتختلف الأحزاب عن الدولة ، كشكل للتنظيم السياسي في المجتمع الطبقي ، بكونها اتحادات اختيارية بين عناصر الطبقة التي تتحد تحت

راية ايدولوجيتها لمصلحة النضال المشترك .

ان حزب البروليتاريا السياسي هو صاحب الدور القائد والموجه في نضالها الطبقي . وبدون الحزب المسلح بالنظرية العلمية والمرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجماهير لا يمكن للبروليتاريا أن تحقق النجاح في نضالها ضد أعدائها الطبقيين . ومع الانتقال الى الامبريالية ، عندما احتدمت تناقضات الرأسمالية ، أثبتت الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية أنها أعجز من أن تقود البروليتاريا في نضالها الطبقي . لقد ولد الانتهازيون في حزب الاصلاحات الاجتماعية ثم انتصروا في تلك الاحزاب جميعاً بعد أن صاروا وسائط للتأثير البورجوازي على الطبقة العاملة . وقد وضع التاريخ مهمة خلق حزب جديد ، حزب الثورة الاجتماعية القادر على أن يكون طليعة نضال البروليتاريات الثوري . فأنشأ لينين هذا الحزب في روسيا ، فكان حزب البلشفيك . ثم ظهرت أحزاب شيوعية أخرى مماثلة حتى صارت تعد في وقتنا الحاضر ٨٧ حزباً شيوعياً تضم زهاء ٤٠ مليون شيوعي . هذه هي القوة الجبارة الحقيقية التي تنظم النضال الطبقي للبروليتاريا المعاصرة في البلدان الرأسمالية ، وبناء المجتمع الجديد في بلدان المعسكر الرأسمالي .

لقد صاغ لينين نظرية الحزب ووضع مبادئه التنظيمية . ان الحزب هو جزء من الطبقة ، وطلبتها التقديمية الواعية المنظمة الذي يحتضن أفضل عناصر الطبقة العاملة . وقد اعتبره لينين أعلى شكل للتنظيم الطبقي الذي يعبر عن المصالح الطبقيّة العاملة للبروليتاريا وينبغي أن يتسلم قيادة كل تنظيماتها الأخرى .

يقوم الحزب الشيوعي على أساس الديمقراطية المركزية التي اذ تعترف بأهمية الاجهزة القيادية والزام المنظمات السفلى بقراراتها ، تؤمن ، في الوقت ذاته ، حرية الانتخابات ، ومحاسبة الأجهزة القيادية ، وحرية النقاش واصدار القرارات الجماعية . ان الحزب الشيوعي ، بطبيعته ، منظمة ثورية للطبقة العاملة من شأنها أن تعيش وتعمل وتخلق الجديد وتحطم القديم . ان ادخال

المبادئ التنظيمية اللينينية الى حياة الحزب يخلصه من القرارات الجانبية السريعة، ويضمن للقيادة الحوية صحة منطلقاتها والتطور الواسع للمبادرة الخلاقة ولفعالية أعضاء الحزب والجماهير الكادحة.

إن الحزب قوي بوحدة وبتراص صفوفه، وهو اتحاد بين الشيوعيين الذين يجمعهم تفكير واحد. وتتعزز الوحدة الفكرية للحزب بقوة التنظيم والنظام الحديدي الذي يلزم الأعضاء جميعاً. وهو لا يحتمل وجود العناصر الانتهازية بين صفوفه، ولذا فقوته رهن أيضاً بتنقيته من هؤلاء.

إن الأحزاب الماركسية - اللينينية جميعاً هي أحزاب مستقلة ومتساوية في الحقوق. وهي تضع سياستها بتطبيق الماركسية - اللينينية على الظروف الحسية الموضوعية لبلدانها. وإلى جانب ذلك، وكما ورد في البيان الصادر عن مؤتمر الأحزاب الشيوعية والعمالية المنعقد عام ١٩٦٠، «فإن مصالح النضال من أجل قضية الطبقة العاملة تتطلب رص الصفوف داخل كل حزب شيوعي على حدة، وبين جحافل الشيوعيين في البلدان قاطبة، ووحدة ارادتها وأفعالها. إن العناية بتوطيد وحدة الحركة الشيوعية العالمية هي أسمى واجب أممي لكل حزب ماركسي لينيني»^(١). وقد أصبح البيان أيضاً أنه من أجل تأمين هذه الوحدة ينبغي على كل حزب شيوعي أن يحافظ على تأييده للقرارات المتخذة من قبل الأحزاب بصورة جماعية، والتي تتعلق بمهام النضال العامة ضد الامبريالية، ومن أجل السلم والديمقراطية والاشتراكية.

إن قوة الحزب هي في ارتباطه بالجماهير. وهو يعتمد على ثقة ومساندة الجماهير التي يقودها. والحزب يعلم كوادره أن تكون على صلة دائمة بالجماهير، ويربها على الاخلاص لمصالح الطبقة العاملة وجماهير الكادحين. والحزب لا يقوم بتعليم الجماهير وحسب، وإنما هو أيضاً يتعلم منها ويعمم تجربتها وينشرها بعد أن يسمع الى صوتها عن كثب.

(١) وثائق النضال من أجل السلم والديمقراطية والاشتراكية ص ٨٢.

والحزب يربي الجماهير ويحدد تكتيك الحركة العمالية وخطها الاستراتيجي ويهتم بالجمع الملائم بين مختلف اشكال النضال، وباختيار الوسائل الملائمة له.

إن الحزب يحافظ على نقاوة النظرية ويدفعها الى الأمام بشكل خلاق بما يتلاءم مع التجربة الجديدة والظروف التاريخية، وذلك في نضاله ضد التحريفين والديماغوجيين. إنه يربط النضال من أجل الأهداف الأساسية للطبقة العاملة بالنضال من أجل متطلباتها اليومية الملحة.

وقد وضع التاريخ على عاتق الأحزاب الشيوعية مهام تاريخية جساماً. «فالشيوعيون يرون مهمته التاريخية لا في القضاء على الاستغلال والفقر في العلم وحسب، وإنما أيضاً في تخليص الانسانية من كابوس حرب عالمية جديدة في عصرنا الراهن»^(١).

ومن أجل القيام بهذه المهام يسعى الحزب الى توحيد كل القوى الديمقراطية في المجتمع.

النضال الطبقي والتعايش السلمي

إن نشوء وتطور النظام الاشتراكي العالمي هو العامل الحاسم في عصرنا الراهن.

إن انقسام العالم الى نظامين، والنجاحات التي تحرزها بلدان المعسكر الاشتراكي في بناء حياة جديدة يؤثران تأثيراً متنوعاً على تطور النضال الطبقي للبروليتاريا في البلدان الرأسمالية. ولا يمكن أن تدرس الظواهر الاجتماعية التي تحدث في أي بلد رأسمالي بصرف النظر عن هذا العامل الحاسم في عصرنا الراهن، والذي من شأنه أن يعزز القوى الثورية في العالم أجمع. ومن جهة

(١) وثائق النضال من أجل السلم والديمقراطية والاشتراكية ص ٦٣.

أخرى، فعلى الرغم من التناقض الطبقي بين النظامين، لا يمكن تطبيق المفاهيم الموضوعة لدى تحليل العلاقات الطبقية في بلدان معينة تطبيقاً كلياً على التأثير المتبادل بين النظامين. فإذا كانت علاقات الطبقات داخل البلد ذات طابع استغلالي، وتحل التناقضات الطبقية في الصدام السافر، فإن النظامين الاجتماعيين يتعايشان بل ويمكن أن تقوم بينهما علاقات من المساواة، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية، والتبادل التجاري، والتعايش السلمي، وليس من الضروري مطلقاً أن تؤدي التناقضات فيما بينهما إلى صدام سافر. إن التعايش السلمي ضرورة موضوعية لتطور المجتمع. إن بعض الأوساط الامبريالية غير راغبة بالاعتراف بحق البلدان الاشتراكية في الحياة، بله قيام علاقات معها على أساس المساواة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية، ومحاولون إذكاء الحرب و « التحرير » بالقوة، أي إعادة توطيد النظم الرأسمالية. إن الرأسماليين يعدون عدتهم لارتكاب أشنع جريمة بحق الانسانية - لاشعال حرب عالمية هيدروجينية تهدد شعوباً كاملة بالزوال. إن المهمة الرئيسية الآن هي منع نشوب الحرب. ولقد نمت قوى السلم، في وقتنا هذا، الى درجة تتمكن معها من شل سياسة العدوان ومن النجاح في النضال ضد تصدير « الثورات » المضادة للثورات. إن العمليات الداخلية في البلدان الرأسمالية ستؤدي حتماً الى قلب النظام الرأسمالي واستبداله بالنظام الاشتراكي ومن أجل هذا ليس ثمة داع للحرب. إن كل شعب حر في أن يختار هذا النظام أو ذاك وفقاً لارادته. ومع تطور النظام الاشتراكي ستنمو الرغبة لدى كل الشعوب من أجل اقامة النظام الاشتراكي. ولهذا فإن الأخذ بالتعايش السلمي لا يعني الرجوع عن مثل الشيوعية. فالشيوعية هي المستقبل الزاهر للانسانية جمعاء. لكن الأمر هو أن بناء الشيوعية بحاجة الى السلم حاجة الانسان الى الهواء، وأنه يمكن للشيوعية أن تنتصر في العالم أجمع بدون الحرب.

وكما جاء في البيان الصادر عن مؤتمر الأحزاب الشيوعية والعمالية فإن

التعايش السلمي بين الدول ذات النظم الاجتماعية المختلفة هو شكل للنضال الطبقي بين الرأسمالية والاشتراكية. إن هذا النضال يدور أيضاً في كل الميادين الرئيسية للحياة الاجتماعية - الاقتصادي والسياسي والايديولوجي. وإن النضال الاقتصادي بين النظامين يأخذ شكل المنافسة الاقتصادية. وفي الميدان الايديولوجي لا يعني التعايش السلمي المصالحة والاتفاق وإنما النضال ضد الايديولوجية البورجوازية، وفي الميدان السياسي يكون خط التعايش السلمي خط تجنيد الجماهير من أجل القيام بأعمال فعال ضد أعداء السلم.

لقد قيل في المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي « إن التعايش السلمي بين الدول ذات الأنظمة الاجتماعية المختلفة يمكن أن يقوم، فقط، على أساس نضال جميع الشعوب ضد توفان الامبرياليين الى العدوان ». فالشعوب هي القوة الحاسمة في النضال من أجل السلم. وإن الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي يضع على عاتقه تطبيق السياسة اللينينية في التعايش السلمي بين البلدان ذات الأنظمة الاجتماعية المختلفة. إن النضال من أجل السلم يعني أن الجدل الايديولوجي والسياسي بين الدول ينبغي ألا يؤدي الى الحرب.

وهكذا، فإن نضال الطبقات هو القوة المحركة لتطور المجتمعات المتناقضة. وعندما تُصَفَّى مقاومة الطبقات الرجعية في النضال العنيف ضدها تمكن الطبقات الاجتماعية التقدمية من تحطيم النظم الاقتصادية والسياسية البالية، وتتمهد الطريق أمام تطور النظام الاجتماعي الجديد. إن نضال البروليتاريا الطبقي، باتحادها مع الجماهير الكادحة الأخرى في القرية والمدينة ضد البورجوازية، هو القوة الاجتماعية المحركة لعملية القضاء على الملكية الخاصة، ومن أجل بناء الاشتراكية.

٤ - النضال الطبقي في الفترة الانتقالية البنية الطبقيّة للمجتمع في الفترة الانتقالية

ان الثورة الاشتراكية تُجري تغييرات جذرية في البنية الطبقيّة للمجتمع . فهي تنتزع السلطة السياسية من أيدي البورجوازية وتدمر منعها الاقتصادية ، ثم لا تعود البورجوازية بعد ذلك طبقة رئيسية في المجتمع . وتتم تصفية البورجوازية الكبيرة والاقطاعيين منذ البداية . لكن القضاء على السيطرة الاقتصادية والسياسية للاقطاعيين والبورجوازية لا يعني القضاء نهائيا على تأثير البورجوازية في المجتمع . فالبورجوازية تحافظ على بعض مواقعها في الاقتصاد ويمكن أن تعتمد على تقاليد الماضي وعلى علاقاتها الدولية ومساندة الامبرياليين . ثم إن لدى البورجوازية معرفة وخبرة في ادارة الانتاج ، وهي تستفيد من عفوية انتاج البورجوازية الصغيرة .

وتنتقل الطبقة العاملة من طبقة مظلومة مضطهدة الى طبقة مسيطرة في المجتمع . فهي تستولي على الأجهزة القيادية في الاقتصاد ، وتعتمد على قطاعه الاشتراكي ، وعلى اتحادها مع الفلاحين الكادحين ، وعلى النظرية الماركسية - اللينينية العلمية الطليعية ، وعلى نفوذها كطبقة ثورية منتصرة في صراعها ضد البورجوازية ، وعلى التنظيم الحديدي والنظام الواعي . وهنا تجدر الإشارة الى أنه اذا كانت الطبقة العاملة الروسية قد قامت بالثورة ، وبنت الاشتراكية في هذا البلد ، فان جماهير الكادحين في بلدان الديمقراطية الشعبية تستطيع الاعتماد على مساندة الاتحاد السوفيتي ، وعلى المساعدة الأخوية لكل بلدان المعسكر الاشتراكي ، دون الاقتصار على مساعدة الحركة العمالية في البلدان الرأسمالية . وهو أمر من شأنه أن يعزز مواقع الطبقة العاملة في كل بلد يسلك سبيل البناء الاشتراكي .

ونتيجة للثورة الاشتراكية يحصل الفلاحون على ما كانوا يطمحون اليه عبر

القورن - الأرض . ان الاستيلاء على أراضي الاقطاعيين وتسليمها للفلاحين يؤدي الى نمو الفئة المتوسطة في القرية . لكن الثورة الاشتراكية لا تفضي حالا الى تعديل الطبقة الاجتماعية للفلاحين . فالفلاح ذو طبيعة مزدوجة : فهو ، من جهة أولى ، عامل . فقد كان الفلاح ، في عهد الرأسمالية ، يخضع لعمليات الاستغلال القاسية من قبل الاقطاعيين والكولاك والاحتكارات الرأسمالية . ثم إن تطور الرأسمالية يؤدي الى افلاس معظم الفلاحين . لكن الفلاحين ، باتحادهم مع الطبقة العاملة وتحمت قيادتها فقط ، يستطيعون الخلاص من الفقر والتحرر من ربكة الاستغلال . هكذا تنسجم المصالح الرئيسية للفلاحين مع مصالح الطبقة العاملة . ولهذا فان الفلاحين هم الحليف الجماهيري الطبيعي للطبقة العاملة في نضالها ضد الاقطاعية والرأسمالية . والفلاح ، من جهة ثانية . ملاك ، وهو ذو نزعة شديدة الى الملكية الخاصة . ولهذا فهو يتأرجح ما بين البورجوازية والبروليتاريا . ان معرفة طبيعة الفلاح المزدوجة ، وتأمين الاتحاد المكين بين الطبقة العاملة والفلاحين يؤلفان واحدة من أهم المسائل في سياسة ديكاتاتورية البروليتاريا . ولقد عالج لينين بعمق علاقة الطبقة العاملة بالفلاحين في عهد دكتاتورية البروليتاريا . وأكد بأن توطيد اتحاد البروليتاريا مع الفلاحين هو أسمى مبادئ دكتاتورية البروليتاريا . هذا الاتحاد يشكل ، تحت قيادة الطبقة العاملة ، القوة الاجتماعية الرئيسية التي تضمن انتصار الاشتراكية . ان الطبقة العاملة والفلاحين هما الطبقتان الرئيسيتان للفترة الانتقالية .

مهمات وأشكال النضال الطبقي

بما أن البورجوازية ما تزال باقية كطبقة في الفترة الانتقالية فانها تسعى الى تجميع قواها واستعادة مواقعها السلبية واعادة الرأسمالية . ولهذا فان السير نحو الاشتراكية لا يكون الا في النضال ضد البورجوازية . ويبقى النضال الطبقي

القوة المحركة للتطور في الفترة الانتقالية. لكن مهمات وأشكال النضال تتغير. فإذا كانت البروليتاريا قد ناضلت في ظروف الرأسمالية من أجل الاستيلاء على السلطة، فإن مهمات كثيرة تواجهها اليوم منها : أولاً، القضاء التام على الطبقات المستغلة عن طريق نزع ملكيتها عن وسائل الانتاج، وثانياً، التنظيم الاشتراكي للفئات البورجوازية الصغيرة. ان حل هذه المسألة الأخيرة يقضي على جذور الرأسمالية في الاقتصاد، كما أنه شرط ضروري للقضاء على الطبقات المستغلة. وتتحدد أشكال النضال في الفترة الانتقالية بالمهام العامة، وبالشروط المشخصة لبناء الاشتراكية في بلدان شتى.

وقد أشار لينين، بعد ثورة أكتوبر، الى خمسة أشكال رئيسية للنضال الطبقي في روسيا ذلك الزمان : سحق مقاومة المستغلين، والحرب الأهلية، واستخدام الاختصاصيين البورجوازيين، وحياد الفئات المتوسطة، والنضال من أجل نشر نظام العمل الجديد.

ان الشكل الأول منها ضروري للفترة الانتقالية لكل بلد لأن البورجوازية لا يمكن أن تستلم طوعية. إلا أن حدة هذا النضال، وأشكال وطرق سحق البورجوازية تتحدد بدرجة مقاومة الطبقات المستغلة الهرمة.

أما الحرب الأهلية فيه أكثر أشكال النضال الطبقي حدة. وهي ليست ضرورية لكل البلدان لأنه ليس في وسع البورجوازية دائماً أن تعقد لواءها كـ بين تطور الثورة الاشتراكية في بلدان الديمقراطية الشعبية. ان امكانية التطور السلمي للثورة، دون حرب أهلية، تزداد في وقتنا الحاضر كما أكد ذلك نظرياً المؤتمر العشرون لحزبنا.

ثم ان استخدام الاختصاصيين البورجوازيين شكل لا بد منه للنضال، لأن الطبقة العاملة التي تسلمت السلطة تكون دائماً في البداية مفتقرة الى الاختصاصيين. وعلاوة على ذلك، فإن الثورة الاشتراكية تهتم من أعماقها باستخدام المثقفين ومعارفهم ومواهبهم وتوجهها لمصلحة الجماهير الكادحة. لكن هذه العملية معقدة ومتناقضة وتتم تحت ضغط ورقابة الطبقة العاملة

ومقاومة قسم من مثقفي الماضي. لقد كانت هذه المقاومة عنيفة في روسيا، لكنه في وقتنا الحاضر وبفضل النجاحات الهائلة للاشتراكية، توفرت الشروط اللازمة لانتقال الجماهير الأساسية من المثقفين، بيسر، الى جانب الكادحين.

ولقد استمرت حيادية الفئات المتوسطة في روسيا حتى المؤتمر الثامن للحزب، ثم استبدلت فيما بعد بسياسة الاتحاد مع الفلاحين المتوسطين. ويمكن للحياد، كشكل للنضال، أن يطبق بالارتباط مع الشروط الحسية، بالنسبة الى كل الفئات والطبقات المتذبذبة، وكذلك كيلا يفسح المجال أمامها للارتقاء في أحضان العدو الطبقي. ففي الإصلاح الزراعي، مثلاً، في الصين، الذي كان موجهاً ضد الاقطاعيين طبقت سياسة الحياد بالنسبة الى فئة الكولاك. وإذا لم يكن ثمة مثل هذه العناصر المتأرجحة فليس ثمة من داع لتطبيق هذا الشكل من النضال.

وأخيراً، ان نشر وتعليم نظام العمل الجديد هو، دون ريب، الشكل العام للنضال. وهو موجه ضد عادات وتقاليد المجتمع القديم في وسط الكادحين أنفسهم، والطبقة العاملة ذاتها.

ان الثورة الاشتراكية، اذ تقضي على سيطرة البورجوازية في السياسة والاقتصاد، تقضي كذلك على سيطرة الايديولوجية البورجوازية في المجتمع. لكن هذه الأخيرة اذ تفقد سيطرتها، لا تزول نهائياً. ففي الفترة الانتقالية تبقى جذور الايديولوجية البورجوازية في الاقتصاد، تؤيدها قوة التقاليد الهائلة. ان النضال من أجل تحرير الجماهير الكادحة من سيطرة الايديولوجية البورجوازية، وتربيتها بالروح الاشتراكية، وان النضال من أجل تثبيت سيطرة الايديولوجية الاشتراكية في المجتمع يؤلفان محور الثورة الاشتراكية على النطاق الايديولوجي.

ان القضاء على الايديولوجية البورجوازية، وتربية الجماهير بروية اشتراكية، يتحققان في سير النشاط التطبيقي للجماهير ذاتها، وعلى تحميس نضالها من أجل الاشتراكية. إن الايديولوجية الاشتراكية مدعوة لتجنيد الجماهير من أجل حل

وكذلك بين هاتي الطبقتين من جهة والمثقفين من جهة أخرى. ان هذه الفوارق مشروطة بوجود شكلين للملكية وبالفوارق التي ما تزال قائمة بين العمل الفكري والعمل الجسماني.

ولدى تحليل البنية الاجتماعية للمجتمع الاشتراكي لابد من أن نأخذ بعين الاعتبار هذين الطرفين : أولاً، أن المجتمع الاشتراكي ناشيء عن المجتمع الرأسمالي. فمن المعروف أن المجتمع الرأسمالي لم يظهر في يوم من الأيام أو في بلد من البلدان « بالمظهر النقي » الذي يتألف فقط من العمال والرأسماليين. ففي البلدان الرأسمالية ثمة طبقة - قليلة كانت أم كثيرة من حيث عددها - من المالكين المتوسطين والصغار تضم الفلاحين والحرفيين والتجار الصغار الذي تتحول ملكيتهم الى ملكية اشتراكية لا عن طريق تصفيتها كما هو الأمر مع الرأسماليين، وانما عن طريق شكلين من أشكال الملكية الاجتماعية - ملكية الدولة والملكية الكولخوزية التعاونية، ويكون بالتالي ثمة طبقتان - العمال، والفلاحون الكولخوزيون التعاونيون.

ان تعريف لينين للطبقات يتناول طبقات المجتمع المتناقض. لكن السمات الرئيسية للفوارق الطبقة التي أشار اليها لينين تشمل طبقات المجتمع الاشتراكي أيضاً. ان الطبقة العاملة والفلاحين الكولخوزيين في الاتحاد السوفييتي يختلفان من حيث مكانهما في نظام الانتاج الاجتماعي وعلاقتهما بوسائل الانتاج. فالطبقة العاملة مرتبطة مباشرة بالشكل الحكومي للملكية الاشتراكية التي تلعب الدور الاول بالنسبة الى ملكية الفلاحين الكولخوزية التعاونية. وهذا هو الاساس الاقتصادي لدور الطبقة العاملة القيادي في اتحاد الطبقتين.

وكما هو معروف، فان تنظيم العمل في المعامل والمصانع يتميز عن أشكال تنظيم عمل الفلاحين في الكولخوزات. ان العمال والكولخوزيين مرتبطون بالأشكال المختلفة للتوزيع. فالاجور هي شكل دخل العمال، في حين ان العمل، ومحصول الأرض الخاصة، هما اللذان يؤلفان شكل دخل الفلاح.

وثانياً، ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار أن الطبقات في المجتمع تختلف، من حيث وضعها في المجتمع ومن حيث طبيعتها الاجتماعية، عن كل الطبقات في التشكيلات السابقة. فهي لا ترتبط بالملكية الخاصة بل بالملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج. ورغم انها طبقات شغيلة، الا أنها لا تخضع للاستغلال وتجمعها مصالح وأهداف مشتركة، وتمحي الفوارق فيما بينها مع تطور المجتمع الاشتراكي. وفي وقتنا الحاضر (حسب احصائيات ١٩٥٩) نجد أن العمال والمستخدمين في المدينة والريف يشكلون ٦٨,٣٪ من مجموع السكان، وأن الفلاحين الكولخوزيين يؤلفون ٣١,٤٪.

الوحدة السياسية الاجتماعية

مع القضاء على الملكية الخاصة، والطبقات المستغلة، يتم تقويض أساس النضال الطبقي، وتظهر، لأول مرة، منذ آلاف السنين، الوحدة الدائمة بين المصالح الرئيسية للمجتمع كله. ان الطبقة العاملة والفلاحين والمثقفين يهتمون جميعاً بتطوير قوى الانتاج وتعزيز البناء الاشتراكي وبناء الشيوعية. وعلى هذا الأساس ينمو التعاون الودي بين العمال والفلاحين والمثقفين، هذا التعاون الذي يحتل مكان النضال الطبقي من أجل حل القضايا الاجتماعية العامة وتطوير القوى الانتاجية للمجتمع. ومن جهة أخرى، فان الحل الناجح للقضايا الاجتماعية القائمة أمام المجتمع الاشتراكي ممكن فقط بقيام ذلك التعاون وبتوحيد الجهود المنظمة للمجتمع بكامله. إن تخلف الانتاج الزراعي، مثلاً، عن حاجات البلاد في الاعوام الاخيرة أمكن تلافيه بتوحيد جهود العمال الكولخوزيين والعمال والمثقفين. فالفلاحون عندنا جد مهتمين بالتقدم التكنيكي للصناعة، ويهتم القائمون بالعمل الجسماني بتطوير العلم والفن، والقائمون بالعمل الفكري يهتمون بالتطوير السريع للانتاج الزراعي والصناعي. فليس هنالك من مسألة تتعلق بالسير نحو الشيوعية الا ويساهم

الاشتراكي الأخرى التي حطمت قيود الامبريالية، ودخلت فترة التطوير العاصف للصناعة والزراعة والثقافة، ليشهد على ذلك أيضاً.

ان تعزيز الوحدة الفكرية والسياسية في المجتمع الاشتراكي هو مهمة من أهم مهام الحزب. إنه يعني تمتين أواصر الاتحاد بين الطبقة العاملة والفلاحين الكولخوزيين، وتوثيق التعاون بين العمل الفكري والعمل الجسدي، وتطوير الصداقة بين شعوب الاتحاد السوفييتي على أساس مبادئ الأهمية البروليتارية، وخلق أفضل الشروط من أجل تنمية واستخدام قوى الجيل الجديد، وإشراك المرأة في النشاط الانتاجي الاجتماعي، وتقوية الدور القيادي للحزب. وهنا تجدر بنا الإشارة الى أن اتحاد الطبقة العاملة مع الفلاحين الكولخوزيين، بقيادة الطبقة العاملة، يبقى، طوال فترة الاشتراكية، أساس وحدة المجتمع السياسية والاجتماعية.

التناقضات في الاشتراكية

ان المجتمع الاشتراكي يقضي على تناقضاته بتطوره، لكن هذه التناقضات ليست ذات طابع طبقي متناقض كما في التشكيلات السابقة. فليس وراء هذه التناقضات طبقات اجتماعية يهيمها أن تحاف— على القديم. ولهذا فان الميول المحافظة التي تظهر لدى بعض الناس يمكن القضاء عليها بسهولة ولا تتطلب اللجوء الى وسائل النضال الطبقي. وهو أمر يتيح للمجتمع الاشتراكي، أولاً، أن يحل تلك التناقضات ابان نضوجها، بسرعة، وبالوقت المناسب، ويفتح الطريق واسعة امام الحديد، وثانياً، أن يحل تلك التناقضات وفقاً لمصالح المجتمع كله. ان مثل هذا الحل للتناقضات هو شرط ضروري لتوطيد وتطوير وحدة المجتمع. ومن جهة أخرى، فان الوحدة الاجتماعية السياسية هي القوة المحركة لحل التناقضات وفقاً لمصالح توطيد وتطوير الاشتراكية. ان الوسيلة الفعالة الحاسمة لكشف التناقضات وإزالتها هي في النقد والنقد الذاتي الذي يعبر عن فعالية الجماهير الخلاقة، وعن علاقتهم بالقضية كأرباب لها، وذلك

عن طريق إبراز كل ما من شأنه أن يعيق التطور. ان النقد الاشتراكي الحاضر ذو طابع خلاق بناء. فهو موجه من أجل توطيد الاشتراكية لا من أجل تقويض دعائمها، وهو يكشف العيوب ويبين طرق إزالتها، وهو يبرز العيوب والأخطاء في العمل أيضاً مع انتشار التجربة التقدمية. ان انتشار التجربة التقدمية هو الوجه الثاني للنقد، وذو أهمية فائقة من أجل النمو السريع للجديد وانتصاره.

ان تناقضات المجتمع الاشتراكي متنوعة. وتحدد خصائصها بخصائص ظهور وتطور الاشتراكية. وينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار أن مخلفات القديم تبقى بعد انتصار الثورة الاشتراكية زمناً طويلاً في حياة وعي الناس، وهي مرتبطة بكون الاشتراكية تحمل «بقعاً وراثية» من المجتمع القديم. وفي عهد الاشتراكية يكون ثمة تناقضات بين الجديد وبين ما يهرم ويبدأ في عرقلة التطور: بين قوى الانتاج وعناصر العلاقات الانتاجية أو الاشكال الهرمة لتنظيم وإدارة الانتاج، بين نمو العمل الانتاجي والمستويات التكنيكية القديمة، بين الشروط الجديدة وبين الأسلوب القديم في العمل... الخ.

ويمكن ان تحمل التناقضات أحياناً طابع الصدفة عندما تكون مرتبطة بالأخطاء، أو بعدم التقدير الكافي لأهمية القوانين الموضوعية في التخطيط...

وكل هذه التناقضات تتشابك مع بعضها، ومع حل أحدها ينشأ الآخر... وعلى هذا، ففي الاشتراكية يصبح حل التناقضات ضرورياً لحل مختلف القضايا الاشتراكية، إلا أن هذه التناقضات، تناقضات نمو الاشتراكية وتطورها، لا تقوض وحدة المجتمع في القضايا الأساسية إذا حلت في الوقت المناسب وبالشكل الصحيح. ويعود الدور الكبير في حل التناقضات للنقد المبدئي، ولتنظيم النضال ضد العيوب. «ان الأحزاب الماركسية - اللينينية تتميز عن غيرها من الأحزاب السياسية بأن الشيوعيين يكشفون بجرأة ودونما تردد عن العيوب والنقائص في أعمالهم ويقضون عليها. ان النقد، مهما بلغت حدته، من شأنه أن يساعدنا في التقدم الى الأمام. ان هذا هو دليل على قوة الحزب الشيوعي وشاهد على إيمانه العميق بقضيته». ان وحدة المجتمع

الاشتراكي هي وحدة حية متطورة تتوحد من خلال حل تناقضاته.

ثم انه ليس ثمة نضال طبقي بين طبقات وفئات المجتمع الاشتراكي. إلا انه من الخطأ أن نستنتج من هذا وقوف المجتمع الاشتراكي بعيداً عن النضال الطبقي وخارج حدوده. فرغم القضاء على التناقضات بين الطبقات، داخل المجتمع الاشتراكي، ما يزال المعسكر الرأسمالي قائماً. ان الدول الرأسمالية لم تعد قادرة على ايجاد قاعدة مادية ما في البلدان الاشتراكية من أجل ممارسة نشاطها العدواني ضد البناء الاشتراكي، وليس للبورجوازية العالمية نقطة استناد في هذه البلدان. لكنها، مع هذا، ما تفك تحاول باصرار ارسال عملائها واستخدام ما خلفته الرأسمالية في وعي الناس من أجل تنفيذ أغراضها القذرة. ومن هنا ينتج أنه في الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية الأخرى التي قضت على الطبقات المستغلة في الداخل، يكون النضال الطبقي الحاد العنيف موجهاً الى الخارج ضد الرأسمالية. وبموجب هذا فإن جزينا يدعو الشعب السوفييتي الى اليقظة الثورية الدائمة والى تعزيز القوى الدفاعية للدولة السوفييتية تعزيزاً دائماً ومستمراً كوسيلة رئيسية للدفاع عن المجتمع الاشتراكي.

ان الانتصار الكامل الحاسم للاشتراكية في الاتحاد السوفييتي ودخوله مرحلة بناء الشيوعية يعني بدء مرحلة جديدة في العلاقة المتبادلة بين الطبقات داخل البلاد، وأن عملية ازالة الحدود والفوارق الطبقة الكاملة سوف تسير بسرعة مطردة.

طرق القضاء على الطبقات

من المعروف أن الماركسية تريد القضاء العام على الطبقات. وان ضرورة القضاء على الطبقات تنبع من تطور القوى المنتجة في المجتمع. ولقد كتب انجلز في كتابه « أنتي دهرينغ » أنه عندما كان تطور الانتاج ما يزال ضعيفاً

كان لوجود الطبقات مبرره التاريخي. « ان النمو الكبير لقوى الانتاج الذي حققته الصناعة الضخمة هو وحده الذي يسمح بتقسيم العمل بين كل أعضاء المجتمع دون استثناء، ويتخلص بهذا يوم العمل لكل عامل مما يوفر الوقت الكافي من أجل المساهمة في القضايا التي تهم المجتمع ككل من نظرية وتطبيقية. وبالتالي، يصير وجود الطبقة المسيطرة المستغلة طفلياً زائداً، بل وأكثر من هذا: فهي تصبح عثرة مباشرة في طريق التطور الاجتماعي^(١) واستطرد انجلز يقول: « ان طريقة التوزيع تحت تطور الانتاج، هذه الطريقة التي تتيح لجميع أعضاء المجتمع وابرز امكانياتهم وتطويرها وتعزيزها ».

ان القضاء على الطبقات المستغلة هو من المنجزات العالمية التاريخية للاشتراكية. لكنه تبقى في عهد الاشتراكية ثمة فوارق بين العمال والفلاحين والمثقفين. ومن أجل بناء مجتمع لا طبقي، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، ينبغي ازالة هذه الفوارق كلها. ومن أجل هذا لابد من القضاء على كل مخلفات التقسيم الاجتماعي القديم للعمل بينب المدينة والقرية، وبين العمل الفكري والعمل الجسدي.

ان ازالة الفوارق بين المدينة والقرية مرتبطة برفع الملكية الكوخوزية الى مستوى ملكية الشعب كله، وتحويل العمل الزراعي الى نوع من العمل الصناعي، ورفع مستوى المعيشة الاقتصادي والاجتماعي في القرية الى مستوى المدينة.

كما أن محو الفوارق الأساسية بين العمل الجسدي والعمل الفكري سوف يتم أخيراً، من خلال النهوض بالمستوى التكنيكي والثقافي للطبقة العاملة والفلاحين الى مستوى العمل التكنيكي للمهندسين، وتقريب العلم في الانتاج، وأتمته العمليا الانتاجية ومكنتها، والقضاء على الحاجة الى العمل

(١) انجلز. « أنتي دهرينغ » ص ١٧٠ - ١٧١.

الذي لا يقوم على الخبرة والكفاءات.

ان كل هذه العمليات الاجتماعية تؤلف قسماً ضرورياً لبناء الشيوعية وهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتطور قوى الانتاج وعلاقات الانتاج في المجتمع الاشتراكي من جهة، ويتطور الشخصية من شتى جوانبها، من جهة أخرى. وعلى هذا، فان القضاء على الطبقات ينحصر في ثلاث مراحل : مرحلة قلب سلطة الطبقات المستغلة والقضاء على ملكيتها الخاصة؛ ومرحلة تحويل الانتاج السلمي الصغير الى انتاج جماعي كبير، والقضاء على الكولاك؛ ومرحلة ازالة الفوارق الطبقة بين العمال والفلاحين، ويجاد الشروط اللازمة للوحدة العضوية بين العمل الفكري والعمل الجسماني^(١). ولقد تم تحقيق المهمتين الأوليتين في بلادنا.

وفي المرحلة العليا للشيوعية سوف يتم القضاء على بقايا الفوارق الطبقة وسيقوم المجتمع اللاتبقي - أسمى أشكال تنظيم المجتمع الانساني.



الفصل الأول:

- الفلسفة وتحويل العالم تحويلاً ثورياً ص ٥
- دور الفلسفة العرفاني والمهاجي في نشاط الناس . ١٤
- الفلسفة الماركسية اللينينية الاساس النظري للنشاط التحويلي الثوري ٢١
- نشوء الفلسفة الماركسية - اللينينية وأهم خصائصها ٢٦

الفصل الثاني

- مادية العالم بوصفها مبدأ التعليل العلمي للبارسة ٣٧
- التعريف اللينيني للمادة وأهميته ٣٩
- الخواص والاشكال العام لوجود المادة ٤٣
- قوانين العالم المادي ونشاط الناس ٥٢

الفصل الثالث

- المادة والوعي ٥٩
- الوعي هو خاصة المادة الرفيعة التنظيم ٥٩
- الوعي هو انعكاس العالم المادي ٧٠
- نقد نظرية الرموز ٩١
- الكلام والتفكير ١٠٠

الفصل الرابع

- قوانين تطور المجتمع بوصفه نظاماً اجتماعياً ١٠٩

(١) خروشوف. حول برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي ص ٧٨ - ٧٩.

- العناصر البنوية للتشكيلات الاجتماعية الاقتصادية ص ١١٠
- البناء التحتي والبناء الفوقي ١٢١
- قوانين التاريخ وحرية العمل الثوري ١٢٧

الفصل الخامس

- الطبقات والنضال الطبقي ١٣٣
- ١ - جوهر الطبقات ونشوءها ١٣٤
- ٢ - تحليل البنية الطبقيّة للمجتمع ١٤٣
- ٣ - النضال الطبقي ودوره في التاريخ ١٥٠
- ٤ - النضال الطبقي في الفترة الانتقالية ١٦٦
- ٥ - البنية الطبقيّة والعلاقة المتبادلة بين الطبقات في المجتمع الاشتراكي ١٧١

